جامعة مؤتة

وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي

صندوق دعم البحث العلمي
Scientific Research Support Fund

المجلة الأردنية في

اللغة العربية وآدابها

مجلة علمية عالمية متخصصة ومحكمة
تصدر بدعم من صندوق دعم البحث العلمي
وزارة التعليم العالي

المجلد (١٦) العدد (٤) ٢٠٢٠ م

ISSN 2520 - 7180

الرقم المتسلسل
٥٩

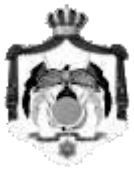

المملكة الأردنية الهاشمية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مؤتة
عمادة البحث العلمي

المجلَّة الأردنيَّة في

اللغة العربيَّة وآدابها

مجلَّة علميَّة عالميَّة متخصصة ومحكّمة

تصدر بدعم من صندوق دعم البحث العلمي
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المجلد (١٦) العدد (٤) ٢٠٢٠م

الناشر
عمادة البحث العلمي
جامعة مؤتة
الكرك / ٦١٧١٠ الأردن
فاكس: ٠٠٩٦٢ ٣ ٢٣٩٧١٧٠
البريد الالكتروني : jjarabic@mutah.edujo

المملكة الأردنية الهاشميـــة
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٣٦٣٥ / ٢٠٠٧ / د)

رقم التصنيف الدولي
ISSN 2520-7180
Key title: Jordanian journal of Arabic language and literature Abbreviated key title: Jordan. J. Arab. lang. lit.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنَّفِهِ
ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي
جهة حكومية أخرى

© ٢٠٢٠ عمادة البحث العلمي
جميع الحقوق محفوظة، فلا يسمح بإعادة طباعة هذه المادة أو النقل منها أو تخزينها، سواء كان ذلك عن طريق النسخ أو التصوير أو التسجيل أو غيره، وبأية وسيلة كانت: إلكترونية، أو ميكانيكية، إلا بإذن خطي من الناشر نفسه.
جامعة مؤتة

المجلد (١٦) العدد (٤) ٢٠٢٠م

رئيس التحرير
أ.د أنور أبو سويلم

سكرتير التحرير
د. خالد الصرايرة

هيئة التحرير

أ.د محمد محمود الدروبي — أ.د. محمد علي فاضل الشوابكة
أ.د. إبراهيم محمد الكوفحي — أ.د. عبدالحليم حسين الهروط
أ.د عمر عبدالله أحمد الفجّاوي — أ.د. حسين عباس محمود الرفايعة
أ.د. فايز عارف سليمان القرعان — أ.د. سيف الدين طه الفقراء

الهيئة الاستشارية للمجلة

أ.د. عبد الكريم خليفة — أ.د. عبد الملك مرتاض
أ.د. عبد السلام المسدي — أ.د. عبد العزيز المانع
أ.د. أحمد الضبيب — أ.د. عبد الجليل عبد المهدي
أ.د. محمد بن شريفة — أ.د. بكري محمد الحاج
أ.د. صلاح فضل

التدقيق اللغويّ
أ.د خليل عبد الرفوع (عربي)
د. عاطف الصرايرة (إنجليزي)

مديرة المطبوعات
سهام الطراونة

الإشراف
د. محمود نايف قزق

التنضيد والإخراج الضوئيّ
عروبة الصرايرة

المتابعة
سلامة الخرشة

©حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها

مجلة علمية عالمية محكمة

أ- شروط النشر:

- لغة المجلة هي العربية ويمكن أن تقبل بحوثاً بالإنجليزية أو أية لغة أخرى، بعد موافقة هيئة التحرير.
- يقبل للنشر في المجلة البحوث والنصوص المحققة والمترجمة ومراجعات الكتب المتعلقة باللغة العربية وآدابها.
- يشترط فيما يقدم للمجلة أن يكون أصيلاً ولم يسبق تقديمه لمجلة أو أية جهة ناشرة أو أكاديمية (وألاّ يكون جزءاً من رسالة علمية). ويتعهد الباحث بذلك خطياً عند تقديم البحث للنشر.
- أن يكون البحث المقدم خاضعاً لأسس البحث العلمي وشرائطه.
- يصبح البحث بعد قبوله حقاً محفوظاً للمجلة ولا يجوز النقل منه إلاّ بالإشارة إلى المجلة.
- يجوز للباحث إعادة نشر بحثه بعد مضي سنتين على نشره في كتاب بعد موافقة هيئة التحرير الخطية على أن يشار إلى المجلة حسب الأصول.
- يتولّى تحكيم البحث محكمان أو أكثر حسب تقدير هيئة التحرير.
- يقدم الباحث أربع نسخ مطبوعة ونسـخة إلكترونية على (Flash) او (Cd) باستخدام البرنامج الحاسوبي (MS Word) بمسـافات مزدوجة بين الأسطر وهوامش ٢.٥سم، وعلى وجه واحد من الورقة (A4)، بحيث لا يزيد عدد صفحات البحث على (٤٠) صفحة.
- يكون نوع الخط المستخدم في المتن Simplified Arabic بنط ١٤. أما الحواشي فتكون بنفس الخط وبنط١٢.
- يذكر الباحث على الصفحة الأولى من البحث اسمه ورتبته الأكاديمية والمؤسسة التي يعمل فيها.
- تحتفظ الهيئة بحقها في عدم نشر أي بحث وتُعدُّ قراراتها نهائية.
- لا ترد الأبحاث التي لم تقبل لأصحابها.
- يلتزم الباحث بدفع النفقات المالية المترتبة على إجراءات التحكيم في حال سحبه للبحث أو رغبته في عدم متابعة إجراءات التقويم.
- يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي يقترحها المُحَكِّمُون خلال شهرٍ من تاريخ تسلُّمه القرار.
- يخضع ترتيب الأبحاث في المجلة لمعايير فنية تراها هيئة التحرير.
- الأبحاث المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو الجامعة أو سياسية اللجنة العليا أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في المملكة الأردنية الهاشمية.

ب- تعليمات النشر:

- أن يُكتب ملخّصٌ للبحث باللغة العربية وآخر بالإنجليزية بما لا يزيد على (١٥٠) كلمة لكل منهما وعلى ورقتين منفصلتين بحيث يكتب في أعلى الصفحة عنوان البحث واسم الباحث (الباحثين) من ثلاثة مقاطع مع العنوان (البريدي والإلكتروني) والرتبة العلمية وتكتب الكلمات الدالة (Keywords) في أسفل صفحة الملخص بما لا يزيد على خمس كلمات بحيث تعبر عن المحتوى الدقيق للمخطوط.

- يُشار إلى المصادر والمراجع في متن المخطوط بأرقام متسلسلة توضع بين قوسين إلى الأعلى هكذا: [١]، [٢]،[٣] ويكون ثبتها في أسفل صفحات البحث، وتكون أرقام التوثيق متسلسلة موضوعة بين قوسين في أسفل كل صفحة، فإذا كانت أرقام التوثيق في الصفحة الأولى مثلاً قد انتهت عند الرقم (٦) فإن الصفحة التالية ستبدأ بالرقم (١). ولا يعاد إيرادها عند نهاية البحث، ويكون ذكرها للمرة الأولى على النحو الآتي:

الكتب المطبوعة:

اسم شهرة الكاتب متلواً باسمه الأول والثاني وملحقاً بتاريخ وفاته بالتاريخين الهجري والميلادي، واسم الكتاب مكتوباً بالبنط الغامق، واسم المحقق أو المترجم، والطبعة، والناشر، ومكان النشر وسنته، ورقم المجلد – إن تعددت المجلدات – والصفحة. مثال:

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م): **الحيوان**. تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، ط٢، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥، ج٣، ص٤٠. ويشار إلى المصدر عند وروده مرة ثانية على النحو الآتي:

الجاحظ، **الحيوان**، ج، ص.

الكتب المخطوطة:

اسم شهرة الكاتب متلواً باسمه الأول والثاني وملحقاً بتاريخ وفاته بالتاريخين الهجري والميلادي، واسم المخطوط مكتوباً بالبنط الغامق، ومكان المخطوط، ورقمه، ورقم اللوحة أو الصفحة. مثال:

الكناني، شافع بن علي (ت٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م): **الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور**. مخطوط مكتبة البودليان باكسفورد، مجموعة مارش رقم (٤٢٤)، ورقة ٥٠.

الدوريات:

اسم كاتب المقالة، عنوان المقالة موضوعاً بين علامتي تنصيص " "، واسم الدورية مكتوباً بالبنط الغامق، رقم المجلد والعدد والسنة، ورقم الصفحة، مثال: جرار، صلاح: "عناية السيوطي بالتراث الأندلسي– مدخل"، **مؤتة للبحوث والدراسات**، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٧٩–٢١٦.

وقائع المؤتمرات وكتب التكريم والكتب التذكارية:

ذكر اسم الكاتب، واسم المقالة موضوعة بين علامتي تنصيص " "، واسم الكِتاَب كاملاً بالبنط الغامق، واسم المحرر أو المحررين إن كانوا غير واحد، ورقم الطبعة، واسم المطبعة والجهة الناشرة، ومكان النشر، وتاريخه، ورقم الصفحة. مثال: الحياري، مصطفى: "توطن القبائل العربية في بلاد جند قنسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري"، **في محراب المعرفة: دراسات مهداة إلى إحسان عباس**، تحرير: إبراهيم السعافين، ط١، دار صادر ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤١٧.

- تكتب الأعلام الأجنبية حين ورودها في البحوث باللغة العربية والإنجليزية بعدها مباشرة محصورة بين قوسين ( ).
- يراعى النظام المتبع في دائرة المعارف الإسلامية عند كتابة الأسماء والمصطلحات العربية بالحروف اللاتينية.

- ترسم الآيات القرآنية بالرسم العثماني بين قوسين مزهرين﴿ ﴾ مع الإشارة إلى السورة ورقم الآيـــة. وتثبـــت الأحاديث النبوية بين قوسين هلاليين مزدوجين(( )) بعد تخريجها من مظانها.
- **تكون المراسلات على النحو الآتي:**

رئيس تحرير المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها

عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية

ص.ب (١٩) مؤتة- (٦١٧١٠) الأردن

هاتف ٠٩٩- ٢٣٧٢٣٨٠ (٣-٩٦٢)

فاكس: ٢٣٩٧١٧٠ (٣-٩٦٢)

E-mail: jjarabic@mutah.edu.jo

المجلة الأردنية في اللغة العربية آدابها

مجلة دورية محكمة تصدر عن اللجنة العليا للبحث العلمي – وزارة التعليم العالي والبحث العلمي– وعمادة البحث العلمي في جامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية

ثمن العدد: (٣) دنانير

قسيمة الاشتراك

تصدر المجلة أربعة أعداد في السنة، ويدفع قيمة الاشتراك بالدينار الأردني أو ما يعادله بشيك أو بحوالة بنكية ترسل إلى:

رئيس تحرير المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها
عمادة البحث العلمي/ جامعة مؤتة
الكرك– الأردن

قيمة الاشتراك السنوي:

– للافراد:

- داخل الأردن: (١٠) دنانير
- خارج الأردن: (٣٠) دولاراً

– للمؤسسات:

- داخل الاردن: (٢٠) ديناراً
- خارج الأردن: (٤٠) دولاراً

– للطلبة: (٥) دنانير سنوياً

اسم المشترك وعنوانه:

الاسم	
العنوان	
المهنة	

طريقة الدفع: ☐ شيك ☐ حوالة بنكية ☐ حوالة بريدية

التوقيع : **التاريخ :** / / ٢٠١

محتويات العدد

المجـــــــلد (١٦) العـــــدد (٤) ٢٠٢٠م

	اسم البحث	الصفحات
*	يقظة الحس الزمني في الدرس البلاغيين بين التركيب والدلالة "نماذج مختارة من أحوال المسند إليه والمسند" **د. موزة بنت حمد الكعبي**	١٣-٤٨
*	قراءة في فكر وليد معابرة من خلال كتابه "ذكريات خبيثة " **أ.د محمد حسن عوّاد، فاطمة محمد حسن إسماعيل**	٤٩-٧٦
*	وظيفة التنوين في أبنية الأسماء المُعربة: دراسة صوتية صرفية **د. جمال دليع العريني**	٧٧-١٠٠
*	التوجِيْهُ الدّلاليّ لِنَماذجَ مِنِ الانْزِياحِ اللغويّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ **د.باسم يونس البديرات**	١٠١-١٤٠
*	أثر اللسانيات التداولية في فهم الدلالات البلاغية للتشبيهات في العربية **د. هاجر أحمد المومني**	١٤١-١٦٢
*	مُؤَشِّرَاتُ الانْكِسَار وَمُحَفِّزَاتُ الانْتِصَارِ فِي الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْفِلَسْطِينِيِّ مُدَارَسَةٌ أَيْدِيُولُوجِيَّةٌ فِي "نَجْمَة فَوْق بَيْت لَحْم" لخَلِيل تُومَا **د. طــه غالب عبد الرّحيم طــه**	١٦٣-٢١٦

يقظة الحس الزمني في الدرس البلاغيين بين التركيب والدلالة

"نماذج مختارة من أحوال المسند إليه والمسند"

د. موزة بنت حمد الكعبي *

تاريخ تقديم البحث:١١/١٠/٢٠١٩م. تاريخ قبول البحث: ١٥/٦/٢٠٢٠م.

ملخص

هذه الدراسة تبين الفكر البلاغي عند أربابها تجاه الزمن، فهو يمثل لديهم سياقات نصية ذات قوالب ذهنية لها وظائف معرفية وأبعاد معنوية، تنتج عنها كثافة بلاغية تتماشى بخط متوازٍ مع النظم النحوية للغة التي تحملها جنبا إلى جنب ولم تخالفها إلا في تأويلات لها استناداتها المعرفية

تجسد هذه الدراسة وثيقة بلاغية مكثفة متخذة من عروس الأفراح والمطول والأطول لشرح تلخيص الخطيب القزويني أنموذجا في أحوال المسند والمسند إليه لتجسد نموذجا للفكر البلاغي نحو التراكيب اللغوية وأزمانها واستمطار معانيها، تحوي هذه الدراسة على ثلاثة محاور أساسية تشكلت عبر النظر إلى وجهة الزمن وحجم امتلائه بالحركة من عدمها:

١. دائرة الحس الزمني في الدرس البلاغي، زمن الحدث والحديث عنه دراسة عمودية

٢. مراتب الحس الزمني في الدرس البلاغي التنبؤي الاستشرافي أو التراجعي المتأخر دراسة أفقية.

أ- يقظة الحس البلاغي الزمني التنبؤي" الاستشرافي" السابق لوقته

ب- يقظة الحس البلاغي الزمني التراجعي المتأخر عن وقته.

٣. يقظة الحس البلاغي من تغييب الزمن وتصفيره.

لتخلص هذه الدراسة بأن الفكر البلاغي فكر تأويلي تتبعي لسياقات النصية وفق نظامها اللغوي وما ينتج عنه من معانٍ متعددة لعقارب الزمن أحيانا، سواء كان الزمن متقدما أم متأخرا أم مصفرا، مع الأخذ بالاعتبار ما يحتويه السياق من أدوات وضمائم وقرائن حالية كتصنيف المتكلم ممن لا يكذب ومتكلم يكذب ليصب ذلك كله في صنع معنى بديع دقيق، وأن هناك مساحات من الزمن متداخلة مع بعضها رغم اختلاف توقيتها لوجود مساحات سياقية متوالية في الأحداث تتطلب نظما زمنيا متداخلا.

الكلمات المفتاحية: الزمن، الدرس البلاغي، الإسناد، التقييد بالشرط، البلاغيون، الحدث، المتحدث.

* قسم اللغة العربية، جامعة حفر الباطن، المملكة العربية السعودية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

Awareness about Time Sensation in the Rhetorical Lesson between Structure and Indication (Selected models from predicate and subject-predicate conditions)

Mozah Hamad Alkaabi

Abstract

This study shows the rhetorical though of its specialists towards time. Thus, it represents textual contexts that have mental formation with cognitive functions and meaningful dimensions which are filled with rhetoric that runs in a paralleled line with the grammatical system of the language holding it side by side and never breaking it unless in some interpretations that have cognitive basis. This study embodies an intensive rhetorical document taken from a book entitled (Wedding Bride for illustrating the model of both lengthy and longest) regarding the attribution and restriction condition that embody in rhetorical thought to deal with the linguistics structures regarding its time and the extract meanings. This study consists of three main parts which form by looking to the direction of time and its fullness of movement: 1. The circle of sense of time in the rhetoric lesson, the event's time and the speech about it – a vertical study. 2. Degrees of sense of time in rhetorical lesson of predictive outlook or the late retrospective – a horizontal study: a. consciousness of sense of rhetorical time of predictive outlook that precede its time. b. The sense of rhetoric retrospective time that late of its time. 3. The sense of rhetoric in the absence and unavailability of time. To conclude that the rhetorical thought is an interpretive thought that tracing the textual contexts according to its linguistics system and its result from others sometimes of exact time early, late or nothing from contexts with a concentration on what the context's tools, enclosure and current evidences such as the classification of the speaker does not lie and the speaker lies which creates wonderful accurate meaning. Also there were spaces of time interacts with themselves despite the difference in timing for existence of consecutive context spaces required interacted time system.

Keywords: Time-Rhetorical Lesson-Attribution--Restriction condition-the event-speaker

"**المقدمة**"

لم يكن البلاغيون بمعزل عن دقة الحس الزمني شعبه ودروبه وأثره، فهو من الأدوات الإجرائية التي تقود إلى تشييد المعنى ضمن ضوابط التأويل المعرفي للدرس البلاغي، فقد أدركوا أن الزمن يتفاوت لتفاوت الحدث وتعدد زمن الحديث عنه وفق معنى يرسمه قائله، أو ناقل الحدث، فالمعنى منفصل عن الواقع الـــمـــدرك، وما الصلة بينه وبين الواقع إلا صلة عرضية؛ لأن المعنى كما يقول الرازي: "ما عناه العاني وقصده القاصد"(١)، فهو وثيق الصلة بقصد القائل، فما هو إلا أبنية نفسية وأمثلة شعورية في نفس قائله، ويتجلى ذلك في حديث أهل البلاغة حينًا في خروج الكلام خلاف مقتضى الظاهر مثلا، وسيتضح ذلك بمناقشة الأمثلة والشواهد في هذه الدراسة، وما جهد أولئك الجهابذة في قياس الزمن وأثره على السياق إلا دلالة على استيعاب الدرس البلاغي للزمن ودلالته.

موضوع البحث:

يقظة الحس الزمني في الدرس البلاغيين بين التركيب والدلالة "نماذج مختارة من أحوال المسند إليه والمسند نموذجا"

مشكلة البحث:

لا شك بأن هذه الدراسة تجيب عن عدد من الإشكاليات التي تواجه الباحث:

* ماهي صورة الزمن عند البلاغيين في أحوال المسند إليه والمسند؟

* كيفية تفاعل عناصر السياق لإنتاج دلالات زمنية وفق التركيب والسياق من وجهة نظر السبكي والسعد والعصام في أحوال المسند والمسند إليه وكيف تجلي تلك الدلالات في مفاهيم ورسائل مباشرة، أو غير مباشرة للمتلقي.

* كيف تتبع الفكر البلاغي السياقات النصية ذات الدلالات الزمنية وفق نظامها اللغوي وأثر ذلك في تأويل وإنتاج المعنى؟

* هل للبلاغة زمنها الخاص عند الشراح؟

---

(١) الرازي، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر، **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، ج:١، ط: ٣، بيروت، دار الفكـــر، ١٤٠٥هـــ، ١٩٧٥م، ص ٣٢.

حدود الدراسة:

الحد الأول من حيث الموضوع:

الزمن من حيث وحداته الثلاث (ماضية–مضارعة –أمر) التي نص عليها النحاة العرب القدامى[١] غير أن التعبير عن الزمن يتأخذ صورا مختلفة في الأداء، وهو في الغالب عن طريق الوحدات المعجميّة الدالّة، أو من خلال تصريف الأفعال، أو من خلال ما توحي به التراكيب، ويستفاد من السياقات أو الأساليب المتّبعة في الكلام، ولذا ستشمل الدراسة على كل ما يتعلق بسياقات الزمن من ضمائم وقرائن تساعد في تحديد زمنية المراد، ومنها ما يتعلق بزمن تواجد الشخوص كما في الالتفات فزمنية المتحدث أو قت التلفظ في القول سيكون له زاوية في هذه الدراسة ولربما سأل سائل ما سبب جعل الالتفات في هذه الدراسة الزمنية ؟

الالتفات حال من أحوال المسند وإن لم يتقيد بالمسند إليه كما ذكر السكاكي[٢]، أما دخوله في السياق الزمني لا من حيث الوقت بل من حيث وقت وجود المخاطب، أي زمن التلفظ كان موجودا أم غائبا واستأنس بما رأته إحدى الاستاذات حين كتب بأهمية دراسة الزمن البلاغي وذكرت منه الالتفات في مقال لها[٣]، لاشك أن لزمن التلفظ بالقول تواجد في معنى الزمن فحال حضور الشخوص أو غيابها وقت الحديث أو زمنه هو ما تم اعتبار صلته بالزمن، فالدراسة وإن كانت زمنية إلا أنها ليس زمنية بالمعنى الحرفي المعجمي، بل ما يدل على معنى الزمن ويخدم السياق ليعطيه بعدا زمنيا.

الحد الثاني من حيث النص:

لم يخصص المُنجز البلاغي القديم فصولًا للزمن، غير أنَّ محاريثه طالته، وتربته زُرعت فيها أطيب النُكات التي تستحق الوقوف والتأويل، وتنطلق هذه الدراسة متخذة من بعض نصوص شروح التلخيص كعروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، والمطول لسعد الدين التفتازاني والأطول لعصام الدين الإسفرائيني، في أحوال المسند و المسند إليه، وليشمل ما ذكره السبكي والسعد والعصام عن الزمن وفق الحد المذكور ضمن مواطن أحوال المسند إليه والمسند ولا ينفي هذا التحديد خلو هذه الشروح

(١) سيبويه، أبو البشر عثمان بن قنبر، الكتاب ، أبو البشر عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، عالم الكتاب، ١٩٥٠م، ط:١، ص: ١/ ١٢

(٢) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد، مفتاح العلوم ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:٢ ، ١٩٧٨م، ، ص١٩٩

(٣) العتيبي، زكية الزمن البلاغي، جريدة الجزيرة، العدد: ١٧٢١٥،تاريخ النشر ١٦-١١-٢٠١٩

من الحديث عن الزمن وسياقاته وجهاته في بقية شروحهم ففي المجاز المرسل وبعض فصول البديع وفرة كما سأشير في دراسات مشابهه.

أهمية البحث:

تأتي أهميته من أهمية كتاب التلخيص للخطيب القزويني في البلاغة الذي عُدَّ الشمس التي تدور عليها كواكب البلاغة، ومنها تأتي أهمية الشروح التي دارت حوله(١)، و من أهمها: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني، والأطول في شرح تلخيص المفتاح، لعصام الدين الاسفرائييني، فالسبكي عُدَّ من قبل بعض أهل الاختصاص أفصل من القزويني ذاته، في حين اعتبر مطول السعد من خيرة الكتب التي تمثل الاتجاه الكلامي في التأليف البلاغي(٢)، كما أن العصام وإن كان أقل منهما جودة غير أن مناكفتاه للسعد رفعت من قيمة الشرح(٣).

تُزيح هذه الدراسة الستار عن نفائس هذه الشروح التي حُصر وصفها بأنها فلسفية فقط دون إشارة إلى الفتوح الأدبية التي تحتاج إلى من يجليها ويبين سبقها وقربها من الدراسات الأدبية، كما أنَّ "للمقاربة التداولية للزمن موقعًا بارزًا ضمن خريطة المنظورات التحليلية في خريطة البحث اللساني المعاصر"(٤).

في هذه الدراسة إثبات ورد على ما شاع بين المختصين بدراسة الألسنية في الغرب من أن اللغات السامية ومنها العربية ناقصة الدلالة على الزمن بأفعالها، فالعربية ليس فيها إلا فعلين منجز أو غير منجز،–من جهة نظرهم–، فهي لا تهتم بصيغ الأفعال الثلاثة وفروعها بقدر ما تهتم بالحدث المنتهي والحدث الذي لم ينتهِ(٥)فهذه الدراسة وإن لم تكن مختصة بالأفعال الزمنية إلا أن حديثها عن الزمن بأشكال متعددة ليثبت ويدعم "بأن اللغة التي استطاعت أن تجسد الوقت بألفاظ كالضحى والشروق والفجر والبكور والغدو رغم صعوبة التفرقة بين هذه الأوقات في كثير من اللغات الأخرى إلا بالجمل

(١) مطلوب، أحمد، **القزويني وشروح التلخيص**، مكتبة النهضة، بغداد، العراق، ١٩٨٦م، ط: ٢، ص: ٥٢٤

(٢) مطلوب، أحمد، **القزويني وشروح التلخيص**، ص: ٥٦٩، ٥٠٣

(٣) مطلوب، أحمد، **القزويني وشروح التلخيص**، ، ص: ٦٠٠، المراغي، أحمد مصطفى، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة مكتبة مطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٥٠م، ط١، ص: ١٧٩

(٤) الملاخ، امحمد، **الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية**، المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون،٢٠٠٩م، ط: ١، ص: ٦٧.

(٥) عبد الجبار توأمة، **زمن الفعل في اللغة العربية قرائنه و وجهاته**، دراسات في النحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٤م ط: ب، ت، ص: ٧٦، ٧٧.

والتراكيب، فليس من الطبيعي أن يبلغ إحساس القوم بالزمن ثم يخلو كلامهم من الدلالة على الإحساس في مواضع مختلفة" (١) .

منهج البحث:

اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي من جمع للشواهد، لتنتظم في تقسيمات، وفق نظرة زمن الحدث وزمن الحديث عنه ومحور آخر وفق تقديم عقرب الزمن في السياق أو تأخيره أو تصفير السياق من الحس الزمني

الدراسات المشابهه:

وهي إما في اتجاه النحو أو في البلاغة، وفي حقيقة الأمر لم أعثر على دراسة تناولت الزمن وفق ما جاء في شروح التلخيص الثلاثة أو غير الثلاثة حسب ما أعلم، أما ما أشبهه الدراسة من حيث الزمن في الدرس البلاغي، فهناك ثلاث دراسات أطروحتان ومؤلَّف، أما المؤلف فهو لإسماعيل شكري "في معرفة الخطاب الشعري دلالة الزمان وبلاغة الجهة"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٩م، والكتاب بعيد الطرح عن هذه الدراسة حيث إنه كما ذكر جميل حمداوي: "بأنه اهتم بالجهة البلاغية باستثمار آلية التكرار، فهو يحيلنا على بلاغة الجهة بالخصوص، على أساس أن التكرار هو بمثابة إيقاع زمني دائري يتحكم في مقومات التشاكل، ويسمى أيضا بتكرار الوضع"(٢).

أما ما يخص الأطروحتان فهما الأقرب بالنسبة لهذه الدراسة من حيث الاختصاص البلاغي إلا أن الدراستين اتجهتا نحو التأصيل لمصطلح الزمن البلاغي على أبواب البلاغة المتعددة، وهما طور الإعداد ولم يتم مناقشتهما بعد وقد اطلعت على خطتهما بعد التواصل مع مشرف الأولى ومع الباحث ذاته في الدراسة الثانية، وهما:

١- "الزمن البلاغي تأصيل وتطبيق مدح الذات في شعر المتنبي نموذجا"، سراب بنت صالح بن صبيح، إشراف: د. زكية السليس العتيبي، رسالة ماجستير، جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

(١) العقاد، عباس محمود ، **الزمن في اللغة**، مجلة الأديب اللبنانية، العدد: ٦،١ يونيو ١٩٦٠م، ص: ٢، العقاد، عباس محمود، اللغة الشاعرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٣م، ب، ت، ص: ٤٤.

(٢) شكري، إسماعيل، **في معرفة الخطاب الشعري: دلالة الزمان وبلاغة الجهة**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط:١، ٢٠٠٩م. ص: ٥٥، حمداوي، جميل، مفهوم **الجهة في اللسانيات**، الألوكة ، المغرب، ٢٠١٦م، ط: ١، ص: ١٦.

السعودية-١٤٣٧هـ-١٤٣٨هـ، تناولت الزمن كما ذكرت في خطة رسالتها من حيث زمن المتكلم لا بألفاظه المعجمية، كما أنها تناولته قبل عبد القاهر الجرجاني وحتى القزويني.

٢- "الزمان في البلاغة العربية"، ضياء حسين محب الدين، إشراف: د. البدري الأمين دفع الله، جامعة الجزيرة، السودان، ٢٠١٧م، وتم توزيع أبواب وفصول الرسالة على أبواب البلاغة الثلاثة، في حين أن دراستي أتت على محاور مختلفة لا من حيث الأبواب البلاغية بل من حيث دوائر الزمن ومراتب الزمن من حيث تقديم الزمن أو تأخيره أو امتلاء السياق بالزمن أو تصفيره، وبهذا يتضح الفرق بين الدراستين وهذه الدراسة من حيث التقسيم والتناول والتخصيص لشراح بعينهم، وقد علمت بالرسالتين بعد الانتهاء من هذه الدراسة بوقت طويل.

أما الدراسات التي تكلمت عن الزمن من الناحية النحوية فهي كثيرة جدًا وحدودها نحوية لسانية صرفية مقارنة بين اللغات في كثير من الأحيان، ولم يكن جانب المعنى ومعنى المعنى بالتفضيل هاجسها لها، وإن تطرقت له بصور مبسطة، وعلى سبيل المثال لا لحصر:

١- زمن الفعل في اللغة العربية قرائنه وجهاته دراسات في النحو العربي، عبد الجبار توأمة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٤م ط: ب، ت.

٢- الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية، امحمد الملاخ، الرباط-المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون،٢٠٠٩م، ط: ١.

٣-دلالة الزمن في اللغة العربية دراسة النسق الزمني للأفعال، دار توبقال، عبد المجيد جحفة، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٧م، ط: ١،

٤- مفهوم الجهة في اللسانيات، جميل حمداوي، الألوكة، المغرب، ٢٠١٦م، ط: ١.

والدراسات السابقة نحوية صرفية لسانية خالصة لم تتطرق إلى البلاغة البلاغين ولها من القيمية العلمية مالا يغضُّ منها.

خطة البحث:

اشتملت هذه الدراسة على ثلاثة محاور:

١. دائرة الحس الزمني في الدرس البلاغي دراسة عمودية:

أ- زمن الحدث

ب- زمن الحديث عنه.

٢- مراتب الحس الزمني في الدرس البلاغي التنبؤي الاستشرافي أو التراجعي المتأخر دراسة أفقية.

أ- يقظة الحس البلاغي الزمني التنبؤي" الاستشرافي" السابق لوقته.

ب- يقظة الحس البلاغي الزمني التراجعي المتأخر عن وقته.

٣- يقظة الحس البلاغي من تغييب الزمن وتصفيره.

أولا: دائرة الحس الزمني في الدرس البلاغي:

وهو محور عمودي يضرب عمق الزمن فيقسمه إلى شقين:

أ- زمن الحدث مثل: التعبير بالمسند الفعلي بدلاً من الجملة الاسمية أو الاسم.

ب-زمن الحديث عنه، مثل: الانتقال من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم في الالتفات.

أ- زمن الحدث:

أدرك البلاغيون أن لزمن الحدث في صنعتهم دوالَّ زمنية ذات مغازٍ بعيدة، بل كان من المسلمات لديهم فتحدثوا عن مزية المسند الفعلي عن غيره لما فيه من اختزال وانكماش للحدث والزمن، دون أن يحتاج إلى ضميمة أو قرينة تبين ذلك؛ مما يجعله أقرب إلى الاختصار، الذي هو آنس للبلاغة وأكثر سكناً لها.

قال السبكي: (يكون المسند فعلاً لدلالته على أحد الأزمنة مع الاختصار؛ لأن قولك: "زيد قائم" يدل على وقوع قيامه في الماضي مع الاختصار، فإنه يغني عن قولك: "قائم في الماضي" والفعل حيث وقع دل على التقييد بأحد الأزمنة الثلاثة، إما معنيًا مثل: "قام" حيث لم يقع صلة، أو صفة لنكرة عامة، أو في شرط، ومثل: "سيقوم" وإما مبهما بين أمرين مثل المضارع إذا قلنا: إنه محتمل للحال والاستقبال، والماضي إذا وقع صفة أو صلة لنكرة عامة فإنه يحتمل المضي والاستقبال والحال....خلافا لقول ابن مالك: "يحتمل المضي والاستقبال فإنها عبارة قاصرة لعدم ذكر الحال، ودلالة الفعل على الزمان بالتضمن بخلاف دلالة "قائم" على الحال؛ فإنها ليست بالتضمن بل الالتزام

والتحقيق أن الفعل الواقع صلة سلب الدلالة على تعين الزمان وصار صالحا للأزمنة الثلاثة مضارعا كان أم ماضيا) [١].

فالحس الزمني عندهم دقيق لارتباطه بالسياق الفعلي للنص، فالفعل المضارع "ينجح" في قولنا: "محمد الذي ينجح رأيته" ليس حِجْرا على الاستقبال بقدر ما هو تحديد لصفة محمد المعنِي، ولم يكتفِ البلاغي ونعند حدود هذا بل كانوا مدركين أن الزمن الواحد ينتج عن تمثلات ذهنية متعددة ينتقي منها المتكلم ما يناسب السياق الحالي، فالتمثل الذهني المعرفي صيرورة مركبة تعتمد على خلق وتعديل وتجميع لتمثُلات ذهنية لتأويل الملفوظ: ومن تلك الصيرورة المركبة أن الفعل إذا جاء واصفًا للحال فهو لا يعني المضي بمعناه الحرفي ولا الاستقبال بمعناه المتقدم الدقيق، بل نراه كما يقول السعد: أنه يعني (أجزاء من أواخر الماضي وأوائل المستقبل متعاقبة من غير مهلة وتراخٍ، كما في "زيد يصلي" والحال أن بعض صلاته ماضٍ وبعضها باقٍ فجعلوا الصلاة الواقعة في الأنات الكثيرة المتعاقبة واقعة في الحال)[٢]، وفي قولهم: "أجزاء من الماضي والمستقبل" نجد حِسًّا زمنيا رمادياً متداخلًا عند البلاغيين دون القطع بانتمائه إلى أي وقت.

وتنبه البلاغيون إلى دقيقة وهيأن ارتباط الفعل بقرينه كما في الفعل المضارع لا ينافي سمة الاختزال والانكماش في الفعل، فالعصام يقرر أن هذا زيادة في المعنى بطريقة التدرج لتعين أمر ما بطريقة أكثر اختصارًا من التعبير بالمسند الاسمي، يقول العصام: (فإن قلتَ: لا يرجِّح ذلك الفعل المضارع على الاسم؛ لأنَّ تقييده بأحد الأزمنة يتوقف على القرينة لاشتراكه، قلتُ: يحصل التقييد بدون القرينة بأحد الأزمنة بمقتضى الوضع لا محالةَ، وإنَّما يُحتاج إلى القرينة لتعيين المراد.

فإن قلتَ: فما الفائدة في الإيراد فعلاً ولا مندوحةَ عن القرينة إلا أنَّ القرينة هنا لتعيين المراد، وفي الاسم للتقييد؟ قلتُ: فائدته التدرُّج في التعيين، وذلك موجبٌ لمزيد التقرُّر.

بَقِي أنه لا تظهر منافاةُ التقييد بالقرينة العقلية التقييدَ على أخصر وجهٍ؛ إذ القرينة العقلية لم تُعَدَّ مِن موجبات الإطناب، وكيف لا؟ وإيجازُ الحذف لا يُعقل بدون القرينة!)[٣].

---

(١) السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ج:١، ط: ١، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣ه–٢٠٠٢م، ص: ١/ ٤١٣.

(٢) التفتازاني، سعد الدين بن مسعود بن عمر، **المطول شرح تلخيص المفتاح**، صححه وعلق عليه: أحمد عزو عناية، ط: ١، بيروت– لبنان، دار إحياء التراث، ١٤٢٥هـ، ص: ٣٠٠.

(٣) الاسفرائيني، عصام الدين إبراهيم بن محمد، **الأطول على تلخيص المفتاح**، دراسة وتحقيق: محمد الخراز، رسالة جامعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض السعودية ،١٤٢٣هـ–١٤٣٤ه، ج: ٢، ص: ٤٨٨،٤٨٩.

ولثنائية الاسم والفعل مساحتها في الدرس البلاغي فهي تدور على قطبين متناقضين موجب الحركة في الفعل وهو الحدث وزمنه وسلبها وهي الثبوت والاستمرار في المسند في الاسمي، لنجد السبكي والسعد يتناولان الزمن بطريقة فنية ضاربين المثل بشواهد وأمثلة، كقول طريف:

أَوَ كُلَّمَا وَردتْ عكَاظَ قَبِيلَـةٌ بَعثُوا إليَّ عَرِيفَـهُـمْ يَـتَـوَسَّـمُ (يذكر الشاعر بسالته وشهرته، وأنه كلما وردت قبيلة سوق عكاظ أرسلوا القيم على أمرهم يتوسم الوجوه؛ ليتعرف على طريف طلبا للثأر منه؛ لأن له في كل قوم نكاية، ولو وضع الاسم موضع الفعل، وقال: بعثوا إلي عريفهم متوسما، لذهب من المعنى شكله ورواؤه، وفسد الكلام، وذلك لأنه أراد أن العريف يقع منه التوسم والتعرف والتأمل شيئا فشيئا، فهو دائب المراجعة والتصفح، وتجديد النظر في وجوه القوم، وهذا يعني أنه معنِـيٌ جدا بالبحث عن طريف، ولو قال: "متوسما" لكان المعنى أن العريف على صفة التوسم، والتأمل دون إشعار بحالة التجديد، وإذا عرفت هذه الخصوصية في دلالة الفعل ودلالة الاسم وهي الخصوصية التي تشتد الحاجة إلى معرفتها في علم البلاغة) [1]كما يقول الجرجاني: (فاعلم أن الفعل يفيد أيضا تقييد المسند بأحد الأزمنة التي يدل الفعل عليها، فإذا كان ماضياً فإنه يقيد الحدث بالزمن الماضي، وإذا كان مضارعا قيده بحال، وهكذا، وذلك بخلاف الاسم، فإنه لا يدل على زمان) [2].

فالزمن عملية متحركة متجددة، له مسار متجدد لغرض بلاغي يخدم السياق، وهنا يحدد الحس الزمني تمثلات ذهنية لها مسار يريد المتكلم توجيهه حامله، فهو حين أراد أن يصف القيم وصفه بفعل متكرر الزمن لتجدد الحدث، ولذلك وقف عنده أرباب البلاغة بنوع من القراءة الواسعة التي تبين مسار الزمن ومحوره العمودي، ففي المسند الفعلي انكماش واختزال لمعانٍ لم يكن بالممكن طرحها بصورة مختصرة لولا الاستناد عموديًا على العقرب الزمني للفعل.

وقد يتبادر للمتمعن استدراك على البلاغيين الذين أكدوا أن التجدد من أهم ما يميز النكات البلاغية في المسند الفعلي، فكيف يتجدد الماضي وهو ماضٍ فالماضي مفرغ من الحاضر؟

ولم يفت مجهرهم أنَّ "كلما" الشرطية في قول طريف هي من منحت التجدد للفعل الماضي: (لأن كل فعل حادث تجدد بعد أن لم يكن، ولا نعني قولنا: "قام زيد" يدل على أنهلم يكن قائما على الدوام؛

(١) أبو موسى، محمد محمد، **خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، ط:٥، مصر، مكتبة وهبة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص: ٢٩٩، ينظر السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**: ٢/ ٤١٣، ٤١٤، العصام/ **المطول شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٣٠٠.

(٢) أبو موسى، محمد محمد، **خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**: ص: ٢٩٩

لصحة قولنا: "أحيا الله زيداً"، وإن كان لم يزل حياً منذ صدق عليه اسم زيد، ولكن مدلول الفعل التجدد، وذلك أعم من تجدد شيء يتقدمه مثله أولا، فإن الأفعال المستمرة ليست فعلا وحدا، بل الفعل في كل وقت غير الفعل في الوقت الذي قبله، وإن اتحد بالنوع)[١]، ويذيل السبكي كلامه مباشرة بوقفة مبسطة في ماهية التجدد في الفعل فالماضي تجدده في الحصول والمضارع تجدده في التكرار والوقوع مرة بعد مرة أخرى، وفي هذا التفاتة حسنة على دقائق الزمن والعلة من تكرار الزمن وحدوث الحدث فيه.

ومن زاوية أخرى للحس البلاغي يقارن بين المسند الاسمي والمسند الفعلي عندما استدعوا الشاهد الشعري:

لاَ يـــأْلَفُ الـــدَّرْهمُ المضْـــرُوبُ صُـــرَّتَنَا لكِـــنْ يَمُـــرُّ عَلَيهَـــا وَهْـــوَ مُنْطَلِـــقُ.

يقول السعد مُوقِفا الزمن: فـــ (الانطلاق ثابت له دائم من غير اعتبار تجدد) [٢]، فهو يوقف عقارب الزمن لإفادتها التلاشي والجمود، قال الشيخ (هذا هو الحُسْنُ اللائقُ بالمعنى، ولو قلتَه بالفعل: "لكنْ يَمُرُّ عليها وهو ينطلقُ" لم يحسن الفرق بين الخبر صفة مشبهة، والخبر إذا كان فعلا: فموضوع الاسم أن يثبت الشيء للشيء من غير اقتضاء أنه يتجدد فالمقصد من قولنا: "زيد منطلق "إثبات الانطلاق، أما "ينطلق" فالغرض التجدد جزء فجزء، فلا يستوي "زيد منطلق" و"زيد ينطلق"[٣]، فالاسم مفرغٌ من التجدد خالٍ منه.

فقد حرصوا على التفرقة بين السياقات النصية والتراكيب الصرفية المتشابهة فاسم الفاعل يلزم الثبات حتى لو عمل في حين أن للفعل العكس، وهو الأنسب لبيت الشعر لثبات صفة الكرم، و يذكر السبكي أن هناك ما ينضم إلى اسم الفاعل فيجعله دالاً على زمن مثل: "زيد الضارب أمس" مما يجعله معرِض المدح أو الذم، (فإن قلنا بأن: "زيد ضارب الآن أو أمس أو غدًا" لا يدل على الثبوت لتقييده بالزمن الدال على التجدد ولاسيما "ضارب غدا"، وإن لم يقيد بظرف فهو مصروف إلى الحال قلت: الدلالة على التجدد عند التقييد بالظرف إنما هو بناء على أن الظرف ينفي الوقوع في غيره بالمفهوم، ولا نسلمه، كما هو قول مشهور في مفهوم الصفة، وإن كان مرجوحا فقد سلمناه فقد يقال: إننا نعني الثبوت وعدم التجدد بالنسبة إلى ذلك الظرف، فقولنا: "زيد ضارب غدًا" معناه أن الضرب الذي سيقع

(١) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح:** ١/ ٣١٦

(٢) العصام، **المطول شرح تلخيص المفتاح:** ص: ٣١٤

(٣) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، قرأ وعلق عليه: محمود شاكر، **دلائل الإعجاز**، ط: ٥، مصـــر، الشـــركة الدولية للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـــ ٢٠٠٢م، ص:١٧٧- ١٧٨.

منه غدا يقع ثابتا مستقرا سواء كان موجودًا قبل ذلك أم لا، بخلاف "زيد يضرب غدًا" فإنه يدل على أنه يتجدد له في غد ضرب، فلا معارضة حينئذ بين مفهوم الظرف ودلالة الاسم على الثبوت سلمنا ذلك كله، فالاسم إنما يدل على الثبوت ما لم يعمل) [1].

وفي نهاية هذا المحور اتضح أن دراستهم للزمن عموديًا جاءت من عمق الحدث ومبدأ الصمت وما يطويه من ثبات وصمت للأشياء وحركتها، وما في الحركة من انطلاق ماضوي وآني ومستقبلي ومثله الضجيج، مع حرص على التمثيل والتعليل على أسس منطقية نحوية بحتة، ومنها نزداد يقيناً أن رهافة الأذن البلاغية في استشعار حساسية مقياس الزمن كما لحظنا في "زيد ينجح" و "زيد الذي ينجح رأيته" مثلاً، وتغير مسار الزمن عمودياً إلى ترددات وتدخلات ما بين الماضي والمضارع تحددها مساقات وضمائم معرفية تحتضنها أوعية اللغة.

ب- زمن الحديث عن الحدث:

تأهب الدرس البلاغي لانحرافات مسار الحديث عن زمن الحدث وأفرد له وقتا ليس باليسير، وقد تمّ تداوله على شكل من التفكير العقلي الذي ملأ كتبهم وشروحهم، فجاءت سياقاتهم النصية معبرة عن فكر ظُلِم في كثير من الأحايين، وظَلَم في أحيان أخر، فقد ظُلِم عندما قصُرت الأفهام والمدارك عنه عندما تأدلجت بأن ما ورد في شروحهم عقما وسما بمجمله دونما تمحيص لقول شاع وذاع، ولا نخفي بأنها ظَلَمت حين أُكثر من الجرعات المنطقية التي قتلت روح الفن البلاغية، وبين هذا وذاك قراءات نافعة لو استغلت وأحسن استغلالها.

وفي مسار عمودي آخر للزمن ضمن دائرة زمن الحديث سواء كان في الزمن الحاضر ضميره أو الغائب، وكأنها دائرة خارج دائرة، ومن ذلك صور الالتفات مثلا، فهو الانتقال من ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطب، ضمن تشكلات خطابية وأنساقٍ نصية عنى بها أصحاب الدرس البلاغي المنطقي على وجه الخصوص، لما في ذلك الانتقال من حصار نفسي للتواجد الذهني عند المتلقي في الفلك النصي، مما يخلق دائرة للتواصل بين المتحدث والمتلقي فتتبلور الرسالة بينهما، وذلك مما أنبتته تربة أصحاب الدرس البلاغي من تردد الحس الزمني بين ما ينبغي أن يكون عليه إلى ما أخرجته مقاصد المتكلمين ومشارب المتحدثين.

ولاشك أن حديثهم عن الالتفات من أوائل ما يطالعنا في زمن الحديث عن الحدث فقد عُرف الالتفات بأنه: العدول من متكلم إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة، ومن متكلم إلى غيبة، ولك أن

(١) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح:** ١/ ٤١٤.

تعكس الثلاثة في الثلاثة فهو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة، وقد اخترت هذا الوجه الذي ارتضاه أغلب البلاغيين وعلى رأسهم السكاكي[١]، و قيَّد الخطيب الالتفات بقوله: (بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، وهذا أخص من تفسير السكاكي؛ لأنه أراد بالنقل أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره)[٢].

والواضح من قولهم: بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، أنه لا يكون في أول الكلام سواء وافق مقتضى الظاهر أو خالفه، فقول القائل وهو يعنى نفسه: (ويحك ما فعلت وما صنعت) ليس التفاتا عند الجمهور، وإن كان مقتضى الظاهر أن يقول: (ويحي ما فعلت وما صنعت)، ومثل هذا كثير في الشعر وخاصة في مطالع القصائد، وهذا يعد التفاتا عند السكاكي، فهو يعني به أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره ، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره، وهذا القسم الأخير هو مما خالف فيه الجمهور، ويشمل ما ذكرناه من قول القائل: "ويحك ما فعلت" لأنه عبر عن المتكلم بطريق المخاطب، وكان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بطريق التكلم[٣].

فالالتفات عند الجمهور من شرطه أن يأتي في أول الكلام بعد أن يأتي الكلام موافقًا لظاهر الكلام، فالمتكلم بعد أن يعبر عن ذات بإحدى الطرق الثلاثة من تكلم أو غيبه أو خطاب ينتقل في كلامه، فيعبر عن تلك الذات بطريق آخر من تلك الطرق الثلاثة، وخالفهم السكاكي فجعل مسمى الالتفات أن يعبر عن ذات بطريق من طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة عادلاً عن أحدهما الذي هو الأحق بالتعبير في ذلك الكلام إلى طريق آخر منها، ويظهر أثر الخلاف بين الجمهور والسكاكي في المحسن الذي يسمى بالتجريد[٤].

وإن كانت هذه الدراسة لا تعني بخلافات البلاغيين بقدر ما تعني بفكرهم الزمني، فالسكاكي وقبله الزمخشري لا يشترطان أن يسبق التعبيرَ تعبيرٌ آخر، فالفكر الزمني عند الزمخشري والسكاكي

---

(١) ينظر السكاكي، **مفتاح العلوم**، ص: ٢٩٦، وينظر: مطلوب، أحمد، **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها** عربي- عربي، ط:٢، بيروت- لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٨٩هـ ١٩٩٦م، ص: ١٧٣ وما بعدها .

(٢) ينظر القزويني، محمد بن عبد الرحمن، شرح وتعليق: محمد السعدي فرهود، عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ج: ١، ط: ٦، مصر-بيروت، دار الكتاب، ١٤٢٥ه،٢٠٠٤م، ص: ١/ ٧٢

(٣) أبو موسى، **خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**: ص:٢٥١

(٤)التجريد: انتزاع أمر من آخر مطلقاً، ونكتته العامة التفنن في الأسلوب كالالتفات لتقاربهما، وأن كان مبني الالتفات على اتحاد المعنى، ومبني التجريد على التغاير بينهما بحسب الاعتياد، وقد يجتمعان وقد ينفرد الالتفات، وقد ينفرد التجريد، وفي التجريد فائدتان: طلب التوسع في الكلام، وتمكين المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه، إذ يكون مخاطباً بها غيره، فيكون أعذر له، ينظر الخطيب، **الإيضاح في علوم البلاغة**: ٥٢٨/٢، مطلوب، **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**: ٢٥٨ وما بعدها، وينظر الهاشمي، أحمد، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ط:١،بيروت- لبنان، المكتبة العصرية، ١٩٩٩م ص: ٣٠٨.

هو المباغتة في تصفير الزمن والعدول من ضمير إلى ضمير، لا يشترطه تقدم تعبير آخر يتحقق فيه معنى الالتفات من جهة المتكلم، فالزمن يُصفَّر ليحدث الإيقاظ والتنبيه، وكأنَّ إيقاع ارتفاع التسارع الزمني مؤشر إلى البدء من الصفر ليرتفع فجأة، فيكون الإيقاظ والتنبيه للفت الذهن القرائي أو السماعي، في حين يكون فكر الجمهور أن فائدة الالتفات منتفية في مذهب السكاكي، فهي غير موجودة في مذهبه؛ لأن المزية في الالتفات هو اعتياد المتلقي على زمن ليباغت بزمن آخر مغاير، أما بداية الكلام فمن المُسلم به أن تأتي على الأصل قال أحد شراح التلخيص –ابن يعقوب المغربي–: فـ(الكلام إذا نقل من أسلوب إلى غيره كان أكثر إيقاظاً للإصغاء إليه لا يظهر فيما إذا لم يتقدم تعبير آخر، فإن التعبير الأول يرد غالباً قبل ارتقاب ما يصلح للمقام، فلا يتحقق تجديد مالا يرتقب، فليتأمل)[1]، وكأن تصفير الزمن والبداية من الصفر عنده–أي السكاكي– من جماليات السياق النصي.

وفي سياق بلاغي للعصام تظهر لنا يقظة زمن الحديث عن زمن الحدث بمناقشة عقلية متمحصة للآراء والرد عليها عند الوقوف على رأي السكاكي في الالتفاتات عند الأبيات التالية:

تطـــــــاولَ ليلُـــــكَ بالأَثمُـــــدِ ... وبَـــاتَ الخلـــيُّ ولـــمْ تَرقُـــــدِ.
وبـــــاتَ وباتـــتْ لـــــهُ ليـــــلةٌ ... كَلَيْلَـــــةِ ذِي العـــــائرِ الأَرمَـــــدِ.
وذلـــــكَ مِـــــن نبـــــأٍ جـــــاءنِيْ ... وخُبِّرتُـــــه عـــــن أبـــــي الأســـــودِ.

قال العصام: (وتجويزُ أن يكون قوله مبنياً على أنَّ الانتقال مِن الخطاب إلى الغيبة وإلى التكلم التفاتان، ومِن الغيبة إلى التكلم التفاتٌ آخر باطل؛ إذْ لا انتقال مِن الخطاب إلا إلى الغيبة؛ لأنه إذا انتقل إلى الغيبة لم يَبق في الخطاب حتى يَنتقلَ عنه إلى التكلم، وكذا تجويز أن يكون أحد الالتفاتات الالتفات مِن الغيبة إلى الخطاب في "ذلك"؛ لأنَّ كون خطاب "ذلك" إلى نفسه غيرُ ظاهر فلا ينافي ذلك التجويزُ كونَ كلامِ الكشاف ظاهراً فيما قاله السكاكي)[2].

ونرى السعد والعصام يبديان براعة في استنطاق الزمن فيطرحان رأياً يتردد وهو أن الالتفات

(١) المغربي، أحمد بن يعقوب، **مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح**، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ج: ١، ط: ١، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية،١٤٢٣هـ–٢٠٠٢، ص:٢٧٣، ينظر الدسوقي، محمد عرفة، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، **حاشية الدسوقي على مختصر السعد**، ج: ١، ط: ١، بيروت– لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م، ص: ٧٥٤.

(٢) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٣٤٤.

الذي قصده الزمخشري أتى من الانتقال من "ليلك" إلى مخاطب إلى "بات" الغائب، ومن "ليلك" إلى "جاءني" المتكلم.

ورأي آخر يرى في ذلك انتقالاً من الغائب إلى المتكلم في كلمة "ذلك"، ويقفان لتمحيص الرأي الأول والثاني ويتضح دقة مدلول الزمن في درسهما البلاغي فبداية:

"بات" الغائب

⇓

"ذلك" المتكلم

"ليلك" مخاطب ⇓ "بات" الغائب

أو

"ليلك" مخاطب ⇓ " جاءني" المتكلم

الرأي الآخر:

"بات" الغائب

⇓

"ذلك" المتكلم.

فمسار الخطاب المعلوم الموجود في زمن الحديث عن الحدث–كما في المخاطب والمتكلم –إلى غير الموجود في زمن الحديث–كما في الغائب–الذي تلاشى وجوده لحظة الحديث يكون مسار الخطاب قد دخل في ظلام، فكيف للزمن أن يخرج مرة أخرى؟!

أي زمن حديث المخاطب موجود ظاهر، فالخروج عادة يكون من الأوضح لا من المبهم الغائب، فيجيب السعد على هذا التساؤلات: (فالجواب إنما يكون الانتقال في شيء حاصل واقعٍ عليه أسلوب الكلام وبعد الانتقال من الخطاب في "ليلك" إلى الغيبة في "بات" قد اضمحل الخطاب وسار الأسلوب أسلوب غيبة فلا يكون الانتقال في التكلم إلى الغيبة في "جاءني" إلا من الغيبة نفسها) [1]، وفي رأيهم

(١) السعد، **المطول شرح تلخيص المفتاح**، ص:٢٨٩.

هذا يؤكدون أن الانتقال يكون من المعلوم إلى غير المعلوم ولا عكس، مشترطين أن يكون البدء من دائرة الحديث عن الحدث.

وعرض السعد أيضًا الرأي الثاني في أنَّ الانتقال في البيت الأخير ليس إلى "جاءني" بل إلى "ذلك" فيكون:

"ليلك" مخاطب ⟵ "بات" الغائب ⟵ "ذلك" المخاطب

ليحسم السعد والعصام عامل الزمن عبر عودة الضمير لمن، وفي هذا دقة زمنية أخرى فالمساحة الزمنية محدودة لها مرجعيتها التي تعود إليها، فالزمن للضبط لا للفوضى والعموم، فـ (خطاب "ذلك" إلى نفسه غيرُ ظاهر فلا ينافي ذلك التجويزُ كونَ كلامِ الكشاف ظاهراً فيما قاله السكاكي)، فالكاف قد تكون لمن يتلقى منه الكلام، فمرجع الضمير في "ذلك" غير ظاهر [1] .

فالسعد يبين أن الغائب هذا حاصل بدليل ما سبق، فالانتقال من الغيبة إلى المتكلم ومن المبهم للمعلوم لا يكون عسيرا باعتبار النص.

ومن أمثلة الدقة الزمنية في الحديث عن زمن الحدث في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾- يس: ٢٢- نرى السعد يحاول أن يطرح تساؤلاً في مرجع ضمير المخاطبين "ترجعون" غير عائد إلى ذات ضمير المتكلم في "أعبد"؛ وأنها واردة لجمع ما يناسب مقتضى الظاهر ثم يقول- أي السعد-: (فإن قلتَ: حينئذٍ يكون قوله: "ترجعون" وارداً على مقتضى الظاهر؛ والالتفاتُ يجب أن يكون على خلاف مقتضى الظاهر قلتُ: لا نُسلّم أنَّ قوله: "ترجعون" على مقتضى الظاهر؛ لأنَّ الظاهر يقتضي ألاّ يغير أسلوب الكلام، ويجري اللاحقُ على سنن السابق)[2].

وهنا خط زمني رسمه الشارح المحقق في شعرية التفات الكلام المطابق للحال يتتابع ولا يتغاير وما حصل في الآية الكريمة اختلاف في وجود زمن الضمير، فكان زمن الضمير موجودا في "أعبد" ومخاطباً في "ترجعون" فلابد أن يكون زمن أحد الفعلين.

ولم تمر وقفة السعد على العصام دون حوار قرائي لها فنراه يقف عند قوله تعالى:﴿وَمَا لِيَ لَا

(١) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٤٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص: ٤٣٥.

أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾أ-يس: ٢٢-مكانَ" أُرجِعُ"؛ فإنّ ما عَبَّر عنه بضمير المتكلم في "أعبد" أبرَزه بصورة الخطاب في "ترجعون"؛ لأنه داخل في "ترجعون" والمعنى: أُرجع وتُرجعون، فيكون مسار الحديث:

متكلم ⟸ غائب.

ويسترسل في الحديث لينقل رأي السعد ويفنده، قال على لسان السعد: (فإن قلتَ: "ترجعون" ليس خطاباً لنفسه حتى يكون المعبَّر عنه واحداً، قلتُ: نعم، ولكن المراد بقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ﴾

المخاطبون، والمعنَى: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم فالمعبر عنه في الجميع المخاطبون، وفيه نَظَرٌ؛ لأنه لم يُعبّر عن المخاطبين بضمير المتكلم، بل إنهم المعرّض بهم بهذا الكلام مِن غير الدخول في العبارة ونظم التركيب، فالعصام يستدرك بأن السياق القرآني لم يعبر بضمير الجمع في "أعبد" كما في "ترجعون".

ولنقف على المسائل الزمنية الواردة في حديث العصام هنا:

١- العدول من المتكلم في ضمير" أعبد" إلى المخاطب في "ترجعون".

"أعبد" متكلم مفرد

⇓

"ترجعون" مخاطب جمع

٢- خروج المخاطبين من دائرة زمن المتكلم في "أعبد" باعتباره تعريضاً لهم وإشارة.

٣- "ترجعون"هل هي ورادة في نفس زمن نطق متحدثها بها أم أنها خلاف حال زمن النطق بها؟

لنجد في نهاية الحديث أن حديثهم عن زمن الحدث ارتبط بتصفير الزمن في أول الكلام ليتردد ثانيًا فزمن الغياب من الصعب الانتقال منه لمجهولية الزمن وغموضه، كأن للزمن رتبًا في الحديث عن الحدث ليتصدرها المتكلم ثم المخاطب ثم الغائب، وفي هذا (تعميق لمفهوم المنظور الزمني الذي أضحى مقرونا بوعي الفاعل والمتلفظ وقد أطلق عليه البعض في علم الخطاب بـــ "بتذويت المنظور الزمني" ولهذا التصور نتائج مهمة في تفسير استعمال الأزمنة والتباسها الدلالي في سياق السرد) [(١)]، كما في الالتفاتات الواردة في الأبيات السابقة.

(١) الملاخ، امحمد، **الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية**، ط: ١، الرباط-المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٩م، ص: ٧١.

ثانيا: مراتب الحس البلاغي الزمني: وقد تمَّ تقسيمها إلى:

أ- يقظة الحس البلاغي الزمني التنبؤي "الاستشرافي" السابق لوقته.

ب- يقظة الحس البلاغي الزمني التراجعي المتأخر عن وقته.

أ- يقظة الحس البلاغي الزمني التنبؤي" الاستشرافي" السابق لوقته.

تنبه أصحاب الدرس البلاغي إلى استباق الحس الزمني للحدث، وما ينطوي تحته من نكات بلاغية لها أثر في المعنى، فالأزمنة تتنافس فيما بينها لتمثيل حدث في سياق تواصلي محدد، لذلك فإنه ينبغي اختيار الزمن الذي ينتج تمثيلاً ذهنياً متوافقا مع الأثر الدلالي الذي يتوخاه المتكلم، فاختيار المستقبل يعد الاختيار الأكثر حياداً من المتكلم؛ لأنه لا يستوجب منه التزاما بيقين الحدث، أما اختيار الماضي فينتج أثراً ذاتياً على درجة اليقين(١).

وكان للبلاغيين وقفات جميلة اختلط فيه النظام المعرفي بالدلالة بالبنية العميقة للسياق، فالتلاعب بالأنسقة الزمنية للنص مما اعتاد عليه النظام العرفاني؛ ليقينه بدلالات عميقة لا تأتي عبر التعبير بالنسق النمطي المفروض ضمن الأنظمة اللغوية.

ومن الأساليب التي كان لحسهم الزمني وقفات ما يطالعنا في التعبير بالمضارع لفعل شرط بـــ "لو" والأصل في شرطيتها أن يكون فعلها ماضٍ؛ لنكتة بلاغيه مفادها أحيانا: إبراز الحاصل في صورة غير الحاصل فتأخير لعقارب الساعة الزمنية له مغازٍ عدة.

فأداة الشرط "لو" تدخل على الفعل الماضي، فهي أداة للقطع بانتفاء الشرط، وقد تدخل على الفعل المضارع؛ لنكتة بلاغية حسب مقتضى السياق، مثل تنـــزيل الشرط منـــزلة الماضي لصدور هذا الشرط عمن لا يخلف ولا يُكذَّب في إخباره(٢)، مثل قوله تعالى: الأنعام:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنعام٢٧، وقد تناول البلاغيون رأي الخطيب بين تأويل وتفسير واختلاف واقتراب في مقياس خروج سياق "لو" عن المضي إلى المضارع وحقها الماضوية.

---

(١) الملاخ، **الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبة والدلالية**، ص: ٤٨١ ومابعدها.

(٢) ينظر، القزويني، محمد بن عبد الرحمن، **التلخيص في علوم البلاغة**، ضبطه وشرحه عبد الـــرحمن البرقـــوقي، ط:١، دار الفكر العربي، ١٩٠٤هـــ-، ص: ١١٨،١١٧.

فرأى السعد أن الغرض من التعبير بالمستقبل بدل الماضي في "ترى" بمنـــزلة الماضي المتحقق الواقع هو استحضار لأمر مستقبلي لم يحدث وإنزاله منـــزلة الآني؛ لأن هذا الأمر في يوم القيامة فهو مستقبل في التحقيق ماضٍ بحسب التأويل، كما أنه قيل قد انقضى هذا الأمر لكنك ما رأيته لو رأيته لرأيت أمراً عجيباً هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام)[١].

إلا أن الحس الزمني عند العصام اختلف فهو يرى أن استباق الزمن لتأويل الماضي مرفوض؛ لكون من صدر مِنه القول لا يكذَّب وهو الله سبحانه، فأمر العصام بأن لا يُلتفت إلى ما باهى به السعد في تحقيقه الذي أشرنا إليه سابقاً، قال العصام: (ولا تلتفتْ إلى ما باهى به الشارحُ المحققُ، حيث قال: فهذا مستقبل في التحقيق ماض بحسب التأويل؛ كأنه قد قيل: قد انقضى هذا الأمر، ولكنك ما رأيته ولو رأيته لرأيتَ أمراً عظيماً) [٢]، ويقول: إنه جعل الأمر غير المتحقق متحققاً لصدوره عمَّن لا خلاف في إخباره، ويرى أنه لا يَلزم مِن كون ما فُرِضَ رؤيتُهُ كالمتحقق كون الرؤية كذلك، ويختم ناهياً عن الاستسلام للتقليد الذي لا يقوم عليه دليل[٣]، يقول العصام: (تأمَّلْ، ولا تذهلْ وبالتقليد عن التحقيق لا تغفل)، فعقربه الزمني يختلف عنه؛ لأن هناك فرقًا بين إخبار الصادق الذي لا يُكذب وبين افتراضه، والآية من باب افتراضه، فمؤشر الزمن عند العصام في سر دخول "لو" على المضارع يرفض أن تكون الآية من (إخبار الصادق يدل على تحققه لا محالةَ، بل هي قد تكون من فَرْضُ المخبِرِ الصادق الذي لا يدل على تحققه).

ويكمل العصام حديثه: (ويمكن التقصِّي عنه بأنَّ فَرْضَ الرؤية إنَّما هو بالنسبة إلى المخاطب، وأمَّا أصل الرؤية فأمْرٌ مذكور لا على وجه الفرض فكأنه قيل: تَرَى أهل النار موقوفين على النار وإنْ تر أنت لَترى أمْراً عجيبًا، فدخول "لو" يجعل "ترى" بمنـــزلة الماضي في تحقق أصل الرؤية الذي يُشعر به قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾).

ويصل إلى حس زمني آخر ليعتبر أن امتناع عدم وقوف الذين كفروا على النار كون الحديث منسوبًا لمخاطِب لا يُكذَّب ليرتقي حسه الزمني باعتبار المضارع كالماضي المحقق، يقول العصام: (ومِن هذا تمكنتَ من التقصيّ عن بحث آخر يوحَى –أيضاً– إلى المتفطِّن، وهو أنَّ تنـــزيل المضارع مَنزلة الماضي في التحقق ينافي دخول "لو" الدالة على الامتناع، فلَكَ أن تقول: الامتناعُ باعتبار الإسناد

(١) ينظر العصام، **المطول شرح تلخيص المفتاح**: ٣٣٢.

(٢) المرجع نفسه:٢/ ٥٤٥.

(٣) المرجع نفسه: ص:٢/ ٥٤٥.

إلى المخاطبِ والتحققُ لأصل الفعل؛ فذِكْرُ "لو" للإشعار بأنَّ الرؤية بمثابةٍ مِن الهول يُظَن معها أنه يمتنع مِن المخاطب، هكذا حقِّق المقام) [١] .

ويرتقي حسه الزمني ليخرج تأويل مجيء الفعل المضارع ليقرر: أن المضارع أتى على مقتضى الظاهر:

(للإشعار باستبعاد تحققه؛ كأنه كالممتنع، وهذا الدخول لا ينافي عدم دخول "لو" إلا على الماضي–على ما هو الأصل–؛ لأنَّ ذلك في "لو" المستعملة فيما وُضعت له، لا فيما إذا استُعملتْ بمعنى "إنْ"، فإنَّ العدولَ حينئذٍ ليس في إيراد المضارع بل في إيراد" لو")[٢].

وقاس ذلك بما ورد في قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، الحجر:٢، من التعبير بالمضارع "يود" بدلا من "ودّ"، فـــ "رب" لا تدخل إلا على المضارع، وفي دخولها على الماضي نكات بلاغية وعلل نحوية[٣].

إلا أنَّ العصام يوحد القياس لذلك التكسير الزمني الذي حصل في تناسب الأزمنة عبر اعتماده للفكرة الأساسية وهي: أن الغرض من التنبؤ بالزمن والتسبيق له من ماض إلى مضارع غرضه إحضار الزمن المستقبلي إلى نسق آني حاضر في نسق نصي حقه المضي[٤] لاستحضار الصورة على هيئة حاضرة لمشاهد غيبية تعج بكثير من الصمت، يتعبها تقرير مصيري، غير أن السبكي رفض هذا باعتبار أن نسق "أن" للمشكوك فيه، وهذا ما لا يتناسب مع سياق النص القرآني[٥].

ويدق استشعار السبكي للزمن عبر ذكره أنَّ الأنساق النصية والنظمية لـــ (لو+ الفعل المضارع) لشيء متوقع زمنه كما في رؤيتك يا محمد لندم الكفار عند وقفتهم على النار متوقعه، قال السبكي ناقلاً عن والده: (قد تتبعت متوقعا فوجدتها إذا دخلت على المضارع كان ممكنا متوقعا أو كالمتوقع، ويكون المقصود إثبات الجواب، مثال المتوقع في هذه الآية[٦]، فإن مشيئة الله الانتقام منهم متوقعة إلاَّ أنه عنى

(١) ينظر العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٥٤٣-٥٤٤.
(٢) المرجع نفسه، ص:٢/ ٥٤٥.
(٣) المرجع نفسه، ص:٢/ ٥٤٥.
(٤) المرجع نفسه، ص: ٢/ ٥٤٥.
(٥) ينظر السبكي **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٢/٤٥٢-٤٥٤.
(٦) سورة البقرة ١٦٥.

زمن الخطاب والمقصود إثبات الانتقام على ذلك التقدير لا على نفي المشيئة، وكذلك قوله:﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ البقرة:١٦٥.

فمن الملاحظ أن نمط العلاقات النصية بين الأزمنة والعلاقات السياقية الملائمة تكون أكثر إذكاء للهيب الحسّ الزمني عند البلاغيين، خاصة في الحالات التي يخالف زمنها النظام التقعيدي للغة، فكان التأويل البلاغي متحينا للآثار الدلالية والذاتية التي يتوقع إحداثها، فأثر استخدام المضارع أدركه حسّا لبلاغيين، فالخطاطة الزمنية للآية استعمل فيها المضارع لمقاصد ذات منظور معنوي، فالمؤول الزمني في الآية تم تحويله من المضي إلى الاستقبال دون مراعاة للنمط النصي التقعيدي حيث استعمل في تأويلهم البلاغي منظور المتكلم كمركز تأويلي للزمن، حيث اعتمد على علة أن الخبر صادر ممن لا يُكذَّب، فمؤشرهم تحسس أثر المضارع الذي يفيد تدرج الحدث وتمطيط الزمن.

فالبلاغيون أدركوا ارتباط الزمن بالقائل وأنه مفتاح لكثير من تأويلاتهم الزمنية، وهنا نتذكر مصطلح "تذويت الزمني" عند دارسي علم الخطاب وعند ربطه بالمتلفظ[١]، ولا شك أن في هذا الشاهد خبايا كثيرة دلت على سعة أفقهم في تفسير الخطاطات الزمنية فرؤية النبي-ﷺ- لوقفة الكفار على النار وتمنيهم العودة إلى الحياة لعمل الصالح فيها أمور غير متحققة في زمن التلفظ بالقول؛ لأنها منتفية في الواقع لتعلقها بأحداث لم تقع بعد [٢]، وهذا متكرر لسياقات نصية زمنية قرآنية.

ولو دققت النظر في الآية لوجدت أن مشاهد الآية التي استعمل السياق القرآني فيها "لو ترى" مشاهد عظيمة وحالها جسيم، فهيمنة السكون وقلة الحركة في مشهد عجَّ بالأمور المفزعة من الوقوف على النار وتنكيس الرؤوس والفزع عند البعث ونزع الأرواح، نجدها أحداثاً صامتة قليلة الحركة ليأتي ما بعدها أحداث مصيرية تكثر الحركة فيها، ولما كانت هذه المشاهد صعبة على مخيلة الكفار غريبة على مخيلة المؤمنين فقد عبر عنها السياق القرآني بصورة الحاضر؛ حتى لا تسرع نفوس الكفار لرفضها ولا توسوس نفوس المؤمنين بأن ذاك الحدث حدث بعيد، وأن في الحياة الدنيا سعة، ومما يدعم ذاك مجيء فعل "ترى" المشتق من ماضيه "رأى" الذي يحمل معنى اليقين[٣] ومضارعه يجمع بين يقين

(١) الملاخ، **الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية**، ص: ٧١

(٢) ينظر ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ج: ٢، ط/ ١، بيروت -لبنان، دار الكتب العلمية، ص: ٥٠١.

(٣) ينظر ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن عبد الله، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ج: ١، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ، ص:٣٨٠، السامرائي، محمد صالح، **معاني النحو**، ط: ١، عمّان- الأردن، دار الفكر،١٤٢٠، ٢٠٠٠، : ١٢/٢.

الحدوث وبين قرب الحدث، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾، المعارج:٦-٧[١]، ومما يدعم أكثر أن "لو ترى" جاءت بعدها "إذ" وتلاها فعل مضارع، وحق "إذ" المضي في الفعل قال ابن عطيه[٢]: (هذا أبلغ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله، ووقعت "إذ" في موضع "إذا" التي هي لما يستقبل وجاز ذلك؛ لأن الأمر المتيقن وقوعه يعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع)[٣]، قال الزركشي: ("ترى" مستقبلو "إذ" ظرف للماضي؛ وإنما كان كذلك لأن الشيء كائن، وإن لم يكن بعد وذلك عند الله قد كان؛ لأن علمه به سابق وقضاءه به نافذ فهو كائن لا محالة) [٤].

فالتركيب القرآني المكون من: (لو+ الفعل الماضي+ إذ+ الفعل المضارع) له دلالة نظمية استخدمها القرآن في مواطن يشكك الكافر في حدوثها وربما يرفضها، وقد يستبطئها المؤمن، وفي مشهد تقف فيه الحركة ويهيمن عليه الصمت رغم تسارع الأحداث قبل هذه اللحظة، فهي لحظة مصيرية وفاصلة، والله أعلم، وهذا مما أذكى حسهم الزمني وإن اختلفت قراءتهم وتعليلاتهم فيه.

ب- يقظة الحس البلاغي الزمني التراجعي المتأخر عن وقته.

فقد يعبر عن الزمن الآني بماضٍ، والنكتة لهذا العدول هي التهويل من استحضار صورة البعيد الذي لم يقع في هيئة الواقع المنتهي، ومثال ذلك ما أشار إليه السعد في مطوله من استدعاء الشاعر لكلمة -تطيح -لاعتبار سرعة تساقط المصائب بعد وفاة يزيد- في قول الشاعر:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تطيحُ الطوائح[٥].

(١) ومثل ذلك في سورة السجدة آية: ١٢، وسورة الأنفال آية: ٥٠ ، وهناك العديد من الآيات.

(٢) ابن عطية: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، مفسر وفقيه أندلسي من أهل غرناطة، عارف بالأحكام والحديث، له شعر، ولي قضاء، توفي سنة ٥٤٢هـ، ينظر، الزركلي، خير الدين، **الأعلام قاموس التراجم**، ج: ٣، ط٨، بيروت-لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٨٩م ص: ٢٨٢، **وينظر** الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، **الوافي بالوفيات**، ج: ١٨، بيروت -لبنان، دار إحياء التراث،٢٠٠٠م: ٤٠-٤١.

(٣) ابن عطية، عبد الحق بن غالب، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج: ٢، ط:١، لبنان، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ ، ص:٢٨١.

(٤) الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، **البرهان في علوم القران**، ج: ٤: ط:١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ،١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م، ص: ٢٠٧.

(٥) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٢/ ٤٠٦-٤٠٧، الأطول، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**: ٤٧١-٤٧٢.

فيزيد مقتول لتوه، فهل لحقت الطوائح أن تطيح بذلك المختبط، الذي كان يستند على يزيد الذي لم يجف قبره؟!!

إن المحمولات الفعلية تضم ضمن شبكتها المحورية موضوعًا حديثًا وموضوعًا زمنياً، وقد يحدث تبادل بين مواقع الأفعال، لا سيما بين متقدم مفرغ من التحيين ومضارع لا يخلو من الآنية والمستقبلية بين فعل تام أنجز، وبين مضارع غير تام وقت التلفظ به، وقد سلك البلاغيون مسالك عامة ومسالك دقيقة تستدعي نوعًا من التركيز المكثف، ومما أقروه في شرحهم للتلخيص ما ذكروه في حديثهم عن التغليب: بأنَّ من التغليب استخدام قالب الماضوية في أحداث آنية فهي زحزحة للمشهد القائم المستقبل إلى موطن جمود الحدث بصورة ماضية وفيه استرجاع للزمن وقد استشعروه عبر قياسهم من التعبير خلاف المقتضى(١).

قال السبكي: (من خلاف المقتضى التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ النمل ٨٧.... وأعلم أنَّ ما ورد من ذلك على قسمين تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع فيؤتى بالأمر المستقبل بصيغة الفعل الماضي المراد به المضي تنزيلًا للمتوقع منزلة ما وقع فلا يكون تعبيرًا عن المستقبل بلفظ الماضي بل يكون فيه جعل المستقبل ماضيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، النحل:١، وقال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾-الأعراف: ٤٤- ونحوه، فإما أن يريد أن بـــ "أتى" أتت مقدماته فيكون التجوز حصل في الفعل باعتبار الحدث، لا باعتبار الزمان، وإما أن يريد بالادعاء أن الإتيان بالمستقبل وقع بالماضي، وهو أبلغ من الأول)(٢).

ومن ذلك ما ورد في كلامهم عن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر من استشراف للزمن التعبير بالمضارع بدلا عن الماضي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾النمل: ٨٧، فـــ "النفخ" في المستقبل فلمَ استخدم البنية الفعلية الماضوية في "فزع"؟

نقول: (يحتمل أن يرد أنهم لمبادرتهم النفخ بالصعق كأن صعقهم ماضٍ على سبيل المبالغة، ونظير الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الشورى ٤٤-، وفي مثل هذا النوع تكون فائدة التعبير بالماضي الإشارة إلى استحضار التحقق، وأنَّه من شأنه لتحققه أن تعبر عنه

(١) السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ص: ٢/ ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) السبكي، **عروس الأفراح، في شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٢/٣٨٦- ٣٨٧.

بالماضي، و إن لم تُرد معناه، والقسم الأول مجاز، وهذا القسم ليس فيه مجاز، إلا من جهة اللفظ فقط)[١]، ففي حديثه استبعاد للزمن لغرض يتعلق بأمور أبعد من تحديد مدلول الزمن وفق الخريطة الزمنية، ويرى في التعبير عبر تقديم الزمن على وقته أنه ليس من المجاز إلا ما كان العكس من استخدام سياق نصي لزمن متأخر لفظه، فتجاوزه لدلالة الزمن من أجل جَعْلِ غير المتحقق متحققًا، وكأنه من هول ما سيحدث ظهر أثر الفزع من النفخ قبل النفخ ذاته[٢].

وفي تأويل السبكي وقراءاته للسياق دقة باعتبار بدايات الحدث فالساعة بدأت علامتها من خلال ظهور علامتها الصغرى ببعثة النبي–صلى الله عليه وسلم–فاستشعر مقياسه مقدمات الحدث واعتبرها داخله في الزمان الذي عبر فيه، فالماضي يدل ويحتمل على سبق الزمن وزمن الإحالة لزمن التلفظ[٣].

أمَّا تأويله الثاني الذي اعتد به وهو: القائم على الادعاء الزمني فكأنَّ الزمن المتحدث عنه واقع لا محالة كوقوع الماضي الذي حدث، وفيه تجوز كما ذكر السبكي، وفيه مجاز لفظي، وقد فرض السبكي الفرضية ليعود بنفيها لما فيه من المجاز اللفظي أي الإتيان بالمضي مع توقف وقوعه، فاختيار الماضي ينتج أثرا ذاتيًا دالًا على درجة عالية من اليقين.

ومن المواطن التي تمثل كثافة في دراستهم للعقرب الزمني بدقة: مجيء فعل الشرط مضارعًا والجواب ماضيًا وهو مخصوص بالضرورة عند جمهور النحاة[٤] ومما جاء منه لغير الضرورة في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ سورة الممتحنة: ٣، فكيف أورد جواب الشرط مضارعاً في " يكونوا–يبسطوا" ثم أورد بلفظ الماضي في "ودوا"؟

نظر البلاغيون إلى تأويل هذه الآية بعين بلاغية لها نكتة يحملها النص والسياق، فالسكاكي جعل السياق متعدد الجزاء رغبتهم في الظفر بهم؛ لأنَّ معاداة المؤمنين في حالة ظفر المشركين بالمؤمنين

(١) المرجع نفسه، ص: ٢/٣٨٧.

(٢) ينظر المرجع نفسه، ص: ٢/٣٨٧

(٣) الملاخ، الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبة والدلالية،: ٤٨٨.

(٤) ابن هشام، عبدالله بن يوسف، **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، ج: ٤، بيروت – صيدا، المكتبة العصرية، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م، ١٨٦، و ينظر الشمسان، أبو أوس، تقديم محمد فهمي حجازي، ط: ١، **الجملة الشرطية عند النحاة العرب**، الرياض السعودية، مطابع الأوفست، ١٤٠١ه : ٤١٧، ٤١٨.

وعدمه، بل إنَّ رغبتهم في كفر المؤمنين تسبق رغبتهم في السيطرة على المؤمنين ولثبات رغبة كفر المؤمنين عند الكفار جيء بالماضي لجعل غير الحاصل مكان الحاصل مما يجعل "ودوا" معطوفة على "يكونوا "– و "بيسطوا"[١].

في حي نجعله القزويني وصاحب الكشاف "ودوا" معطوفة على مجمل الشرط، وتابع السعد القزويني وصاحبهُ في الرأي[٢].

دقق السعد في الشرح بأن "ودوا" لو كانت من ضمن ما عطف على جواب الشرط المستقبلية فيكون تأويل مجيئها ماضية:

١- لكل جواب تصور يستغني عن الآخر فيصبح تحقق رغبة الكفار للكفر المؤمنين "الموادة" موجودة بالبسط ودون البسط.

٢- أو أن تكون الموادة مرتبطة مع بسط الكفار وهيمنتهم على المؤمنين فلا يحدث أحدهما إلا بالآخر.

إلا أنَّ السعد استشعر أن ارتباط زمن الفعلين مع بعضهما متعذر كما في رقم واحد، فمودتهم في حال كفر المؤمنين متحققة بالبسط أو دون البسط.

أما فرضية استقلال تصور الجوابين عن بعضهما أي حدوث الموادة دون البسط أو العكس تجعل من تقييد الفعل "ودوا" بالشرط "إن" لا فائدة بها؛ لأن الموادة حاصلة في كل الأحوال، وبما أنَّ زمن المودة ثابت فيكون فعل "ودوا" الماضي معطوف على جملة يثقفوكم أولى[٣]، وبهذا يرد السعد رأي السكاكي وينتصر للقزويني وصاحبه.

ويأتي الحسّ الزمني عند العصام مخالفًا ومشاكسًا لحس السعد الذي خالف السكاكي، قال العصام: (وأورد عليه الشارح المحقق أنه يَتَّجِه مثلُه على قوله: ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾؛ إذ عدواتُهم ثابتة؛ ظفروا ولم يظفروا، ولا يمكن فيه هذا التوجيه؛ فالوجه: أن المراد إظهار الوَداد وإجراء مقتضياته، وكذا في كونهم أعداء)[٤] .

(١) ينظر السكاكي، **مفتاح العلوم**، ص: ٣٤٧.

(٢) ينظر الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج: ٤، ط:** بيروت لبنان، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ: ٥١٣/٤، الخطيب، القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة الخطيب**: ١/ ١٩٥-١٩٦-١٩٧، **السعد، المطول شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٣٣١-٣٣٢.

(٣) ينظر السعد، **المطول شرح تلخيص المفتاح**: ٣٢١-٣٢٢.

(٤) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**: ٢/ ٥٢٩.

ويطرح العصام رأيه فيقول:

١- إن عداوة المشركين ومودتهم كفر المؤمنين قد لا تكون قائمة بعد ظفر، حيث إنهم أي: المؤمنين أصبحوا ضعفاء وخدمًا لهم، فقد لا يتمنون كفرهم فاحتاج السياق إلى الإخبار لتمنيهم كفر المؤمنين حتى بعد الظفر، وهذا يختلف عن مودتهم لكفر المؤمنين قبل الظفر، فيكون في التقييد زيادة فائدة.

٢- ورأى العصام أن الأمر قد يحتمل أنَّ الكفار قد لا يتمنون كفر المؤمنين قبل الظفر بهم؛ لأنَّ في ذلك مكاره وحروبًا ثقيلة لا تحتمل، فيكونون معرضين عن ذاك الوداد(١).

ومضى العصام يشرح ناظرًا إلى جماليات النكت في العدول إلى الماضي ومنها إبراز غير الحاصل بصورة الحاصل كما ذكر المفتاح في لفتة منه أنَّ الزمن لم يتأخر، وأنَّ الماضي هنا مجازي، قال العصام: (ربما تكون نكتة أخرى وهي: إمَّا ما ذكرها المفتاح عديلةً لقوله: كإبراز غير الحاصل في معرض الحاصل، حيث قال: وإبراز المُـقدر في معرض الملفوظ به لانصبابه الكلام إلى معناه)(٢).

ونقل العصام كلام الزمخشري(٣) وتعليق المصنف عليه، قال العصام: (هذا كلامه قال المصنف: وهو حسن دقيق، ونحن نقول: لا يختلج في وهمك أنه يستحق حينئذٍ أن يكون أولَ جزاءٍ في الشرطية؛ لأنا نقول: قد سُلِك في الذكر طريق الترقي إلى الأقوى فالأقوى وهو مِن شعب البلاغة، كما لا يخفى)(٤)، فالعصام يحذر من أن يقال: إن "ودوا" أول جواب وجزاء للشرط كما ذكر الزمخشري (كأنه قيل: "وَدُّوا" قبل كل شيء- كفرَكم وارتدادَكم) ليؤكد العصام أن السياق فيه ترقٍ من العداوة والبسط

(١) ينظر المرجع نفسه: ٢/٥٢٩,٥٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٥٣٠.

(٣) ما نقله العصام عن الزمخشري هو: وإمَّا ما ذكره الكشاف في قوله تعالى: {إِنْ يَثْقَفُوكُمْ}. الآية، حيث قال: (الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإنَّ فيه نكتةٌ؛ كأنه قيل: "وَدُّوا" قبل كل شيء- كفرَكم وارتدادكم، يعني: أنهم يريدون بكم مضار الدين والدنيا جميعاً؛ مِن قتل النفس وتمزيق الإعراض، ورُدكم كفاراً أسبقُ المضار عندهم وأوّلُها؛ لعلمهم أنَّ الدين أعز عليكم مِن أرواحكم لأنكم بذّالون لها دُونه؛ والعدوُّ أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه. هذا كلامه) الأطول على شرح تلخيص المفتاح: ٢/ ٥٢٨، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص: ٤/٥١٣

(٤) العصام، **الأطول شرح تلخيص المفتاح:** ٢/٥٢٩,٥٣٠.

المحتمل زواله بعد الظفر إلى شيء لا يزول سواء بعد الظفر أو قبله، وهو أقوى ما يدور في نفوس الكفار وأكثر ما يلح عليه ضميرهم، فالعداوة تكون مضاعفة، فنستنتج أن العصام لا يؤيد ما ذهب إليه المصنف من أن فعل "ودوا"هو أول جزاء للشرط رغم كونه الأسبق زمنا أي رغبتهم في كفر المؤمنين إلى أن السياق القرآني أراد الترقي بين أقوى الأمور من حيث الرغبة لا من حيث الترتيب الزمني.

فشفرة الوقت عند العصام دقيقة ومعقدة ومتنوعة فنراه يقف مع السكاكي في أن "وودا" استباق لزمن الحدث لإبرازه في زمن الحاصل.

ليقف أيضًا مع رأي الطرف الآخر في أنَّ "ودوا" معطوفة على جملة الشرط، ويرفض العصام بأنْ يجعل "ودوا" هي من حيث الترتيب ليست أول جزاء الشرط فيحدد أنَّ ترتيب "ودوا" بلاغيًا لا يقتضي أنْ تكون في أول الزمن للجزاء الشرطي، فقد جعل التقديم في زمن الفعل "ودوا" جزءا من مساحة مضارعه "يكونوا" حيث حصل الترقي في التعبير من الدافع الأقوى لدى المشركين وهو البسط إلى الأقوى الذي لا يزول وهو "الموادة" على عكس ما تبنته رؤية السعد الزمنية من فصل زمن "ودوا" عن الجزاء فهي معطوفة على مجمل الشرط وزمنه؛ فهنا التماس زمنين لشيئين أحدهما مضارع لم يتحقق وماض متحقق قبل المضارع وحتى بعد حدث المضارع.

وعن الفرق بين الرؤيتين من حصول وجود الرغبة في كفر المؤمنين الحاصلة في كل وقت، أو جعل الموادة معطوفة على جواب الشرط فالتعبير عنه بالماضوية مراده جعل الأمر غير الحاصل مكان الحاصل في الحالتين وفي اختلاف الزمنين نظرة قرائية تفاعلية بين سياقين مختلفين، وتأويلين مختلفين بين اعتبار الأفعال ضمن جملة شرطية بجزائها أو عطف بين فعلين مختلفين في الزمن، وهنا يتضح لنا تعدد أفق التأويل الزمني وإن اتحدت العلة ففي الزمن لديهم منافذ للرؤية قد يتولد عنها نتيجة واحدة أو نتيجة متعددة.

فنظرة البلاغيين إلى السياق الشرطي أنها وجهة دالة على درجات افتراضية أي درجات احتمال وقوع الأحداث التي يدل عليها الشرط، فالشرط لا يقلب زمن الأحداث إلى المستقبل، وإنما يحدد وجهه تفاعله مع السمات في الأفهام التي تملك بنية زمنية مستقلة، فقد نلاحظ أن التأويل الزمني لجواب الشرط غير تابع لزمن الشرط فبإمكان الزمن الداخلي لجواب الشرط أن يكون مستقبلًا أو ماضيًا إلا أنَّ هذه الاستقلالية مقيدة، و أنها ليست في جميع بنيات الشرط[١]، فالجمل الشرطية قد تضفي سمة الافتراض كما في "لو ترى" التي قرأها البلاغيون أنها تدل على وجود حالة حاصلة في كل وقت أو وجود حالة لوجود أخرى.

(١) ينظر الملاخ، **الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية**، ص: ٤٤٠-٤٤١

وفيما سبق لاحظنا أن الأزمنة تربطها علاقات اتجاهية، أي أن الزمن الإحالي للحدث إما يتقدم إلى الأمام وبالتالي نكون بصدد متوالية أحداث داخل الخطاب يتقدم فيها الزمن الإحالي فتسلسل الأحداث زمنيًا، أو أن الزمن يتراجع إلى الخلف؛ ليحتوي زمنا آخر أو أن يحدث احتواء جزئي للأزمنة، وبمعنى أن الزمن يحتوي جزءًا من زمن حدث سابق عليه في الترتيب، وتستوجب معالجة مسألة الترتيب الزمني بين الأحداث معالجة مماثلة لدور سمات الزمن والرابط والسياق في توليد الأحداث.

ثالثا: تغيب الزمن في حسهم البلاغي –التصفير الزمني–:

وكما كان لحسهم البلاغي حضور في قياس الزمن والتأول فيه كان لهذا الحس تغيب وتصفير وتصميت لإرادة معنى آخر سيتجه إليه السياق، و كان لاستشعارهم أهمية ذلك يصنعو نحيزًا من الفراغ الزمني، ونرى شيئًا من هذا في حديثهم عن حذف المسند الفعلي، قال السبكي: (لابد لحذف المسند من قرينة تميزه، والقرينة إما سؤال محقق، أي: واقع نحو قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقمان: ٢٥، تقديره: "خلقهن الله"، والمعنى: يتحقق السؤال هاهنا تحققه قبل الجواب، لا أنه محقق الوقوع عند نزول الآية؛ لأن فعل الشرط مستقبل المعنى، بل الاقتصار على لفظ الجلالة يستدعي تقدم سؤال استغنى به عن ذكر خلقهن، وتارة يكون سؤالا مقدرا، أي غير منطوق به كقول الحارث بن ضرار النهشلي:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تطيحُ الطوائح) (١).

فالسبكي يرى أن العقرب الزمني المحذوف للمسند الفعلي ليس هو المهم هنا لسبق ذكره في السياق، فلذلك لم يكن تحديد زمن السؤال لسبق تحديده.

ويفصل العصام سبب تغيب الزمن والاستغناء عن بالاسمية فيقول:

هذا والأظهر أنَّ المراد بقوله:﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾لقمان: ٢٥، ما يَعُمُّ قولهَم: "لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ اللهُ"؛ لأنَّ المقصود أنهم يجيبون بإثبات الخلق له تعالى، سواء كان ذلك الإثبات مع ذكر الفعل أو مع حذفه، فالآية مثالٌ باعتبار ما يشتمل عليه مِن جوابٍ حُذف فعله، لا باعتبار أنَّ الجواب المستفاد منه لا محالةَ محذوف المسند)

ويؤكد العصام أن غياب الزمن وتنحيته لا يؤثر على نسق النص (فالمسند المحذوف في جواب هذا السؤال في الأكثر فعل... والمشهور في ترجيح تقدير الفعل أنَّ السؤال عن الفاعل، وأنَّ القرينة

(١) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٢/ ٤٠٦

فعلية) ويناقش رأي السعد في رده هذا الرأي ليدفع رأيه، بأن المطلوب هو الفاعل لا الحدث وزمنه؛ (فيستوي في تعيينه تقديرُ الفعل والجملةِ الفعلية، والقرينةُ لا تَطلب إلا تقدير الفعل دون اسم الفاعل، ولا تَطلبُ تقديرَه عاملاً في المسند إليه المذكور)[١] .

فالعصام يبين أن الفعل لو ظهر فسيكون سببًا في رفع المسند إليه (الفاعل النحوي) والمراد من السياق التركيز على الفاعل مع كونه ضميمة متحدة إلى الفعل.

ويفتح العصام باب النقاش من العلة لحذف الفعل فيقول: (بأنَّ السؤال عمَّن صدر عنه الفعل يقتضي تقديرَ المسند عاملاً في المسند إليه لا خبراً؛ لأنَّ الأوَّل يفيد صدور الفعل صريحاً، وأمَّا الخبر فيفيد اتحاد شيء مع المسند إليه، فربما يتضمن هذا لاتحاد صدور الفعل عنه، فالقرينة فعلية داعية إلى جعل الجواب جملة فعلية، نعم يتَّجه أنَّ السؤال جملةٌ اسمية؛ فالسؤال عمَّن يتحد معه المسند لا عمَّن يصدر عنه الفعل، فالقرينة اسمية لا فعلية) [٢].

ويبرهن العصام على أن تفريغ الإجابة من المسند الفعلي الزمني له فائدة، لأنَّ حذفه يتوجب أنْ يقدر ولو في الذهن لرد الفعل عمن صدر منه فعل الخلق أمَّا لو ظهر المسند الفعلي ذو الدلالة الزمنية لكان الزمن المؤول للسياق.

فغياب الزمن الفعلي عند العصام هو مساعد لتحديد ذات الفاعل لا الحدث وزمن الحدث، وهنا تتجلى يقظة حسهم الزمني عند تفريغ السياق من الفعل الدال على الحدث والزمن، وفي ذلك إفساح وانزياح للتركيز على محدد قد يفقد التركيز عليه لو وجِد فتغيب الفعل وزمنه لزيادة التركيز على الفاعل.

ونجد منه جهدًا رائعًا ومن سلفه السعد للتعليل بأنَّ الجملة الاسمية صورة من الجملة الفعلية فالفعل حدد وقت الحدث بدلًا من تعميمه في الاسم، لذلك كان الاستفهام بالفعل (يبين لنا أن المطلب هنا الاسمية وأنّ في الاسمية تمثيلًا عن الفعل، واختصارًا ليستعين برد السيد الشريف على من قال: (إنَّ الجواب بالفعلية متروك لرعاية المطابقة، على أنَّ رعاية المطابقة تُوهِم قَصْدَ التقوية؛ وهو لا يليق بالمقام) [٣]، ففي حالة الإجابة بالفعل فسيتكرر الإسناد مما يدل على تقويته.

ويستمر العصام مستخدمًا حسه البلاغي في علة حذف المسند الفعلي لوجود قرينة فوجود الفعل زيادة في المعنى لا سيما الدلالة الزمنية من تقوية الحدث وزمنه ومطابقة الجواب للسؤال، إلا أن

---

(١) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٤٦٩.

(٢) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**:٤٧٠، وينظر السعد، المطول ٢٩٢، حاشية السيد على المطول، ص: ٢٩٢.

(٣) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٤٦٩.

العصام يدفع هذا محتجا بحدس مقتضى الحال ومؤكدا عدم حاجة السياق النصي لذلك قال: (وربما يُرجَّح تقديرُ الفعل بأنَّ في تقدير الجملة زيادة حذفٍ وتقليلُ الحذف أوْلى.

وردَّه السيد السند بأنَّ الزيادة المشتملة على فوائد لا تُردُّ؛ وتلك الزيادة تشتمل على تقوية الإسناد ومطابقةِ الجواب للسؤال، وهو مردود بأنَّ المقام ليس مقام التقوية والمطابقة للفعلية، كما عرفت)[1] .

وفي مثال آخر لسلب الجملة من الزمنية المترتبة على وجود الحدث واستبدالها بجملة اسمية فقد سبق أن ذكرنا من حديثهم عند قول الشاعر:

لاَ يأْلَفُ الدَّرْهمُ المضْرُوبُ صُرَّتَنَا ... لكِنْ يَمُرُّ عَلَيهَا وَهْوَ مُنْطَلِقُ.

يقول السعد موقفا الزمن: (الانطلاق ثابت له دائم من غير اعتبار تجدد الانطلاق) [2].

قال السبكي: (من أحوال المسند أن يكون اسما وذلك إذا قصد به عدم التجدد وعدم الدلالة على الزمن وينبغي أن يقال: لعدم قصد إفادتهما حتى إذا لم يقصد واحد منهما يكون كافيا في إثباته اسما ومثله:

لاَ يـأْلَفُ الـدَّرْهمُ المضْـرُوبُ صُـرَّتَنَا لكِـنْ يَمُـرُّ عَلَيهَـا وَهْـوَ مُنْطَلِـقُ.

ويستمر السبكي في الحديث عن سلب الزمن من منطلق إرادة تثبيت صفة الكرم، ويتطرق إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الكهف: ١٨، فالمراد هيئة الكلب من غير أن يتحرك، ويناقش السبكي مدافعا عن تجرد اسم الفاعل من الحركة وسلبه إياها، فاسم الفاعل إذا عمل حمل المعنى على التجدد، ويتابع السبكي نقاشه: (فإن قلنا بأن: "زيد ضارب الآن أو أمس أو غدا" لا يدل على الثبوت لتقييده بالزمن الدال على التجدد ولاسيما ضارب غدا وإن لم يقيَّد بظرف فهو مصروف إلى الحال قلت: الدلالة على التجدد عند التقييد بالظرف، إنما هو بناء على أن الظرف ينفي الوقوع في غيره بالمفهوم، ولا نسلمه كما هو قول مشهور في مفهوم الصفة وإن كان مرجوحا فقد سلمناه، فقد يقال: إننا نعني بالثبوت وعدم التجدد بالنسبة إلى ذلك الظرف، فقولنا: "زيد ضارب غدا") معناه أن

(١) المرجع نفسه، ص: ٤٧٥.

(٢) العصام، **المطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٣٠١.

الضرب الذي سيقع منه غدا يقع ثابتا مستقرا، سواء كان موجودا قبل ذلك أم لا، بخلاف" زيد يضرب غدا".

بل ونجد السبكي يفسر "زيد قام" من أن الجملة الاسمية تدل (على ثبوت نسبة القيام المتجدد، فالقيام متجدد وحصوله لزيد ووصفه به ثابت مستقر، ولا بدع في ذلك، فربما كان الفعل المتجدد لشدة لزومه ودوامه أو شرفه في نفسه يجعل لفاعله صفة ثابتة مستقرة)[١].

فهو يضع جملة: "زيد قام" بين معادلتين:

معادلة الابتداء بزيد + معادلة الإسناد الفعلي للمسند إليه الاسمي= ثبوت نسبة القيام.

فأين الأثر للفعل ⟸ شدة اللزوم توحي بأن قيامه متجدد.

فنفَسُ السبكي الزمني دقيق فهو متحسس له ومتتبع لرائحة الزمن ومؤول له حسب السياق النصي، فيؤكد على أن المعنى المهم في الجملة "إن زيد قائم" هو الفاعل لا الفعل وزمنه، ويأتي الفعل في الرتبة الثانية.

وفي مقتطفات بين سطور شروحهم نرى الحدث عن الحس الزمني في حالة غياب الفعل الدال وما في ذلك من جمالية وتناسق مع النسق النصي فعند قول الشاعر:

لِيُبْـــكَ يزيـــدُ ضـــارعٌ لخصـــومةٍ ومختـــبطٌ ممـــا تطـــيحُ الطـــوائحُ

فالعصام – وقد سبقه السعد– يري أن حذف الفعل الدال على الزمن لما فيه من الدلالة الفعلية فيجعل الزمن متوقفا، فقوله: "ممَّا "يتعلق بمختبط، كما تعلق قوله: "لخصومة "بضارع، ويكفي للظرف رائحة الفعل، ولا يتوقف صحته على اعتماد اسم الفاعل.

وفي هذا الشاهد يقظة أيضًا لحسهم الزمني التنبؤي الاستباقي من عدول الشاعر عن الفعل الماضي إلى المضارع، لما فيه من استباق للزمن وتعجيل لمساحة عقاربه، وقد تحدث السعد والعصام عن ذلك، وإن كان السعد أقل كلاما من العصام.

قال السعد: (بمعنى الماضي عدل إليه استحضارًا لصورة ذلك الأمر الهائل).

فالسعد وقَّت الزمن على أنه مضارع باعتبار ما كان من إغاثة يزيد للمحتاجين، فيزيد مقتول لتوه، فهل لحقت الطوائح أن تطيح بذلك المختبط والضارع ؟!! فجعل المصيبة كأنها واقعة ويزيد توفي للتو، وكأن الدرس البلاغي يريد أن يثبت أن الذي توقعه الشاعر واقع لا تخمين؛ ليؤكد صحة ما

(١) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، ص:٢/٤١٥– ٤١٦.

يرثى به ممدوحه وهذه قراءة السعد لعقرب الفعل الزمني.

أمَّا العصام فخيال زمنه كان أسبق للأمام مستندا على ("تطيح" بمعنى الماضي؛ عُدِل إلى المضارع لحكاية الحال، كذا ذكره الشارح المحقق، وهو المشهور) إلا أن الحس الزمني عند العصام استند على زواية أخرى مستثمرا اسم الفاعل الذي تلمس به إخبارا بالمستقبل، قال العصام: (ونحن نقول: المراد بالضارع مَنْ يضرع بعد موت يزيدَ، وبالمتخبط مَن يسأل كذلك بعد موته؛ لأنه كان دافعاً للخصومات و المهلكات فلا يكاد تقع في حياته خصومة ولا إطاحةٌ مطيحةٌ لمالٍ متموِّلٍ حتى يضرعَ أحدٌ لخصومةٍ ويحتاجَ أحدٌ إلى الاختباط؛ فالمضارع بمعنى الاستقبال، ولا يخفى ما في هذا الاحتمال مِن كمال مدح "يزيدَ"ب حماية الناس مِن الظَّلَمَة، ولفظ البيت أمْرٌ ومعناه التحسر على فوت يزيد لِفَوْتِ هذه المنافع لعامة الناس، وهذا مِن موجبات فضل هذا التركيب على خلافه، فاجْمَعه مع ما ستسمع) [1].

فالحس الزمني هنا اختلف بين تقديم للوقت وقراءة أن الماضي تطيح صورة للمستقبل وبين تثبيت الماضي في زمنه وقراءة ماضوية للسياق عند العصام، فهو لا يرى تقديما لعقرب الزمن ويمثل هذا المثل فسحة خلافية لاختلاف نظرة بلاغية.

النتائج والتوصيات:

وفي نهاية هذا البحث رأينا كيف كان الحس الزمني عند البلاغيين يقظًا، فهم متأولون في النظام اللغوي أنظمته وأنسجته مدركين للفسحات الانزياحية من عدولات تحمل آفاقا معنوية رائعة أرادها المتكلم ليبلغ عبرها إلى السامع، ففي حديثهم عن بلاغة التعبير الزمني إلى استباق التعبير الزمني إلى تراجعه وتأخره أو حتى غيابه وتصفيره نكت ومغازٍ بلاغية جمالية ذات ارتباط بالنسيج اللغوي المعرفي.

ونستطيع أن ندون بعد هذه الرحلة البحثية عددا من النتائج:

١- الحس الزمني لدى البلاغيين دقيق وعميق، وتميزوا عن النحاة ببعض من التأويل الأدبي المستند على عقلية ومنطقية.

(١) العصام، الأطول على شرح تلخيص المفتاح، ص: ٤٧٢.

٢- إن صورة الزمن عند البلاغيين ليست قوالب جامدة تغلب عليها خصوصية الكلمة والمفردة التي أفرد لها النحو والنحاة وغلَّبوها بحكم طبيعة الدرس النحوي، فهي عند البلاغيين أفق ممتد يستمد زمنتيه من ثالوث المتكلم والسياق والضمائم القرائن التي تنتج المعنى،فالمحدد لوجهة الزمن متعدد وليس ذات الفعل حيث يعتمد على قرائن حالية كالقائل مثلًا ومصداقيته وما يسمى "بالتذويت من المنظور الزمني" كما في قوله تعالى: "ولو ترى" أو يعتمد على ضمائم وروابط متواجدة في السياق كما في قول الشاعر: "كلما وردت"، يجدر بالمتلقي البحث عن كوامنها؛ لأنها لا تقل أهمية عن زمنية الفعل الذي قد ينحرف إلى اتجاهات تخالف النظام اللغوي لمقاصد بلاغية ذات أهمية، بل نستطيع التأكيد بأن للبلاغيين إشارة زمنية سبقوا بها غيرهم، ولعل لنظرية النظم الأثر الأكبر في ذلك، كما أن الدراسات الحديثة في الأزمنة وبعض إشارات البلاغيين القديمة تؤسسان لاجتماع جماليات البلاغة والنحو.

٣- إن التفاعل بين عناصر السياق هو المنتج الأول للدلالة الزمنية دون جحود بأثر المفردة الزمنية أو تغافل عنها، ضمن أدوات النحو التي يتفلت منها هذا التفاعل أحيانا كما في خروج الكلام مقتضى عن الظاهر.

٤- إن تتبع الحس الزمني عند البلاغيين دقيق إذا استوقفهم بالتفصيل وفيما عداه فحسهم أميل للنحو والمنطق، ولعل المبرر في ذلك هو الغرض التعليمي الذي نشأت من أجله هذه الشروح، كما أن نمطية المنطق التي هيمنت عليها قللت من فرصة ظهور جماليات الذوق الذي يمتلكونه.

٥- للبلاغة نظرة متفردة في الزمن لا يصلها النحو ولا النحاة، فلها طرق ملتوية من التأويلات التي لا يمتلكها إلا صاحب دربة وملكة، من امتلاء السياق بالزمن أو تصفيره منه جمالية تتجلى في الحركة والجمود خاصة إذا طُبِّق ذلك على النصوص، ولذلك نقول: إن للبلاغة زمنها الذي تحتاج إلى متأول متفقه، فنكاد نقول إن زمن البلاغة تأويلي بامتياز، ولعل في الأطروحتين المذكورتين في أول الدراسة عن الزمن ما يصل إلى تأصيل يضبط هذا وإن كانت دروب البلاغة لا تحب الصرامة في الضبط.

٦- لأساليب الشرط طرق زمنية ليست باليسيرة فبين زمن الشرط وجوابه، وما عطف على جواب الشرط دروب وعرة ومسالك قفرة تحتاج إلى تأمل، وفيه آفاق زمنية تتردد في ذهن المتلقي فتنقله من أفق إلى أفق زمني آخر، كما في جواب الشرط المضارع وما عطف عليه من فعل ماضٍ لعلة بلاغية، وهي خير ما يمثل دقة الحس الزمني لديهم.

٧- إن الأزمنة قد تتداخل فقد يحتوي زمن على جزء من زمن حدث سبقه وربما يتبعه في الترتيب، وقد يكون هذا التداخل جزئيًا أو كليًّا كما في جواب الشرط المتعدد في زمن الفعل "يكونوا" و"ودوا"، والفعل الواصف للحال كما في قولنا: "زيد يصلي"؛ لذا تستوجب معالجة ترتيب متوالية الأحداث المتداخلة والأخذ بالاعتبار لسمات الزمن والسياق لفهم آلية توالي وتوالد الأحداث وبلاغة التقييد فيها، وفي هذا رد على من ادعي قصرَ العربية في التعبير عن الزمن وأنه ليس فيها إلا فعل منجز وغير منجز، بل إن للعربية أفقا أوسع من التعبير بأزمنة الأفعال فقط عن الزمن من زمن للتلفظ وغيره، وكما تؤكد الصور السردية المتخيلة في "ولو ترى" ففيها امتداد زمني متعدد الوجهات والتأويل، لا يجهلها إلا من جهل أسس التعبير العربي.

التوصيات:

يحتاج هذا الحس إلى دراسة مكثفة ذات رؤية تملك ملكة الأسس المعرفية المتوجة بالنفس البلاغي المرن، وهذا الموضوع غض لم ينضج في الدراسات البلاغية على الرغم من الإرث البلاغي؛ لذا أوصي بالعكوف على دراسته في أمهات الكتب البلاغية وربط ما دار بها بما دار من كتب اللسانية الحديثة والتداولية الحديثة، وترجمة ذلك على النصوص بالتطبيق عليها؛ للخروج بنتاج مبتكر له أصول لم تتلقَ العناية من قبل، ولعل هذا نوع من التجديد في البلاغة.

المراجع

الاسفرائيني، عصام الدين إبراهيم بن محمد، الأطول على تلخيص المفتاح، دراسة وتحقيق: محمد الخراز، رسالة جامعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض السعودية، ١٤٢٣هـ-١٤٣٤ه.

التفتازاني، سعد الدين بن مسعود بن عمر، المطول شرح تلخيص المفتاح، صححه وعلق عليه: أحمد عزو عناية، ط: ١، بيروت-لبنان، دار إحياء التراث، ١٤٢٥هـ.

أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ط:٥، مصر، مكتبة وهبة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

ابن عطية، عبد الحق بن غالب، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط:١، لبنان، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ .

ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ط/ ١، يبروت-لبنان، دار الكتب العلمية.

توأمة، عبد الجبار، زمن الفعل في اللغة العربية قرائنه ووجهاته، دراسات في النحو العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٤م ط: ب، ت

الدسوقي، محمد عرفة، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، حاشية الدسوقي على مختصر السعد، ط: ١، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

ابن هشام، عبدالله بن يوسف، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، بيروت – صيدا، المكتبة العصرية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، قرأ وعلق عليه: محمود شاكر، دلائل الإعجاز، ط: ٥، مصر، الشركة الدولية للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٢م.

حمداوي، جميل، مفهوم الجهة في اللسانيات، الألوكة، المغرب، ٢٠١٦م، ط: ١،.

الرازي، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط: ٣، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٥هـ، ١٩٧٥م.

الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس التراجم، ط٨، بيروت-لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٨٩م.

الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، البرهان في علوم القران، ط: ١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه ،١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.

القزويني، محمد بن عبد الرحمن، شرح وتعليق: محمد السعدي فرهود، عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، الإيضاح في علوم البلاغة، ط: ٦، مصر-بيروت، دار الكتاب، ١٤٢٥ه،٢٠٠٤م.

القزويني، محمد بن عبد الرحمن، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، ط:١، دار الفكر العربي، ١٩٠٤هـ-.

سيبويه، أبو البشر عثمان بن قنبر، الكتاب تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، عالم الكتاب بيروت، ١٩٨٥م، ط: ١.

السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ط:١، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية،١٤٢٣ه–٢٠٠٢م.

السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد، تحقيق: نعيم زرزور، مفتاح العلوم، ط: ٢، بيروت– لبنان، دار الكتب العلمية ،١٤٠٧ –١٩٧٨م.

العقاد، عباس محمود، الزمن في اللغة، مجلة الأديب اللبنانية، العدد: ٦،١ يونيو ١٩٦٠م، ط: ت.

لعقاد، عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٣م، ب، ت

العتيبي، زكية، الزمن البلاغي، جريدة الجزيرة، العدد: ١٧٢١٥، تاريخ النشر ١٦–١١– السامرائي، محمد صالح، معاني النحو، ط: ١، عمّان–الأردن، دار الفكر،١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

الشمسان، أبو أوس، تقديم محمد فهمي حجازي، ط: ١، الجملة الشرطية عند النحاة العرب، الرياض السعودية، مطابع الأوفست، ١٤٠١ه.

شكري، إسماعيل، في معرفة الخطاب الشعري: دلالة الزمان وبلاغة الجهة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط:١، ٢٠٠٩م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الوافي بالوفيات، بيروت –لبنان، دار إحياء التراث،٢٠٠٠م.

المغربي، أحمد بن يعقوب، مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ط: ١، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية،١٤٢٣هـ٢٠٠٢.

الملاخ، امحمد، الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية، مجلة الخطاب دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث في اللغة والأدب وتحليل الخطاب منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري الجزائر، العدد: ١٩، ٢٠١٥م.

الملاخ، امحمد، الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية، ط: ١، الرباط–المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون،٢٠٠٩م.

مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها عربي– عربي، ط:٢، بيروت– لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٨٩هـ ١٩٩٦م.

مطلوب، أحمد، القزويني وشروح التلخيص، بغداد، العراق، مكتبة النهضة، ١٩٨٦م، ط: ٢.

المراغي، أحمد مصطفى، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة مكتبة مطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٥٠م، ط١.

الهاشمي، أحمد، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط:١، بيروت– لبنان، المكتبة العصرية، ١٩٩٩م.

قراءة في فكر وليد معابرة من خلال كتابه "ذكريات خبيثة "

أ.د محمد حسن عوّاد*

فاطمة محمد حسن إسماعيل**

تاريخ تقديم البحث:٢/٢/٢٠٢٠م. تاريخ قبول البحث: ١٦/٦/٢٠٢٠م.

ملخص

هذ البحث قراءة في فكر وليد معابرة من خلال كتابه "ذكريات خبيثة" وقد كشفت القراءة أنّ وليداً مفكر عميق، ومثقف واسع الثقافة، وناقد بصير بالقضايا التي يعجّ بها المجتمع العربيّ كافة. وقد وزعنا البحث على مقدمة وتمهيد، وأبعاد خمسة هي: البعد الإسلامي، والبعد العربي، والبعد الوطني، والبعد التّاريخي، والبعد الأدبي واللغوي.

والبعد الإسلامي هو الأساس الذي يصدر عنه وليد في الحكم على الأمور، ثم أعقبنا ذلك بخاتمة رصدنا فيها ما توصلنا إليه من أفكار.

الكلمات الدالة: البعد الإسلامي، البعد العربي، البعد الوطني، البعد التاريخي، البعد الأدبي واللغوي

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. الأردن.

** جامعة آل البيت، الأردن.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

A Reading of Waleed Maabra's Thoughts through his Book "Zekrayat Kabeesa"

Prof. Mohammad Hasan Awwad

Dr. Fatima Mohammad Hasan Ismael

Abstract

This is a research paper that handles Waleed Maabra's thoughts in his book "zekrayat kabeesa".

The study reveals that waleed is a deep intellectual, a highly educated person with a wide knowledge and a distinctive critic for all issues that relate to the whole Arabic society.

The research paper is divided into different sections: an introduction, and five dimensions: the Islamic dimension, the Arabic dimension, the national dimension, the historical dimension, and the literary and linguistic dimension and this is the basis that Waleed relies on in his judgement on things. After that, a conclusion is added to sum up all the concepts and ideas of this paper.

المقدمة:

هذه قراءة في فكر وليد معابرة من خلال كتابه "ذكريات خبيثة"، والكتاب معالجات لقضايا سياسية، واجتماعية، وتاريخية، واقتصادية، صاغها قلم وليد بأسلوبٍ نقدي ساخر لاذع يبغي من ورائه الإصلاح واستنهاض الهمم ولا يبغي الشماتة.

وجرى البحث في تمهيدٍ وأبعاد خمسة، فأمّا التّمهيد فقد سلّطنا فيه الضوء على طائفة ممن برعوا في الأدب والفكر من غير المختصين بالعربيّة، وأمّا الأبعاد فهي البعد الإسلامي، والبعد العربيّ، والبعد الوطني، والبعد التّاريخي، والبعد الأدبيّ واللغوي. ويلاحظ أن ّالبعد الإسلامي هو الأصل والأساس الذي يبنى عليه فكر وليد، وهو المحرك له، هو المصباح الذي يبدد به ظلمات القضايا، هو المعيار الذي يزن به الأمور. وأمّا الأبعاد الأخرى فهي فروع إذا ما قيست بذلك الأصل الكبير.

ثم ختمنا البحث بذكر طائفة من الأفكار الإبداعية التي توصل إليها فكر وليد المتوقد.

وكشف البحث أنّ وليداً مفكر عميق التّفكير، ومثقف واسع الثّقافة، وناقد بصير لا يقف نقده عند الأشكال والرسوم، بل يتجاوزها لباب المسائل وأعماقها.

تمهيد:

اللغة العربيّة لم تكن في يومٍ من الأيام حكراً على طائفة من النّاس يمتهنونها ويؤثرون التخصص بمسائلها دراسة وتدريساً، ولكنّها رسالة حضارية وإنسانيّة، وملك لكل ّ من آنس في نفسه القدرة على التّعبير بها، والفقه في أسرارها، والتّوغل في أنظمتها.

ولقد ظهر في القرن العشرين طائفة من العلماء والأدباء والشّعراء والفلاسفة لم يختصوا بالعربيّة ولكنهم أحبوها، وذابوا في بيانها المشرق، وأثبتوا جدارةً في الميدان الأدبي ّوالفكريّ ولفتوا الأنظار إلى سمو بيانهم، وسمو ما قدموه من روائع الفكر والأدب، نذكر منهم الأديب الدكتور محمد حسين هيكل (حقوقي) صاحب" زينب" "وثورة الأدب" وغيرهما، والأديب توفيق الحكيم (حقوقي) صاحب المسرحيات العديدة، والمفكر الدكتور زكي نجيب محمود (فلسفي) صاحب "المنطق الوضعي" و "تجديد الفكر العربي"، و "ثقافتنا في مواجهة العصر"، والمفكر الأستاذ مالك بن نبي (مهندس كهربائي)، الذي أغنى المكتبة العربيّة بكتب فكريّة عميقة تدل على علمٍ غزير، وثقافة واسعة من مثل: "مشكلة الثقافة"،

"والظاهرة القرآنية" و "في مهب المعركة "ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" و "شروط النهضة" و"الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" وغيرها، والدكتور عبد الرحمن بدوي "فلسفي"، وهو مفكرٌ وشاعرٌ أغنى المكتبة العربيّة بمؤلفات في الفلسفة وتاريخها من مثل: "مذاهب الإسلاميين" "والزمان الوجودي"، "والمنطق الصوري" وغيرها.

والمهندس الشّاعر علي محمود طه صاحب "الملاّح التائه"، والنّاقد الشّاعر الطبيب الدكتور أحمد زكي أبو شادي، والدكتور الطبيب إبراهيم ناجي صاحب قصيدة "الأطلال"، والجغرافي الدكتور محمد عوض محمد الذي ترجم "قواعد النقد الأدبي "لكروبي".

وقد ألّف الدكتور أيمن العتوم كتاباً وسمه ب "هندسة الكلمات مهندسون شعراء" ساق فيه طائفة من الشّعراء الأردنيين وطائفة من أشعارهم ومن هؤلاء الشّعراء المهندسين: حيدر المومني، وخالد سعدات، ورضوان الزواهرة، وعامر حيمور وغيرهم.

والأعلام الذين سبق ذكرهم يرتبطون بالتّراث ارتباطاً متفاوتاً، ولكن يجمعهم البيان العربيّ الصافي، والثّقافة العربيّة الإسلامية ممتزجة بالثّقافة الإنسانيّة، وبينهم وبين المتلقي ضروب من القواسم المشتركة، غير أنّ الأدب العربي والأدباء العرب أخذوا في التّحول رويداً رويداً في أعقاب الحرب العالمية الثّانية، وظهور حركة الشعر الحر أو شعر التّفعيلة، بعد هذا التّاريخ أخذ الأدب العربي والشعر العربي يغرقان في الضبابية، والرمزية المقفلة التي انقطعت بها السبل عن أرض الواقع، ووقع الشعر العربي في بحار من الضياع والتيه والظلمة، يعكس ما يعانيه أصحابه من ضياع وانحراف عن الرؤى الصحيحة، والانخلاع التّام عن الرؤية القرآنية الحضارية الإنسانية العظيمة، وجريه وراء التّقليد الأعمى للأنماط الأدبيّة الشائعة في أوروبا ،من جهة الشّكل والمضمون وصار بين الشّاعر والمتلقي حجاب كثيف من العسير اختراقه.

في هذا الجو الذي رسمته يقف الأستاذ معابرة ليصحح ما اعوج من المسار، ويردّ الفكر العربي إلى مساره الحاق، فالأدب والفكر ينبغي أن يكونا واضحين لأنّ الوضوح لا يعني السطحية أبداً، وإنّما يعني وضوح الفكرة في الذهن، وتبلورها، والغموض لا يعني العمق، بل يعني غموض الفكرة في الذهن، أو ضعف الوسيلة عن جلائها.

معابرة مفكر عميق، ومثقف واسع الثقافة، وناقد اجتماعي ينقد بشدة ما يشيع في المجتمع من علل وأمراض من مثل الكذب، والنفاق، والفساد، وضعف القيم العليا الهادية إلى سواء السبيل، ويستند معابرة في هذا كلّه على منهج إسلامي صافٍ أصيل، ورؤية فكرية إسلامية متينة تعضدها ثقافة عربية وإنسانية، وهو رجل يُعشق الصدق، ويتفانى في محبته، ويتوسل بالسخرية للتعبير عن مجمل آرائه وأفكاره.

وسنحاول في هذا البحث أن نرصد المرتكزات التي ترتكز عليها هذه الشّخصية، والأبعاد الفكرية التي تؤمن بها، ورأينا أن هذه الأبعاد تنحصر في أبعاد خمسة هي: البعد الإسلامي، والبعد العربي، والبعد الوطني، والبعد التّاريخي، والبعد الأدبي واللغوي.

البعد الإسلامي:

الإسلام منهج كامل يحدد علاقة الإنسان بنفسه وبربه، وبالنّاس وأحكامه مستنبطة من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وإجماع الصحابة، والقياس الصحيح الذي تتوافر فيه أركانه الأربعة بدقة: المقيس، والمقيس عليه، والعلّة الجامعة المانعة، والحكم، والاهتداء بآراء الأئمة الكرام، وأفكارهم السامية.

ومعابرة معتصم بذلك كلّه، حريص عليه، والآية القرآنية تجري في تضاعيف كلامه جريان الدم في العروق لا من باب التوظيف فقط، بل لأنّها فكر راسخ في أعماق وجدانه وضميره، انظر إليه كيف يأسى لحال هذه الأمة التي أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر يقول: "الإنسان الذي ولد في أمة كانت خير أمة أخرجت للناس، ولكن بتغير الظروف في عصرنا الحاضر أدت به إلى الانزياح والعدول عن الحق في بعض الجوانب وليس في أكثرها، مما أدى ذلك إلى انعكاس المفاهيم الناتج عن انحراف الزّمان وتغير أحواله" [١].

ويقول في موضع آخر "أمة وسطاً، سادت بعدلها ورفعت راية الإسلام"[٢] ،ثم كيف تحولت تحولاً منقاداً ذليلاً ترتقب إشارة الغربي.

(١) (**معابرة، وليد، ذكريات خبيثة**، الطبعة الأولى، دار المشكاة للنشر والتوزيع ،٢٠٢٠، ص: ١٤١).

(٢) نفسه، ص :٣٥

يقول معابرة ساخراً: "وبات النّصر فيها، يرهن بشمعة غربية تبدد آيات الظلام،"[١]

ما ورد من كلام معابرة يمثل فكراً إسلامياً أصيلاً صحيحاً، فالله سبحانه وتعالى يقول:

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[٢]

ويأبى الأستاذ معابرة التّبعية المستكينة للغرب، والانقياد الأعمى من غير تبصر يقول: "وبات النّصر فيها، يرهن بشمعة غريبة تبدد آيات الظلام" [٣]، ويقول في موضع آخر: "اعتمدوا على النّقل وجعلوا السيد كالعبد، وتجاهلوا العقل، ورهنوه لصندوق النقد ... ونسير على شريعتهم كتلميذ حفظ درسه "[٤].

ينطلق معابرة في الذي سبق من كلامه من آيات قرآنية كريمة عديدة منها: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِين} [٥] ،

وقوله تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [٦]

وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ } [٧] وقوله تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ } [٨] ، وقوله تعالى: { وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } [٩].

ويهاجم معابرة باعة الكلام والمنافقين والفاسدين الذين امتهنوا الكذب. يقول: "منذ زمن والعرب مولعون بالكلام، يتبارزون بالكلام يمدحون، ويرثون، ويهجون بالكلام. ينتصرون لأنفسهم بالكلام.

(١) نفسه، ص ٣٥
(٢) البقرة :١٤٣
(٣) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٣٥
(٤) نفسه، ص ٣٦، ٣٧
(٥) النساء:١٤٤
(٦) ال عمران: ٢٨
(٧) الممتحنة :١
(٨) آل عمران : ٧٣
(٩) النساء: ١٤١

يقاتلون أعداءهم بالكلام، حتى أنّهم بنوا سوقاً لبيع الكلام" [١] ويقول في موضع ثانٍ: "بين النظرية والتّطبيق، هناك دين يؤمن به بنو البشر، ودين آخر يطبقونه" [٢]

يمتح هذا الفكر من معين القرآن الذي لا ينضب، فالله سبحانه وتعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } [٣]

وشدد القرآن على المنافقين وبيّن ما يحدثونه من فساد وفتن و زعزعة واضطراب قال الله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ } [٤]

وقوله تعالى: { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [٥]، وقال تعالى : { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} [٦] ، وقال تعالى: { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }[٧]

والبعد الإسلامي الذي يصدر عنه وليد معابرة ليس عنصراً من عناصر شخصيته، ولا هو رافد من روافد هذه الشخصية كما يحلو للخاطر الأول، ولكنه الأساس الذي تنبني عليه هذه الشخصية، وإذا وقفنا على عناصر أخرى فهي روافد لهذا الأساس الحق. ويسخر معابرة من الذين اتخذوا من الدين أو أفكاره أشكالاً ورسوماً أو طقوساً مفرغة من مضامينها كقوله:

"ومنا يذبح على الطريقة الإسلامية خنازير" [٨] .

ويسخر من انقلاب القيم وتغيرها فالكذب والجهل فاشيان ونضع الأشياء في غير موضعها. يقول: "نمنح الجلاّد عصا سرقت بأيدينا ... نعزف على القانون إذا صنعه نائبنا لنترجم أصوات القرود إلى

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٢٣
(٢) نفسه، ص ٧٣
(٣) الصف: ٢-٣
(٤) التوبة: ٦٨
(٥) النساء: ١٣٨
(٦) التوبة :٦٧
(٧) البقرة :١٤
(٨) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٣٣.

زئير ...لا ندرك أننا بالتصفيق ظلمنا أنفسنا إلاّ بعد أن يأتينا في القبر منكر ونكير ... يقال لنا: إنّ جميع الكلاب تعلو وتطير، فنهز رؤوسنا ونقول: لم يعد ذلك بعسير "[١].

ووليد معابرة امرؤ صادق يمقت الكذب وبيع الكلام كما تقدم، وقد عبّر عن ذلك بسخرية ظاهرة في دولة الأمس في قوله: "كنت وأصدقائي بمهرجان يجلب البؤس فيه سياسي يتحدث عن تاريخ القدس، فأقسم أن يعيدها بحدّ السيف والترس، ويعيد حطين ويقهر اليهود والروم والفرس ... عندها نام الحاضرون جميعاً من شدة اليأس، وبقيت وحدي أستمع لما يباع ويشترى بالفلس، ولكنني مللت طوال الانتظار، فغرقت في النّوم بعد دقائق خمس"[٢] .

ومن المعلوم بداهة أنّ الإسلام حثّ على الصدق وأبى أن يكون المسلم كاذباً في آيات عديدة منها: {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [٣]، وقوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا }[٤] " وقوله تعالى: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [٥].

ويتردد في تضاعيف ما كتب كلام كثير يهاجم فيه الكذب، والظلم، والفساد، وخنق الحريات بأسلوب ساخر عميق كقوله: "الإعلام المعاصر ينقسم إلى عشرة أقسام تسعة منها الكذب والعاشر فله الصدق"[٦]، وكقوله: الظلم والقرار عملتان عربيتان... حكومات اتخذت الاستبداد نمطاً استعمارياً حسب حسب الوصف" [٧]، وقوله: "فكتبت مقالاً عنوانه" وجوه يومئذ عليها غبرة"، فاتهموني بنشر فكر زائف

(١) نفسه: ص ٣٤.
(٢) نفسه، ص ٢٥.
(٣) الأحزاب: ٣٥.
(٤) الأحزاب :٢٣.
(٥) الأحزاب: ٢٤.
(٦) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ١٠٦.
(٧) نفسه، ص :٣١.

زائف أمات الحق فأقبره، فنزلت الصاخة بالوليد النّادم على حالٍ أفقره ... فقد زجوني بسجن انفرادي لم أر إلاّ أعسره ... فصرت مجرماً محرضاً كتب كلاماً وشفّره " [١].

وقوله: "والظلم أصبح في وطن (أظلم) (أحلك) (أسود) (أبكم)"[٢]، وقوله: "ولكنّ ندائي أزعجهم فانهالوا عليّ ضرباً بالكفوف، واعتبروه هجاءً وتطرفاً خارجاً عن المألوف، فجعل ندائي تطرفاً تجاوز بحريته السقوف، وحبسوني مع جلاّد يتقن الضرب على الدفوف، حتى تورم جسدي واحترقت أغصانه والقطوف"[٣].

ومن المعلوم بداهةً أنّ الإسلام حثّ على العدل ونهى عن الظلم، يقول الله تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [٤]، وقال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ }[٥].

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [٦]" وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا } [٧]"، وقال تعالى: {ثُمَّ {ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ} [٨] .

وعن جابر رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة" [٩].

وقد عقد الإمام النّووي في رياض الصالحين باباً في تحريم الظلم والأمر بردّ الظالم.[١٠]

(١) نفسه، ص ٢٩ ،٣٠.
(٢) نفسه، ص:٣٢.
(٣) نفسه، ص: ٢٦ ،٢٧.
(٤) المائدة: ٨.
(٥) النساء :٥٨.
(٦) النحل :٩٠.
(٧) يونس :١٣.
(٨) يونس :٥٢.
(٩) النووي، محي الدين، يحيى بن شرف (٦٧٦هـ)، رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، ١١٤و١١٥. ١١٤و١١٥.
(١٠) انظر، النووي، رياض الصالحين ،١١٤ وما بعدها.

ويشيع في تضاعيف كلام وليد معابرة ألفاظ تدل على ثقافة إسلامية واسعة عميقة واعية، يردّ بعضها إلى آية قرآنية، أو حديث شريف كقوله: "قتل الوليد ما أكفره ... وكتابهم ما شاء ذكره... لم أجد إلا كراماً بررة... تصفهم بالوجوه المسفرة... ونصوص الأدباء تشير لوجوهٍ ضاحكةٍ مستبشرة... وجوه يومئذٍ عليها غبرة... فاتهموني بنشر فكرٍ زائفٍ أمات الحق فأقبره... فرأيت فيها زمناً فرّ فيه المرء من أخيه وأمّه وأبيه، وصاحبه وبنيه وفصيلته التي تؤيه".(١)

كلام وليد هذا كله يرتد إلى آياتٍ قرآنية كريمة، مما يدل على تغلغل الثقافة الإسلامية في عقله ووجدانه، وسنرد الآن ما قاله إلى آيات القرآن دليلاً على ما نقول، يقول الله تعالى: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ }(٢) وقال تعالى: {كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ } (٣)،وقال تعالى: { بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ }(٤)وقال الله تعالى: { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ }(٥)، وقال تعالى: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ }(٦) .

وقال تعالى: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَه }(٧) وقال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ } (٨) وقال تعالى: {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ }(٩).

ومن المعرفة القرآنية قوله: "آمنت الملائكة بالله ثم سجدت للإنسان فكانوا من المؤمنين، وآمن إبليس بالله، ثم أبى أن يسجد للإنسان فكان من الكافرين"(١٠) يشير إلى قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } (١١).

---

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ٢٩-٣٠.

(٢) عبس: ١٧.

(٣) المدثر،٥٤-٥٥.

(٤) عبس:١٥-١٦.

(٥) عبس:٣٨-٣٩.

(٦) عبس:٤٠-٤١.

(٧) عبس:٢٠-٢١.

(٨) عبس:٣٤-٣٦.

(٩) المعارج:١١-١٣.

(١٠) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٧٤.

(١١) البقرة :٣٤.

ورأس مقالته "إنّ البقر تشابه علينا " [١]، هي آية قرآنية كريمة يقول تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا} "[٢].

ويتحدث بسخرية عن قتال المسلمين بعضهم بعضاً واستباحتهم دماء أنفسهم.[٣]

وقتل المسلم حرام. يقول تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً} [٤] ، وقال تعالى: {وَمَنْ {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا }[٥]. "وقال تعالى: {وإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ }[٦].

وعن النّبي صلى الله عليه وسلم :(لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض). [٧]

ومن الجمل القرآنية التي تنساب في ثنايا كلام وليد معابرة قوله: "وأنّ الإعلاميين يعبدون الله على حرف" [٨]، فهذا القول مقتبس من قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [٩].

وللحديث النّبوي الشّريف صدى قوي في نفس وليد، فهو أساس ثانٍ بعد القرآن في تشكيل شخصيته يقول في حوار بيزنطي: "ولست أرى إلا أن زمن الرويبضة قد أتى برایاته"[١٠]. يشير بذلك إلى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينصّ أنّ من أشراط الساعة "أن تنطق الرويبضة في أمر العامة. قيل: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الرجل التّافه الحقير ينطق في أمر العامة" [١١] .

---

(١) معابرة، ذكريات خبيثة ،١٠٣.

(٢) البقرة :٧٠.

(٣) انظر، معابرة، ذكريات خبيثة ،٥٦، ١٠٢.

(٤) النساء :٩٢.

(٥) النساء :٩٣.

(٦) الحجرات :٩.

(٧) النووي، رياض الصالحين، ص:١١٤.

(٨) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٧٥.

(٩) الحج :١١.

(١٠) معابرة، ذكريات خبيثة ،٤٩.

(١١) ابن منظور، لسان العرب ،١٢/٩.

ويسخر معابرة سخرية مرّة واعية تدل على ىسموه الفكري ممن يسلكون مسالك الشعوذة والدجل في إيراد العلل والأمراض وزعمهم التحكم بالجن متسربلين بسربال الدين، وفعلهم هذا ليس من الدين في شيء. يقول: "إنّ ابنة خالتي قد توقفت مسيرة حياتها بسبب أن أحد المشعوذين قام بإرسال نفر من الجن ليعطل زواجها ... وما زال يحاول إقناعي أن ذلك الزواج قد تعطل بسبب الجن حتى خطر ببالي سؤال، فقلت له: إذا كان بعض المشعوذين الأشرار يستطيعون إرسال الجن لغاية تعطيل زواج بنت خالتك فلماذا لا يقوم المشعوذون الوطنيون بإرسال الجن لتعطيل المفاعل النووي في إسرائيل"(١).

عن عقبة بن عامر مرفوعاً: من تَعَلّق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلّق ودعه فلا ودع الله له"(٢). وروى أبو داود "إنّ الرقى والتمائم، والتِّولة شرك"(٣) .

والتحكم بالجن أيضاً يندرج ضمن هذه الجهالات والشعوذة، وحسبنا قول الله: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكّلُ الْمُتَوَكّلُونَ}(٤).

ويوظف معابرة في سياق حديثه عن توحيد المقامات قيمة إسلامية بسخريته المعهودة تتعلق بالميت فيقول: "رضينا أن نكون أمواتاً، ىفقات الحكومات: إكرام الميت دفنه. وإذا فصلنا هذا التعبير عن سياقه المجازي الذي يريده وليد معابرة، فإنّ للميت حرمة يجب أن تراعى، ومن ذلك دفنه من غير تأخير مالم يمنع مانع.

روى أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله"(٥).

---

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:١٣٥، وانظر رفضه لأساليب المشعوذين ص:٩٦.

(٢) النبعلي، أحمد بن حجر، تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين، الطبعة الثالثة ،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص:١٠٩.

(٣) صنوبر، محمود إبراهيم، من أحاديث رسول الله ،١٩٦٧م، ص:١٠٠.

(٤) الزمر :٣٨.

(٥) النووي، رياض الصالحين ،٣٨٥.

ولمعابرة فهم بالفقه الإسلامي يدل ّعلى ذلك قوله: "وليد والذين معه طلقوا الفساد وحاربوا نداء النزعة، فكان طلاقاً بائناً بينونة كبرى ما له من رجعة، أصدقائي أحتاجهم كحاجة ظمآن يتوسل الماء دمعة، كيف لا؟ وقد تزوجوا الوطنية زواجاً أبدياً بعد أن شرّعوا تحريم التسحيج وصنفوه كزواج المتعة"(١).

فالطلاق البائن بينونة كبرى لا رجعة له، ومن مشتقات مسألة الطلاق في الإسلام الذي هو أبغض الحلال، وللعلماء تفصيل في هذه المسألة (٢)، أمّا نكاح المتعة أو زواج المتعة الوارد في نص وليد الذي سقناه فهو حرام قال الصنعاني: "وفي نهاية المجتهد أنها تواترت الأخبار بالتّحريم، إلا أنّها اختلفت في الوقت الذي وقع فيه التّحريم "(٣) وقال النّووي: "الصواب أنّ تحريمها وإباحتها وقعا مرتين، فكانت مباحة قبل خيبر ثم حرمت فيها ثم أبيحت عام الفتح وهو عام أوطاس ثم حرمت تحريماً مؤبداً"(٤). وأما الإماميّة أو الجعفرية أو الاثنا عشرية فتجيز نكاح المتعة. قال الصنعاني: "اعلم أنّ حقيقة المتعة كما في كتب الإمامية هي النكاح المؤقت بأمد معلوم أو مجهول، وغايته إلى خمسة وأربعين يوماً، ويرتفع النكاح بانقضاء المؤقت في المنقطعة الحيض وبحيضين في الحائض، وبأربعة أشهر وعشر في المتوفى عنها زوجها، وحكمه أن لا يثبت لها مهر غير المشروط، ولا تثبت لها نفقة، ولا توارث، ولا عدّة إلاّ الاستبراء بما ذكر، ولا يثبت به نسب إلاّ أن يشترط، وتحريم المصاهرة بسببه، هذا كلامهم" (٥).

البعد العربي:

يحظى البعد العربي باهتمام وليد معابرة، لأنّ الفكر الإسلامي الذي آمن به غير مقيد بمكانٍ ولا زمان، بل هو فكر للناس كافة: قال تعالى:

(١) معابرة، ذكريات خبيثة ،٤٣.

(٢) انظر الصنعاني، محمد بن اسماعيل، سبل السلام، شرح بلوغ المرام، تحقيق: حازم علي بهجت القاضي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،١٤١٩هـ،١٣ ١٩٩٨م، ١٤٢٩/٣ وما بعدها.

(٣) نفسه، ١٣٣٣/٣.

(٤) نفسه، ١٣٣٣/٣.

(٥) نفسه،١٣٣٣/٣، وانظر: الذهبي: محمد حسين، التفسير والمفسرون، الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة ،١٣٨١هـ-١٩٦١م، ١٩٣/٢

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }(١)، والتفاضل بين الناس لا يقوم على عرق أو لون بل هو قائم على التقوى وحدها قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }(٢).

والفكر الإسلامي هو المعيار الذي يزن وليد به الأحداث والقضايا والمسائل التي يعجّ بها المجتمع العربي، لذلك أخذ يسلط أضواء هذا الفكر على هذا المجتمع بطريقته الساخرة الرّامية إلى تنبيه الغافلين إلى مواطن القصور من أجل الإصلاح والنهوض بالأمة، فمن ذلك ما نقع عليه من أسفٍ وألم في نفس وليد لما يلقاه من تفرق العرب وتشرذمهم خلافاً لقوله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}(٣)

يقول وليد: "تاريخ واحد، وقيم واحدة، ولغة واحدة، ودين واحد، وعادات وتقاليد واحدة نتاجها: متفرقون رغم التوحد"(٤).

ويسخر معابرة من الواقع المزري والانفصام بين حكومات العرب وبين شعوبها، فيقول: "حكومات عربية تعادي شعوبها، والشعوب تطالب الراقصات أن تتفنن حكومات زجّت حريتنا في السجن فرضينا"(٥).

ويستعين وليد بقواعد العربية بغية توجيه لاذع لسياسة العرب وما فيها من انقياد وتبعية يقول: "في لغة العرب يبنى فعل الأمر على ما يجزم به مضارعه. أمّا في سياسة العرب فيبنى فعل الأمر على مدى رضا المفعول لأجله"(٦).

ويرى وليد معابرة ساخراً أنّ ساسة العرب إذا قدّر لهم أن يموتوا فإنّ حال الأمة سيتغير نحو الأحسن يقول: "وما الذي سيتغير إذا مات ساسة العرب، فأجبتها لا شيء، سوى أننا سنصبح من دول العالم الأوّل! فهزمتني قائلة: ألا تعلم أنّ أبطال الأفلام والمسلسلات العربية لا يموتون"(٧).

---

(١) سبأ: ٢٨.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) آل عمران: ١٠٣.
(٤) معابرة، ذكريات خبيثة، ٩٨.
(٥) نفسه، ص:٧٧.
(٦) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٧٨.
(٧) نفسه، ص :٩٣.

والأسى يرمض وليداً حين يرى أمته "قد هوت ببارقها، وعلت رايات القهر والمقت، وكسر أنفها، فلم يعد يشتم إلاّ رائحة الموت[١].

ويعبّر عن ذلّ العرب بعمق وسخرية حين يقول: "متى تمكن العرب أن يبيعوا العزة فقلت في وقت الحزّة واللزّة ... عندما استبدلوا القدس ب غزة"[٢].

وينقد وليد نقداً ساخراً ساسة العرب الذين يسلكون مسالك الدجالين والمشعوذين والانتهازيين حين يسخرون الدساتير لغايات في نفوسهم يقول: "إنّ جلّ السياسيين العرب القائمين على إقرار قوانين الضرائب يستخدمون طريقة الدجالين والمشعوذين الذين يظهرون في الأفلام العربية البائسة، فهم لا يأخذون أموال الزبائن إلا من أجل الأسياد، والغرابة في الحالتين: أنّ كلمة السر: دستور"[٣] والجامعة العربية عند وليد هي جامعة زوجات العربيّة[٤].

ويحدثنا وليد أنّ هناك أخوين أحدهما ناجح، والثّاني فاشل، فأمّا النّاجح فقد التحق مع زملائه لنيل شهادة جامعية، وأمّا الفاشل فقد التحق بأقرانه بجامعة الدول العربيّة[٥].

والحكومات العربية في نظره كالسكاكين لا تتحرك إلاّ لتجرح[٦]، وهكذا يمضي وليد بأسلوبه الساخر العميق وبفكره النير في انتقاد الواقع العربي وبيان مافيه من ظلمٍ وتعسف، وفساد، وتبعية ونفاق، وكذب وسرقات.

ونختم الحديث عن البعد العربي بهذه السخرية "الحمد لله أنّه لم تسجل أية استقالةٍ لأي وزير عربي بسبب السرقة، وهذا مؤشر قوي يشير إلى أنّ القوانين العربيّة قوانين شفافة وعادلة، كما أنّه يشير إلى اكتشاف جديد، هو أنّ البلاد العربية " فيهاش ولا حرامي"[٧].

(١) نفسه، ص:٥٠.
(٢) نفسه، ص:٤٦.
(٣) نفسه، ص ٩٦.
(٤) انظر نفسه، ص ١٢٦.
(٥) انظر نفسه، ص ٤٢.
(٦) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٨١.
(٧) نفسه، ص ١١٦.

البعد الوطني:

وعالج معابرة بالمنهج والمعيار والأسلوب الساخر العميق نفسه قضايا وطنية، والبعد الوطني كالبعد العربي كلاهما يخضعان لآلة الفكر السديدة التي اختارها وليد، والحفاظ عليهما يأتي من جهة الإيمان العميق بالفكر الإسلامي الذي يتسم بالعمق والشمول وتخطي قيود الزمان والمكان.

ووليد مؤمن بوطنه حريص عليه ويحب له اطراد التقدم والازدهار، وحبه هذا لم يمنعه من توجيه نقده الساخر لما يجري في الساحة الوطنية من ضروب النفاق، والكذب، والفساد، لأنّ همّ وليد أن تخلو الساحتان الوطنية والعربيّة من كل فساد وكذب ونفاق. من ذلك ما ذكره" في وطني يزرع العفير من تصديق الكذب، وشيوع الجهل، وإدراك الحقيقة بعد فوات الأوان.

يقول: "في وطني نمنح الجلاّد عصا سرقت بأيدينا، في وطني لا ندرك أننا بالتصفيق ظلمنا أنفسنا، إلاّ بعد أن يأتينا في القبر منكر ونكير، في وطني يقال لنا: إنّ جميع الكلاب تعلو وتطير، فنهز رؤوسنا ونقول: لم يعد ذلك بعسير، في وطني: نسمع من التلفاز أننا انتصرنا وأنخنا البعير، فنصدق، ونحن نعلم بأنّ حبل الكذب قصير سنبقى نقول: إنّ الإصلاح سنابل قمح، لندرك بفوات الأوان أنّ الحصاد شعير".(١)

ويقول في موضع ثانٍ "في وطني حكومات لا تدور ولا تستدير، وإذا ألبستنا ثوباً نقول: أنعش الجسم هذا الحرير"(٢). ويقول في موضع ثالث: "حق المواطن في بلدي قد خلق للدعسة"(٣).

وهكذا يمضي وليد معابرة في نقده اللاذع الساخر الذي يتكئ على الرمز ببصر ثاقب، وفكر عميق.

(١) نفسه، ٣٣-٣٤، وانظر ص ٨٧.

(٢) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٨٠.

(٣) نفسه، ص ٦٢.

البعد التّاريخي:

يعوّل وليد معابرة على التّاريخ تعويلاً ظاهراً، لا على أنّه صفحات تقرأ أو سجل يروى من غير تحليلٍ أو موازنة، ولكن لأنّه موطن العظة والعبرة واستخلاص الدروس المفيدة، وموطن الفكرة المتوقدة الخلاّقة المبدعة التي يأخذ بها فكر المصلح المتوقد لإقامة بنيان إصلاحي جديد ينهض بالأمّة بأسرها بل بالإنسانية جمعاء يقول: "فإنّ لقراءة التّاريخ أثراً دلالياً يشير إلى أهميته الكبيرة في حياة الفرد والجماعات، فهو السجل الكامل لمختلف الأحداث التي وقعت بين حقبه القريبة والبعيدة، وبما أنّه من أهم العلوم التي تدرس باستمرار في مختلف المؤسسات العلمية في العالم، لما له من آثار اجتماعية ونفسية قد تسهم في غرس القيم واستعادة أصولها، فلا بدّ من إبراز النقاط التي تثير الإنسان، وتسوق تفكيره نحو ثقافة المعرفة، ومقارنة الأحداث من أجل تسليط الضوء على الحقيقة التي تغرس مفاهيم التّجديد الثّقافي واختيار أنماط التّفكير لكي تمكنه من الحفاظ على الهوية الأصيلة وانتاج التّطور"(١).

ويقول في موضع آخر: "إنّ اللجوء إلى محاولة قراءة التّاريخ العربي والإسلامي الماجد واستنطاقهما سيظل باعتقادي أساساً لعملية التوصيف الحقيقي للأحداث، ومحوراً من المحاور التي تشير إلى الواقع الحديث وتحدد خصوصية مميزة له لرسم صورة مكتملة الوضوح عن ما نرنو إليه طامحين في إيجاد ما هو أفضل وأرقى في بناء حاضرنا الذي سيكون بدوره ماضياً للأجيال القادمة، وبذلك فإنّ حاضرنا سيصنع مستقبلهم، ومستقبلهم سيكون قاعدة أساسية تبنى من خلالها حضارات الشعوب الآتية"(٢).

ويوازن بين ماضي الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس وبين حاضرها الذي أدى "تغير الظروف ... إلى الانزياح والعدول عن الحق في بعض الجوانب، وليس في أكثرها، مما أدى ذلك إلى انعكاس المفاهيم الناتج عن انحراف وتغير أحواله"(٣).

(١) نفسه، ص١٥.

(٢) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ١٤٢.

(٣) نفسه، ١٤١.

وهداه تفكيره العميق إلى أنّ آلاف النّاس الذين ينقادون لفكرة ما أو فلسفة ما إنّما هم في الحقيقة ينقادون لفكرٍ كلي رسمه في الأصل شخص واحد. وهكذا كان الأنبياء هداة البشرية، وهكذا كان المصلحون، وهكذا كان المبطلون أيضاً الذين قدموا أفكاراً فاسدة تبناها من بعدهم خلق يقول: "إذا خالفك الرأي ألف شخص من نفس الفئة العقلية، أو نبذك ألف شخص من نفس الشّريحة الفكرية، فاعلم أنّهم جميعاً شخص واحد فقط فلا يغرّنك عدد المخالفين ولا تجزع من معاداتهم لأنّهم في النّهاية يشبهون ملايين اليهود الذين يعادون شخصاً عربياً واحداً" (١).

وعن طريق التّاريخ نعرف تعويل الاستعمار الحديث على دراسة تاريخنا، وديننا، ومعتقداتنا، ومذاهبنا، ولغاتنا، وصنوف المعرفة كافة، دراسة مستفيضة لتكون له قواعد ومرتكزات يطيل بسببها أمد وجوده. والنهوض والإصلاح والانحدار والتّراجع، وإن كان ظاهره جمعياً لكنّ أساسه خفوق الفكر الفردي المبدع الذي يمكن أن يؤثر في حياة الجماعة.

والتفت وليد بوعي حاد إلى غياب الفكر المبدع وحضور الادعاء بديلاً منه يقول: "ما التقيت بمدير إلاّ وحدّثني عن نجاحاته وما التقيت بوزير إلاّ وحدّثني عن إنجازاته، وما التقيت بنائب أمة إلاّ وحدّثني عن الإصلاح ... وأخيراً ما تعثرت بفاسد إلاّ وحدثني عن القيم الأخلاقية. ورغم تلك الادعاءات فإنّي لم أر التّطور سائداً في المجتمعات العربية، ولا أدري لماذا؟! ربما لأنّ إكرام التّطور دفنه"(٢).

ويرى وليد أيضاً أنّ جلّ الفكر العربي الحديث أو الثّقافة العربيّة الحديثة يحتاج إلى إعادة نظر يقول: "كم عينٍ نحتاج لنرى، وكم أذن نحتاج لنسمع، وكم عقل نحتاج لندرك، إنّ جل ّالثّقافات العربيّة بحاجة إلى إعادة نظر"(٣).

وهذه الفكرة التي جرت أو أجراها قلم وليد من أعمق الأفكار وأجلها شأناً–في حدود مانعلم –لأنّ الثّقافة العربيّة الحديثة ثقافة مجتلبة تستند إلى ينابيع فكرية، وفلسفات مادية بحتة مباينة تماماً لما ورثناه عن آبائنا من فلسفة قائمة على التّقوى، وعلى الاطمئنان والرضى والتّسليم بما قدّره المبدع الحكيم.

(١) نفسه، ص ١١١.

(٢) نفسه، ١٢١.

(٣) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ١٢٣.

وفي الوقت الذي يصل فيه وليد إلى هذا الفكر المتوقد، لا يزال المثقفون المحدثون يتنباهون بما يختزنون من ثقافات مجتلبة ليس لهم حظ قليل أو كثير في إبداعها، وأحسن ما يوصفون به أنّهم نقلة بشرط أن يحسنوا النّقل. فالإصلاح والتّطور والنّجاح والإضافة العلمية جعجعة ولا نرى لها طِحْنا.

ويرقب وليد معابرة بعض الأحداث التّاريخية الحديثة المحزنة في تاريخنا المعاصر ويتسلسل في ذكرها. ففي "مذكرات عجوز "يصرّح وليد بأنّ والدته كانت تدعو لنصرة العباد في فلسطين حين كان طفلاً، ثمّ صارت تدعو لنصرة العباد في فلسطين، وأفغانستان عندما صار فتى يانعاً، ثم صارت تدعو لفلسطين، وأفغانستان، والشيشان حين صار شاباً، ثم صارت تدعو لفلسطين، وأفغانستان، والشيشان، والصومال، حين صار كهلاً، ولما توفيت والدته سمع خطيب المسجد يدعو لفلسطين، وأفغانستان، والشيشان، والصومال، والعراق، واليمن، وسوريا، وبورما، وليبيا، ومصر[١].

وما سقناه عن وليد دالٌّ دلالة قاطعة على أن ّالأمة في تراجع وانكسار، وذلّ يعقبه ذل من غير توقف. وإذا كان وليد أسيان أسفاً لهذا الواقع المرير، ويرمضه ويمضه أن يرى أمته وقد "كسر أنفها فلم يعد يشتم إلا رائحة الموت "[٢].

وأنّه لم يبق لنا "إلاّ كان وأخواتها، ولم يعد إلا ليت من شقيقاتها "[٣]، ذلك كلّه فإنّه لا يفقد الأمل في انبعاث القوة في هذه الأمة من جديد بما تملكه من كرم الجوهر، وأصالة المعدن، ودور الفكر، وكنوز المعرفة. يقول: "ما يطمئنني حقيقة هو أنني متأكد من أن ما نراه اليوم متفشياً في مجتمعاتنا العربيّة والإسلامية ليس إلا طفحاً كالطفح الذي يظهر على الجلد، وسرعان ما ينتهي وتزول آثاره زوالاً تاماً، لأنّ جوهر الإنسانيّة والأصالة الكامنة في النّفوس سيبقى مرتكزاً أساسيّاً يثري[٤] الفكر السليم،

(١) انظر معابرة، ذكريات خبيثة، ص ١٠١-١٠٢.

(٢) معابرة، ذكريات خبيثة، ص: ٥٠.

(٣) نفسه، ص:٨٦.

(٤) كذا ورد في الأصل، ولعلّ الصواب أن يقال: يغني، لأنّ أثرى فعل لازم معناه: صار ذا ثراء. انظر: الجر: خليل، المعجم العربي الحديث ص:٢٠.

ويرتقي بالنفوس إلى درجات عظيمة، ويطهرها من كل علق تعلق بها، وستبقى الأمة بحضارتها وقيمها ومثلها رمزاً سيسطّر الأمجاد المنتظرة بإذن الله تعالى"(١).

ووليد غير قانط ولكنّه متفائل من أنّ هذه الأمة مطوّية على خير كثير، وأنّها خير أمة أخرجت للنّاس "ومهما تداخلت في مجتمعاتنا الحضارات الغربية وتفشت واختلطت السلوكيات والأخلاق بعضها ببعض سيبقى هناك جاذبية تجذب أبناءنا وتلصقهم بأرضهم التي كانت ولا زالت محط الأنبياء والرسل الخالدين، ولن يقدر أحد على تدجينها وتغيير ملامحها وأصولها، وستبقى الأمة التي وصفها الله بأنّها خير أمة أخرجت للناس، وسيبقى فكرنا هو الفكر الخالد الواعي، وسيبقى تاريخنا شاهداً لنا وعلينا، وسيحكي للحاضر والمستقبل أمجاداً لن يطاولها كل شعوب الأرض"(٢).

والكلمة عند وليد "هي التي تربي الشعوب، وهي التي باستطاعتها تغيير منهج وأنماط التّفكير لدى أي شعب، ولدى أية أمة "(٣).

ووليد على معرفة طيبة بالتّاريخ الإسلامي من ذلك ما ذكره في مسألة مفاداة أسرى بدر، قال: إذا تعمقت في مسألة مفاداة أسرى معركة بدر وإصرار النّبي على تعليم القراءة للبشر مقابل حريتهم ستدرك أنّك أمام معادلة رياضية خالدة تقول: تعليم إنسان = حرية إنسان (٤).

"روى الإمام أحمد –رحمه الله– بإسناده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل النّبي صلى الله عليه وسلم فداءهم أنّ يعلموا أولاد الأنصار الكتابة"(٥).

---

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:١٤٢-١٤٣.

(٢) نفسه، ص:١٤٣.

(٣) نفسه، ص:١٤١.

(٤) نفسه، ص:٧.

(٥) أبو فارس، محمد عبد القادر، غزوة بدر الكبرى، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص:٩٧، وللمزيد من الفائدة فإنّ ثمة ثلاثة آراء في حكم الأسرى، رأي المسلمين وهو الرأي القائل بمفاداة الأسرى، ورأي يقول بعدم مفاداتهم والمنّ عليهم ويرى قتلهم جميعاً، ورأي يرى قتلهم حرقاً، انظر: أبو فارس، غزوة بدر الكبرى، ص:٩٠.

ومن معرفة وليد الطيبة بالتّاريخ قوله: "السبب الرئيس في أنّ العلم تقدم وعلا شأنه هو أنّه يأتي بالبراهين قبل الاعتقاد. أمّا فيما يحدث عند جلّ الفرق الإسلامية هو أنّهم يأخذون بالاعتقاد، ومن ثم يلفقون له البراهين[١].

ومن معرفة وليد التاريخية الطيبة ما ساقه عن عمر بن الخطاب الذي فرّق بين الحق والباطل[٢]. وعن علي بن أبي طالب الذي قال: "لا أريد أن يحرسني أحد من الناس، فأجلي هو الذي يحرسني"[٣]، وعثمان بن عفان الذي جهز جيش العسرة فقيل فيه: ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم "[٤].

البعد الأدبي واللغوي:

عبارة وليد معابرة عبارة حسنة، مستقيمة، رصينة، واضحة لا لبس ولا غموض فيها، معربة عن ذات صاحبها، تصطنع الأسلوب الساخر العميق الدلالة، ولها اتصال وثيق بالتّراث الأدبي العربيّ، وتنهل وتَعَلُّ من الجملة القرآنية، والجملة الحديثية، وتتكئ على الرمز الذي لا يقطع القواسم المشتركة بين المنشئ والمتلقي. ونقع في بعض الأحيان على مفردات ربما غابت عن ذهن المتخصصين من مثل قوله: فحفروا تحت مهدنا أنفاقاً كأنفاق الخُلْد "[٥] والخُلْد–بضم الخاء وفتحها– "الفأرة العمياء، وجمعها مناجذ على غير لفظ الواحد"[٦].

ويجعل وليد رأس مقالة له عجز شاهد نحوي هو: "فإنّ القول ما قالت حذامِ" [٧]، والشاهد بتمامه:[٨].

---

(١) معابرة، ذكريات خبيثة ،ص:١١٨

(٢) انظر، معابرة، ذكريات خبيثة، ص:١٠٠.

(٣) نفسه، ص:٩٩.

(٤) نفسه، ص: ١٠٠.

(٥) نفسه، ص: ٣٧.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، صورة عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والترجمة والنشر، ١٤٤/٤.

(٧) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٣٥.

(٨) انظر، الأنصاري، ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي ١٥٣/١٩٦٦،٣، وابن منظور، لسان العرب، ٨/١٥.

إذا قالـــــت حـــــذامِ فصـــــدّقوها فـــإنّ القـــول مـــا قالـــت حـــذامِ

ويلاحظ هنا أن وليداً ضبط "حذامِ" بالبناء على الكسر، وهو ضبط صحيح، وتفصيل القول في الشاهد أنّ أهل الحجاز يبنون "حذامِ" على الكسر. وأما بنو تميم فيمنعون صرفه، وذهب فريق منهم إلى التّفريق بين ما ختم بالراء كسفار، وبين ما لم يختم، فالمختوم بالراء يبنى على الكسر، وما لم يختم فهو ممنوع من الصرف [١].

ومما يثير الإعجاب أنّ وليداً وهو المهندس نسب الشاهد للجيم بن مصعب، وهو زوج حذام قال: غنّى لجيم بن مصعب فطنة زوجته حذام [٢].

وحذام هذه هي حذام بنت الريان زوج الشاعر، وقيل هي امرأة من عنزة، وأبوها العتيك بن أسلم وقيل هي الزّباء، وقيل غير ذلك [٣].

ولعلّ وليداً سها حين قال "مصعب" والصواب "صعب" أي لجيم بن صعب صاحب الشاهد على الأصح، وقيل الشاهد لديسم بن طارق [٤].

ويراوح وليد في رواية الشاهد وضبط حذام مراوحة البصير العارف يقول:

إذا مـــــا جـــــاءني رجـــــلٌ حُـــــذامُ فـــإنّ القـــول مـــا قالـــت حـــذامِ

فصدر البيت من صنعه وحُذام بضم الحاء الرجل لا خير فيه[٥].

وأما حَذام بفتح الحاء وكسر الميم فهو اسم امرأه يقال إنّها حذام بنت الريان زوج لجيم بن صعب، كما تقدم.

---

(١) انظر الأنصاري، ابن هشام، أوضح المسالك ،١٥١/٣، الأنصاري، ابن هشام وشرح شذور الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة التاسعة، مطبعة السعادة، ١٣٨٢ه-١٩٦٢م، ص: ٩٤-٩٦.

(٢) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٣٥.

(٣) الأنصاري، ابن هشام، أوضح المسالك حاشية ١٥١/٣، وشرح شذور الذهب ،٩٥، وابن عقيل شرح الألفية تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، حاشية ١ ص:١٦.

(٤) الأنصاري، ابن هشام، شرح شذور الذهب، حاشية ٩٥، وأوضح المسالك، حاشية ١٥١/٣، وابن عقيل شرح ابن عقيل حاشية حاشية ١٦/١، وابن منظور، لسان العرب، ٨/١٥.

(٥) انظر، ابن منظور، لسان العرب، ٧/١٥.

ولوليد معرفة لغوية ونحوية طيبة لا تتأتى لدى بعض المختصين في اللغة يسخرها على نحوٍ موفق في نقده السياسي أو الاجتماعي السافر. يقول: "في لغة العرب يبنى فعل الأمر على ما يجزم به مضارعه، أما في سياسة العرب فيبنى فعل الأمر على مدى رضا المفعول لأجله"(١) ويقول في موضع ثانٍ: "في الواقع اللغوي اللغة العربية لا تبدأ من عند ساكن، ولا تقف عند متحرك، أمّا في الواقع السياسي العربي فإنّ المتحركين يحيكون القرارات ليشقى بها الساكتون" (٢).

ويقول في موضعٍ ثالث: "لماذا أمسى فاعلنا اليوم يرفع بالكسرة"(٣)، ويقول في موضع رابع: "عندما أعيش المضارع، ألعن الحال، وحيثما تعرفت على الفاعل أجده مرفوعاً بالكسرة، وطالما وجدت المفعول به، أجده مظلوماً بالفتحة، ناديت الضمير ليعود من وعثاء سفره، فعرفت أنّه: لم يبق إلا كان من أخواتها، ولم يعد إلا ليت من شقيقاتها"(٤)

وهذا توظيفٌ من وليد لقواعد العربيّة عميق في خدمة غرضه الأساسي، وهو نقد واقعنا المتراجع في جميع الميادين.

ونقع في كتاب وليد "ذكريات خبيثة" على بعض الألفاظ العامية، كنا نحب أن ينأى عنها، وإن كنا نثق ثقة تامة في أنّ هذا البناء الإسلامي المتين الذي تمثله شخصية وليد معابرة، لا يمكن أن يتراخى في نصرة العربية، أو ينكص عن نصرتها، وأنّ ما ساقه من مفردات عامية أراد بها الإيغال في السخرية من واقعنا الهش المرير. مثل: "أيّها الأمريكيون: كلوا هوا"(٥).

وقوله: "أولاد زغار" يريد "أولاد صغار"، ونحن نعلم أنّ بعض العرب يجعل الصاد زاياً أو سيناً يقال: صقر، وسقر، وزقر، روى ذلك ابن جني عن الأصمعي(٦).

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٧٨.

(٢) نفسه، ص:١١٣.

(٣) نفسه، ص:١١٥.

(٤) نفسه، ص:٨٦.

(٥) نفسه، ص:١٣٤.

(٦) انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية ،١٣٧١هـ-١٩٥٢م،٣٧٤/١، وانظر السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ،٤٧١/١.

وقوله: "فيهاش ولا حرامي"(١) ولوليد معابرة معرفة بالأدب فهو يتذوقه ويوظفه كقوله: "فضحكنا ضحك طفلين معاً، وعدونا فطبخنا مقلوبة "(٢).

وبعض ما أورده مقتبس من بيت من قصيدة "الأطلال "للدكتور ابراهيم ناجي يقول البيت: فضحكنا

ضـــــــحك طفلـــــــين معـــــــاً وعـــــــدونا فســـــــبقنا ظلنـــــــا

هذه هي الأبعاد التي وقفنا عليها ونحن نقرأ كتاب وليد معابرة "ذكريات خبيثة "وقد صاغها قلمه بأسلوبٍ نقدي ساخر لا يرمي من ورائه إلى الشماتة أو الانتقاص من أقدار النّاس، ولكنّه يرمي إلى الإصلاح واستنهاض الهمم. يقول: "فاضطرني أن أنتقد الأوضاع الراهنة من خلال عين المحب لا عين الشامت، واضعاً رسالة الفساد نصب عيون القارئين، علّها تترك أثراً مباشراً يستفزُّ العقول ليحث على التقدم والوعي واستعادة القيم الاجتماعية والأخلاقية وغرسها في نفوس الأجيال القادمة، لعلمي الأكيد أن ّالكلمة هي التي تربي الشعوب، وهي التي باستطاعتها تغيير منهج وأنماط التفكير لدى أي شعب ولدى أية أمة"(٣).

خاتمة:

رصد البحث طائفة من الأفكار الإبداعية التي توصل إليها وليد معابرة في زمن الانقياد الذليل، وذوبان الشخصية، وكثافة الغبار والتربة التي رانت على العقل العربي المسلم.

وتجري هذه الأفكار على النّحو التالي:

١- وليد معابرة مفكرٌ عميق التفكير، ومثقف واسع الثقافة، ومتين الذهن، وناقد بصير يسبر أغوار المسائل ولبابها، ولا يقف عند أشكالها وقشورها إلاّ بالقدر الذي يعينه على تحقيق غايته.
٢- المنهج الذي آمن به وليد هو المنهج الإسلامي في تناول القضايا والأحداث سواءٌ أكانت قضايا سياسية، أم اجتماعية، أم فكرية، أم أدبية، ويتوسل إلى تثبيت منهجه بسخرية ظاهرة لا يرمي من ورائها إلى الشماتة ولكنه يرمي إلى الوقوف على مواطن العجز والقصور، واستنهاض الهمم للإصلاح الجاد المثمر.

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ص: ١١٦.
(٢) نفسه ،٩٤.
(٣) نفسه، ص: ١٤١.

٣- الفكرة التي يصفق لها آلاف الناس بل الملايين أساسها فكرة صادرة عن رجل واحد فلا يغتر الحصيف بكثرة عدد المصفقين.

٤- يمكن أن يتخذ التاريخ منطلقاً لصياغة نهضة جديدة فضلاً عما يتضمنه هذا التاريخ من دروس وعظات وعبر.

٥- وجوب الانخلاع من ربقة التقليد الأعمى للغرب، والحفاظ على الهوية الأصيلة من غير ذوبان أو فناء في الهويات الأخرى.

٦- إعادة النظر في الثقافة العربية المعاصرة، لأنّ فيها خللاً وخطراً وفساداً كبيراً.

٧- الأسلوب الساخر الذي اصطنعه وليد للتعبير به عن مكنون نفسه أسلوب إيجابي لا يريد من ورائه الشماتة، بل الوقوف على مواطن الفساد، والتذكير بوجوب الإصلاح الجاد المثمر.

٨- إنّ من عوامل تراجع المجتمع العربي وارتكاسه في الحمأة ما يشيع فيه من تناقض، وكذب، وفساد، وتناقض.

المراجع

القرآن الكريم.

الأنصاري، ابن هشام، (ت ٧٦١ه)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار إحياء التراث العربي بيروت –لبنان،١٩٦٦م.

الأنصاري، ابن هشام، (ت ٧٦١ه)، شرح شذور الذهب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة التاسعة، مطبعة السعادة، ١٣٨٢هـ–١٩٦٢م.

بدوي، عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣م.

بدوي، عبد الرحمن، المنطق الصوري والرياضي، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م.

البنعلي، أحمد بن حجر آل طامي، تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين، الطبعة الثالثة، الدوحة–قطر ،١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.

الجر، خليل، المعجم العربي الحديث، لاروس، باريس.

ابن جني، أبو الفتح عثمان، (ت ٣٩٢ه)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، ١٣٧١هـ–١٩٥٢م.

الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨١هـ–١٩٦١م

السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، (ت٩١١ه)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

الصنعاني، محمد بن اسماعيل، (ت١١٨٢ه) سبل السلام شرح بلوغ المرام، تحقيق حازم علي بهجت القاضي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت–لبنان ،١٤١٩هـ–١٩٩٨م.

صنوبر، ابراهيم محمود، من أحاديث رسول الله، عمان–الأردن ،١٩٦٧م.

عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار ومطابع دار الشعب، القاهرة.

العتوم، أيمن، هندسة الكلمات (مهندسون شعراء)، الطبعة الأولى، منشورات اللجنة الثقافية نقابة المهندسين الأردنيين، عمان –الأردن ،١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

ابن عقيل (ت ٧٦٩ه)، شرح ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

علاّم، محمد مهدي، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً، المجمعيون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، د.ت.

أبو فارس، محمد عبد القادر، غزوة بدر الكبرى، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، ١٤٠٢ هـ–١٩٨٢م.

معابره، وليد، ذكريات خبيثة، الطبعة الأولى، دار المشكاة للنشر والتوزيع،٢٠٢٠م

ابن منظور، (ت٧١١ه)، لسان العرب، صورة عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والترجمة والنشر.

ابن نبي ــمالك، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، الطبعة الثالثة، دار الفكر، ١٩٦٩م.

ابن نبي، مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر.

النووي، محي الدين، يحيى بن شرف، (ت ٦٧٦هـ)، رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرحسة، ١١٤٢هـ

وظيفة التنوين في أبنية الأسماء المُعربة: دراسة صوتية صرفية

د. جمال دليع العريني *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠١٩/١١/١٨م. تاريخ قبول البحث: ١٧/ ٦/٢٠٢٠م.

ملخص

تتناول هذه الدراسة التنوين في بنية الأسماء المعربة، من منظور صوتي صرفي، في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، بهدف الكشف عن وظيفته في النسيج المقطعي للأسماء المعربة صحيحة الآخر في أحواله الإعرابية الثلاث: الرفع، والنصب، والجر، ووظيفته في الاسم المنقوص المقترن بأل، والاسم المنقوص المضاف، وصلًا ووقفًا، و وظيفته في الاسم المقصور، في أحواله الإعرابية الثلاث، وبيّنت الدراسةُ أنَّ للتنوين وظيفةَ بنيوية تتمثَّل في الجمع بين ظاهرتين متناقضتين تتسم بهما اللغة العربية، وهما : المحافظة على حركات الإعراب، والميل إلى المقاطع الصوتية المغلقة؛ إذ نجده يلحق المقاطع الأخيرة للمفردات وصلًا، ويغادرها وقفًا، كما أنّه يساعد على الإسراع في الأداء النطقي في الكلام لأنّه لا يُكلِّف جهدًا صوتيًا خلافا لأصوات المد التي تستلزم نطقًا متأنيًّا .

الكلمات الدالة: التنوين، وظيفة، المقطع، الإعراب.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة البلقاء التطبيقية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

The Function Nunnation "Tanween" Over the Declinable Nouns (A Morpho-Phonetics Study)

Dr. Jamal Dolai Al-Orayni

Abstract

This study examines the function of Nunnation "Tanween" in the structure of the declinable nouns from a Morpho-phonetics perspective in the light of the modern linguistic studies.

The aim of the study is to investigate the function of Nunnation at the syllable structural level of the declinable nouns that end with consonants in its declination cases: Nominative، Accusative، and genitive. Beside the Nunnation function in the abbreviated noun determinates by either the article (al) or annexation in its declinational cases, the study shows that the Nunation has a structural function in combining two contradictory phenomenon that the Arabic language is known for which are keeping the declinational cases and tending to preferring the closed phonetic syllables. Moreover, the nunation helps to speed up the articulation process.

Keywords: Nunnation, function, syllable, declination

تمهيد:

يرى بعض اللغويين المحدثين أنَّه لا يمكن تفسير بعض القضايا الصرفية إلاّ على أساس صوتي[١] وأنَّ أي دراسة صرفية تهمل هذا المنهج لابد أن تصير إلى الإخفاق، وأنه لا وجود لعلم الصرف دون علم الأصوات على حد قول فيرث[٢]، وارتبطت الدراسات الصوتية العربية الحديثة ارتباطا وثيقًا بالدرس الصرفي، ولعلَّ من أبرزها الدراسات المتعلقة بالمقطع الصوتي، إذ استطاعت أن تُفسّر لنا بعض التغيرات التي تحدث في كثير من قضايا تصريف المفردة العربية، وتذهب الدراسات الصوتية الصرفية الحديثة إلى أنّ التغيرات التي تحدث في الكلمة مردها إلى إعادة تمحورها مع طبيعة النظام المقطعي، مما يلزم تعديلها وإعادة انتظامها وفقًا لطبيعة نظامها المقطعي[٣].

وانتظام بنية الكلمة وفق نسيجها المقطعي سمة في اللغات الإنسانية، فأيُّ لغة توصف بأنها نظام من العناصر المترابطة على المستوى الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي، وأنَّها شكل وليست مادة[٤]، وتمتلك عناصر بنية الكلمة وحدة داخليَّة تكفل بأن يكون كلُّ عنصر فيها جزءًا منها، ولا يستطيع المتكلم الفرد أن يغير في هذا النسيج، وإن كان هناك خرق تأباه اللغة، فسرعان ما تتم معالجته وفق أدوات النظام التي تمتلكها اللغةُ نفسُها، والبنية المقطعية شبكة من العلاقات ذات سمات خاصة، تربط عناصر الكلمة بحيث تبدو نسيجا موحَّدا، أمّا مقاطع اللغة العربية فإنها تنحصر في الأنماط الآتية[٥]:

١. المقطع القصير المفتوح: يبدأ بصامت وينتهي بحركة قصيرة، ورمزه (ص ح)، وهذا أكثر المقاطع شيوعا، ومنه يتشكل بناء الفعل الثلاثي: فَعَلَ، وفَعُلَ، وفَعِلَ، والمبني للمجهول فُعِلَ، كما أنه ينتشر في كثير من أبنية الأسماء.

٢. المقطع المتوسط المغلق: يبدأ بصامت، وينتهي بصامت، وبينهما حركة قصيرة، ورمزه (ص ح ص) وهو كسابقه في كثرة الشيوع، وقد يشكل المقطع الواحد منه كلمةً كاملة، مثل: كَمْ، ولَمْ.

---

(١) شاهين، عبد الصبور، **المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي**، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٨٠: ٩

(٢) بشر، كمال **علم اللغة العام الأصوات اللغوية**، مكتبة الشباب مصر :١٨٥

(٣) شاهين، **المنهج الصوتي للبنية العربية**: ٤٠

(٤) دي سوسير، فردينان، **محاضرات في الألسنية العامة**، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، جونية، ١٩٨٤، لبنان: ١٣٨ – ١٤٩ .

(٥) حجازي، محمود فهمي، **مدخل إلى علم اللغة**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة: ٨٠–٨١

٣. المقطع المتوسط المفتوح: يبدأ بصامت، وينتهي بصامت طويل، ورمزه (ص ح ح) مثل: ما، ولا ... وهو منتشر بكثرة كذلك.

٤. المقطع الطويل المغلق بصامت: يبدأ بصامت، وينتهي بصامت، وبينهما صائت طويل يشكل نواة المقطع، ورمزه (ص ح ح ص) وهو غير شائع في اللغة العربية، ولا يرد إلاّ في إحدى حالتين: الأولى عند الوقف، مثل: قالْ، سالْ، شامْ، والأخرى إذا كان الصامت الأخير منه مكررًا في بداية المقطع الذي يليه، أي إذا كان صامتًا مشدّدا نحو: شابَّة، الضالّين.

٥. المقطع الطويل المغلق بصامتين: يبدأ بصامت، وينتهي بصامتين بينهما صائت قصير يشكل نواة المقطع، ورمزه (ص ح ص ص) مثل: زُرتْ، بنتْ، أُخت...وهو قليل الانتشار.

٦. المقطع المديد المغلق بصامتين: يبدأ بصامت وينتهي بصامتين بينهما صائت طويل يشكل نواة المقطع، ورمزه (ص ح ح ص ص)، مثل: حادّ وجآنّ[١].

وقد انفرد تمام حسّان بذكر مقطع يتكوّن من حركة قصيرة بعدها صامت (ح ص) ويرى أنّه مقطع تشكيلي غير أصواتي في الكلمات المبدوءة بهمزة وصل، وذلك لأنّه يرى أنَّ همزة الوصل ما هي إلاَّ قنطرة للنطق بها[٢] خلافا لما هو مشهور من أنّ همزة الوصل صوت صامت متلوّ بحركة قصيرة.

الدراسات السابقة لظاهرة التنوين:

التنوين من المسائل اللغوية التي تناولها النحاة، وبخاصّة شُرَّاح الألفية، فقد جعلوه من العلامات المميِّزة للأسماء، وبيَّنوا الفرق بينه وبين النون الساكنة[٣]، ومع تفريق النحاة بينهما، وإشارة سيبويه إلى أنهما يخرجان من موضع واحد[٤]، وهي إشارة إلى أنّ سيبويه لا يعدّهما صوتا واحدًا، فإنَّ النحاة لم يغفلوا عن أنَّ التنوين من ناحية القيمة الصوتية هو في الحقيقة نون ساكنة زائدة، تلحق أواخر

(١) النوري، محمد جواد، **أصوات اللغة العربية**، منشورات جامعة القدس المفتوحة، الطبعة الأولى (١٩٩٦): ٢٣٩.

(٢) حسان، تمام، **مناهج البحث في اللغة**، مكتبة الأنجلو المصرية(١٩٩٠م): ١٤٤.

(٣) الجمل، حسام عبد، ظاهرة التنوين في العربية، **مجلة كلية التربية الأساسية**، جامعة بابل، العدد الثامن،٢٠١٢ م ص:٢٧

(٤) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قمبر (١٨٠ه/٧٩٦م): **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٣، عالم الكتب، ١٩٨٣م، المجلد ٢: ١٥٤ .

الكلمات[١] في حين أنَّ النون تأتي من الحروف الأصول للكلمة، في الأسماء والأفعال، والحروف، وتأتي حرفا زائدًا على أصول الكلمة في الصيغ الصرفية الاسمية، والفعلية، كما تسبق الفعل المضارع كواحدٍ من حروف المضارعة في صيغة نَفعَل.

ولعلَّ تصوّر علماء العربية القدماء للتنوين هو الذي دفعهم إلى إغفال ذكره عند وصفهم للأصوات المتوسطة، التي تقع بين الشديدة والرّخوة، فهي عند ابن عصفور يجمعها قولهم: لم يروِ عنا[٢] وعند ابن الجزري يجمعها قولهم: لن عمر[٣]، ويؤكد هذا الإغفالَ المتعمّدَ أنّهم لم يذكروا التنوين عندما تحدّثوا عن الحروف الفروع الزائدة على حروف الهجاء التي يؤخذ بها في القرآن الكريم، وفصيح الكلام، وذكروا من بينها النون الخفيفة أو التي يُقال لها الخفيَّة، وهي الساكنة في نحو: منْك و عنْك، التي تخرج من الخيشوم[٤]، فهي في لا تختلف عن النون المتحركة[٥]، من حيث أنّها صوت أنفي مجهور مرقق أغن مائع ذو وضوح سَمْعيّ، يتكوّن بإقفال مجرى الهواء في الفم عن طريق ارتفاع أسلة اللسان، واتصالها باللثة مع انخفاض في الحنك الليِّن وتذبذب في الأوتار الصوتية[٦].

أمَّا الدراسات اللغوية الحديثة، فقد تناولته من منظور تاريخيٍّ مرةً، ومنظور صوتي أخرى، ومن ذلك دراسة عوض الجهاوي "ظاهرة التنوين في اللغة العربية"[٧]، تناول فيها تعريف التنوين عند القدماء وعند علماء الأصوات المحدثين، وذكر أنواعه، ورأي بعض اللغويين في أصله، وصلته بعلم

(١) الأندلسي، أبو حيان، محمد بن يوسف، (٧٤٥ه / ١٣٤٤م) **ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب**، تحقيق د. رجب عثمان محمد، و د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨ه، ١٩٩٨م، المجلد٢: ٦٦٧

(٢) الإشبيلي، ابن عصفور، (٦٦٩ه/١٢٠٠م)، **الممتع في التصريف**، تحقيق فخر الدين قباوة، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، المجلد ٢: ٦٧٣.

(٣) ابن الجزري، محمد بن محمد (٨٣٣ه/١٤٢٩م)، **النشر في القراءات العشر**، مطبعة التوفيق، دمشق، الطبعة الأولى ١٣٤٥ه، وطبعة دار الكتب بيروت، لبنان، المجلد١: ٢٦٢

(٤) ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، (٦٤٣ه/١٢٤٦م)، **شرح المفصّل**، عالم الكتب، بيروت، لبنان، المجلد١٠: ١٢٦.

(٥) الخليل، عبد القادر مرعي، **المصطلح الصوتي عند علما العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر**، جامعة مؤتة، ١٤١٣ ه، ١٩٩٣م: ٤٩.

(٦) الشايب، فوزي حسن، **محاضرات في اللسانيات**، ١٩٩٩ط١، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن: ١٨٥.

(٧) الجهاوي، عوض مرسي، **ظاهرة التنوين في العربية**، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ١٩٨٢م. ١٩٨٢م.

الأصوات، والمظاهر الصوتية التي تطرأ على الكلمة بعد التنوين إذ يتم تغيير نسيجها المقطعي[١]، وتغيير موضع النبر منها[٢]، وهي دراسة تمسّك فيها برأي النحاة في أنَّ التنوين علامة للتنكير في المبنيات فقط[٣]، خلافًا لرأي إبراهيم مصطفى الذي يرى أنَّ التنوين علامة للتنكير في المبنيات والمعربات[٤]، وتابع برجستراسر في أنّ التنوين كان في الأصل علامة للتعريف، ثمَّ أصبح علامة للتنكير بعد أن أدت (أل) وظيفة التعريف[٥].

وقدّم غالب المطلبي دراسة بعنوان "ظاهرة التنوين في العربية، الأصول والوظيفة"[٦]، هدفت إلى إلى معرفة أصول التنوين في العربية، ووظيفته النحوية، وذلك من خلال تتبّع هذه الظاهرة في اللغات السّامية، وقد خلصت الدراسة إلى أنَّ التنوين كان موجودا على وجه التأكيد في لغتين ساميتين تمتازان بميزة الإعراب، وهما: اللغة الأكادية، والعربية الشمالية، وأنَّ وظيفته النحوية فيهما تتمثّل في كونه بديلا عن الإضافة[٧]، وأنّه "عنصر جوهريٌّ في البنية النحوية العربية يحتاج إلى تأمّل جديد يخرج به من النظر الفيلولوجي إلى النظر البنائي"[٨]، وأوصى في دراسته إلى الكشف عن العلاقة التي تربط بين بين التنوين والإعراب، والكشف عن وظيفته النحوية الإعرابية، وعدم الاكتفاء بوظيفته النحوية الدلالية المشهورة، وهي وظيفة التعريف والتنكير[٩]، وهذا يُعزّز فكرة الدراسة التي نحن بصددها.

وهناك دراسة قامت بها آمنة الزعبي بعنوان "ما نُسِي أصله من ظاهرتي التنوين والتمييم في اللغة العربية" وهي دراسة تاريخية مقارنة تناولت فيها ظاهرتي التنوين والتمييم، وخلصت فيها إلى ما هو مشهور في الدراسات التاريخية المقارنة، من أنَّ اللغة العربية كانت تستعمل التمييم، ثم تركته واستعملت التنوين، وأنَّ بعض الأنماط اللغوية لم تترك التمييم، إلاّ أنها نسيت أصل الميم الزائدة فيها،

---

(١) الجهاوي، عوض مرسي، **ظاهرة التنوين في العربية**: ٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤.

(٣) المصدر نفسه: ٨٩.

(٤) مصطفى، إبراهيم، **إحياء النحو**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م: ١٧٩ .

(٥) برجستراسر، ج، **التطور النحويّ للغة العربية**، مطبعة السماح، القاهرة، ١٩٢٩م: ٧٧-٧٨.

(٦) المطلبي، غالب، **ظاهرة التنوين في العربية، الأصول والوظيفة**، جرش للبحوث والدراسات، المجلد الثالث، العدد الثاني، ١٩٩٩م.

(٧) المصدر نفسه: ١١.

(٨) المصدر نفسه: ٢٤.

(٩) المصدر نفسه:١٤.

فتعاملت معها على أنَّها ميم أصلية، وليست زائدة ذات وظيفة صوتية أو دلالية، فأدخلت عليها التنوين[١].

ونشر حسام الجمل دراسته "ظاهرة التنوين في العربية"[٢]جمع فيها أشتات هذا الموضوع من مضانّ مختلفة، وذكر كثيرًا من أقوال النحاة القدماء والمحدثين، والمستشرقين، غير أنَّه قصر دراسته على صلة التنوين بالممنوع من الصرف، ولم يتطرق إلى صلة التنوين بغيره من الموضوعات اللغوية، كعلم الأصوات، والصرف، والقراءات، والنحو.

وخصّص سمير استيتية الفصل السابع من كتابه "علم الأصوات النحوي، ومقولات التكامل بين الأصوات، والنحو، والدلالة"[٣] للتنوين، وأطلق عليه مصطلح (المركَّب التنويني)، لأنّه لا يعدّه نونا ساكنة فقط، بل يعدّه نونا ساكنة مسبوقة بحركة[٤]، كما قال إبراهيم أنيس من قبل[٥]، وذكر أنّ موضع موضع نطق نون التنوين، وكل نون ساكنة ينتقل من اللثة إلى مواضع أُخرى في الحجرة الفموية: ما بين أسناني، وشفوي أسناني، وشفوي، وغاري، وطبقي، ولهوي، وأنّ الهيئة النطقية لنون التنوين تتغيَّر من الأنفية إلى الجانبية، وإلى الترديد، ونصف الحركة المؤنَّف[٦]، ويمضي في الحديث عن ثنائيات التنوين الوظيفية: التمكين وعدمه، والتعريف والتنكير، والحذف وعدمه[٧]، ثم يختم هذا الفصل بتحليل صوتيّ فيزيائي للتنوين، يستنتج منه، أنّ انخفاض الطاقة الصوتية للحركات الإعرابية الثلاث في المركبات التنوينية، عمّا هي عليه وهي منعزلة، يدلُّ دلالة واضحة على الوظيفة التي يؤديها التنوين، وهي تقليل الطاقة الصوتية للحركات الإعرابية في الأسماء التي تقبل التنوين[٨].

---

(١) الزعبي، آمنة، **ما نُسِي أصله من ظاهرتي التنوين والتمييم في اللغة العربية، دراسة تاريخية مقارنة**، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، العدد ٣٣(ملحق) ٢٠٠٦م: ٧٧٤.

(٢) الجمل، حسام عبد، **ظاهرة التنوين في العربية**، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد الثامن، ٢٠١٢.

(٣) استيتيّة، سمير شريف، **علم الأصوات النحوي، ومقولات التكامل بين الأصوات، والنحو، والدلالة**، دار وائل للنشر، للنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.

(٤) المصدر نفسه: ٦٢٦

(٥) أنيس، إبراهيم، **من أسرار اللغة**، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطابعة الثالثة، ١٩٦٦م: ٢٤٣

(٦) استيتيّة، سمير شريف، **علم الأصوات النحوي، ومقولات التكامل بين الأصوات، والنحو، والدلالة: ٦٤٢- ٦٥٨.**

(٧) المصدر السابق: ٦٥٩ - ٧٠٤.

(٨) المصدر السابق: ٧١٦.

أمّا هذه الدراسة فتحاول أن تبرز وظيفة التنوين في اللغة العربية كوسيلةٍ لتسريع الأداء النطقي، وأن تبرز وظيفته في نسيج البنية المقطعية للكلمة كعنصرٍ صوتي يحفظ حركات الإعراب، وهو ما لم تتطرَّق إليه أيّ من الدراسات السابقة.

أثر التنوين في تسريع الأداء النطقي:

لا تقتصر وظيفة التنوين في بنية الكلمة العربية على ما نصَّ عليه النحاة، من تمييز الاسم عن الفعل والحرف، والتفريق بين ما ينصرف من الأسماء وما لا ينصرف، وتمييز الأسماء المبنية النكرة عن الأسماء المعرفة(١)، والتعويض من الجمل المحذوفة المضاف إليها "إذ"، والأسماء الممنوعة من الصرف المعتلة الآخر، وتنوين المقابلة الذي يلحق ما جُمع بألف وتاء زائدتين(٢) .

بل إنَّ ما يقوم به التنوين يتجاوز ذلك إلى وظائف بنيوية في نسيج الكلمة ذاتها، وتركيبية على مستوى الجملة، وأخرى دلالية على مستوى النص، فقد ذكر سيبويه أنّ العرب إذا ترنّموا في أشعارهم فإنَّهم يُلحقون الألف والواو والياء ما يُنوّن وما لا يُنوَّن، لأنّهم يُريدون مدَّ الصوت، وإذا لم يُريدوا الترنّم أبدلوا مكان المَدة نونًا فيما يُنوّن وما لم يُنوّن(٣).

وسنحاول في هذا المبحث من الدراسة أن نبرز أثر التنوين في اللغة العربية كوسيلةٍ لتسريع الأداء النطقي، لأنّ التنوين يناسب السرعة في النطق، وهو ما تميل إليه القبائل العربية التي تسكن البادية(٤)، فهو لا يُكلِّف جهدًا صوتيًا، بخلاف حروف المدّ التي تستلزم نطقًا متأنيًا(٥)، وإن كانت هي الأخرى كما قال قطرب، قد جاءت عقب السكون ليعتدل الكلام فلا يُبطئون عند الإدراج(٦)، يقول امرؤ امرؤ القيس في وصف جواده:

---

(١) السيوطي، جلال الدين، (٩١١ه / ١٥٠٥ م)، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ه، ١٩٨٨م، المجلد ١: ١١٤.

(٢) ابن هشام، عبدالله جمال الدين يوسف (٧٦١ه/١٣٦٠م)، **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٩٧٩م، المجلد الأول:١٤.

(٣) سيبويه، **الكتاب**، المجلد الرابع: ٢٠٤-٢٠٧

(٤) أنيس، إبراهيم، **في اللهجات العربية**، الطبعة الثامنة، ١٩٩٢م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة:١٣٢

(٥) المطلبي، **لهجة تميم**: ٢٢٣.

(٦) الزجاجي أبو القاسم (ت ٣٣٧ ه)، **الإيضاح في علل النحو**، تحقيق د. مازن المبارك، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م، دار النفائس، بيروت :٦٩ –٧٠.

مِكَـــرٍّ مِفَـــرٍّ مُقبـــلٍ مُـــدبِرٍ معًـــا كَجُلمودِ صَخرٍ حَطّهُ السَّيلُ مِـــن عَـــلِ[١]

فنحن أمام خمس كلمات متعاقبة في الشطر الأول، تنتهي كلٌ منها بتنوين كسر في الكلمات الأربع الأولى، وتنوين فتح في كلمة (معًا)، بالإضافة إلى كلمة (صخرٍ) في الشطر الثاني، و في قوله:

عَظـــيمٌ طَويـــلٌ مُطمَـــئنٌ كَأنّـــهُ بأســفَلَ ذي مـــاوانَ سَـــرحةُ مَرقَـــبِ [٢]

توالى ثلاث كلمات، كلٌ منها بتنوين ضم، تصف هذا الحصان العظيم الطويل كأنه شجرة السَّرح في علوه وإشرافه، المطمئن الهادئ الذي لا ينفر من صاحبه حين يعتلي صهوته.

ويمضي امرؤ القيس في تصوير حركة حصانه حين يدرك طرائده ثانيًا من عِنانه، أي بدون إجهاد في الجري، وهو ما نستشفّه من لفظة (فأدركهنّ) لأنّ الدَّرْك والإدراك يعني: اللحوق بسرعةٍ[٣] وسرعة عدو حصانه تشبه سرعة المطر المُتحلّب من السماء:

فـــأدرَكَهنّ ثانيًـــا مـــن عِنانِـــه يَمـــرُّ كَمَـــرّ الـــرائحِ المُتَحَلِّـــبِ[٤]

ثم يعرض لنا مشهدا آخر من رحلة صيده مستخدما التنوين في أربع كلمات، ليبيّن لنا كيف ترك صيده: من حمارٍ وحشيٍّ، وظليمٍ، وثورٍ، وتيسِ الوعل، تركها صرعى كجذوع الشجر اليابس (الهشيم)، وهي صورة تستدعي من الذهن تصوير القرآن الكريم لقوم عاد بعد أن أرسل الله عليهم ريح العذاب "فَتَرى القَومَ فيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أعجازُ نَخلٍ خاوِيَةٍ"[٥]:

فَغادَرَ صَـــرعى مِـــن حمـــارٍ وخاضـــبٍ وتـــيسٍ وثـــورٍ كالهشـــيمةِ قَرْهَـــبِ[٦]

(١) امرؤ القيس، **ديوان امرئ القيس وملحقاته**، شرح أبي سعيد السكري، تحقيق، د. أنور أبو سويلم، ود. محمد الشوابكة، إصـدار مركز زايـد للتراث والتاريخ، دولـة الإمـارات العربية المتحدة، العين، الطبعة الأولى،٢٠٠٠م: ٢٤٧.

(٢) امرؤ القيس، **ديوان امرئ القيس وملحقاته**: ٣٧٨

(٣) الزبيدي، محمد بن محمد (١٢٠٥هـ/١٧٩٠)، **تاج العروس**، مادة (درك)

(٤) امرؤ القيس، **ديوان امرئ القيس وملحقاته**: ٣٩٦.

(٥) سورة الحاقّة: ٧

(٦) امرؤ القيس، **ديوان امرئ القيس وملحقاته**: ٣٩٧.

فقراءةُ الأبيات تُظهر أثر نطق التنوين في إلصاق تلك الصفات بهذا الحصان المتمرِّس في السباق، الذي لا يُسبق في الكرة إذا كرَّ، ولا في الفَرار إذا فَرّ، وإنَّ حركة الكرِّ والفرِّ تحدثان في وقت معًا من شدة سرعته، فهو كجلمود صخرٍ متدحرجٍ تدفعه قوتان: السيلُ الجارف، والانحدارُ من أعلى إلى أسفل.

و يعرض لنا الشاعر في معلّقته صورة واضحة ودقيقة، لهذا الجواد بعلوّه وإشرافه وهدوئه، و سرعة حركته التي مكنته من أن يُدرك صيده ثم يصرعه، وهذا المقطع التصويري يتطلب سرعةً في الأداء النطقي؛ ليحدث الانسجام التام بين الصورة الذهنية للمشهد، والمنطوق اللفظي الذي يرسمها، وهذا الغرض يحققه التنوين على أكمل وجه، ويتجلَّى كمال ذلك في توالي الأسماء المتعاطفة، وهو يستخدم متواليات تركيبية تمثل قدرته على تمكنه من اللغة يسوقها حيث شاء وكماء شاء، تمامًا كما يمتلك حصانَه؛ يقوده فيستجيب له كرًّا وفرّا، و هذا الاتساق بين اللفظ والمعنى سيكون له وقع في نفس المتلقي.

ولا يخفى ما لتدفق هذه الصور بحركة سريعة من دَوْر في تحقيق الانسجام والتماسك، وقد كان لتكرار التنوين أثر كبير في تحقيق ذلك، فقد كشف التحليل الصوتيّ الفيزيائي للتنوين أنّ انخفاض الطاقة الصوتية للحركات الإعرابية الثلاث في المركبات التنوينية، عمّا هي عليه وهي منعزلة، يدلُّ دلالة واضحة على الوظيفة التي يؤديها التنوين، وهي تقليل الطاقة الصوتية للحركات الإعرابية في الأسماء التي تقبل التنوين[١]، الأمر الذي يؤثر في تسريع الأداء النطقي، زيادة على أنّ إعادة اللفظ يسهم في وحدة النص وتماسكه كما يرى (دي بوجراند)[٢].

فتكرار وحدة معجمية بعينها في النص يسهم في حسن سبكه ونظمه، وذلك من خلال تدعيم جُمَله بتحقيق العلائق المتبادلة بين العناصر المكونة للنص[٣]، و التنوين في هذا النص من أبرز الروابط التي تُمتّن مكوِّناته بعضها ببعض، وتسهم في تحقيق الانسجام التام بين توالي الصور الذهنية المتسارعة للمشهد، وتسارع المنطوق اللفظي الذي يرسمها، ولا سيّما أنَّ تكرار التنوين في الأسماء يؤدي إلى كثرة استخدام الحجرة الأنفية، وهذا يجعل الكلام متوافقا مع العملية التنفسية، بسبب مراوحة خروج

(١) استيتيّة، سمير شريف، **علم الأصوات النحوي، ومقولات التكامل بين الأصوات، والنحو، والدلالة:** ٧١٦.

(٢) دي بو جراند، **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط٢، ٢٠٠٧: ص٣٠٣

(٣) النجار، نادية رمضان، **علم لغة النص والأسلوب بين النظر والتطبيق**، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، مصر، ٢٠١٣م، ص: ٥٦.

تيار الهواء بين الحُجرتين الأنفية (مع التنوين، والنون) والفموية مع غيرهما [١]، وباتصافه بالاستمرارية؛ لأنه صوت أنفي ، فهذا يعني أنّ الاستمرار فيه لا يُكلِّف جهداً صوتياً في إنتاجه [٢] ولعلّ هذا يُفسِّر لنا كثرة انتشاره في بنية الكلمة العربية.

أثر التنوين في المحافظة على علامات الإعراب:

سنحاول في هذا المبحث من الدراسة أن نبرز أثر التنوين في نسيج البنية المقطعية للكلمة كعنصرٍ صوتي يحافظ على حركات الإعراب؛ لما لها من وظائف دلالية في السياق، وأُخرى بنيوية ترتبط بعناصر الجملة الأخرى، مما يستدعي الحفاظ عليها، فاللغة العربية لغة مُعربة منذ أقدم عهودها، خلافا لرأي بعض المستشرقين، الذين توهّموا أنَّ الإعراب من صنع النحاة [٣]، والكلمة العربية تتكوَّن من مقطع صوتي واحد أو أكثر، وهذه المقاطع يتصل بعضها ببعض، ولا تكاد تنفصم في أثناء النطق، "بل تظل واضحة في السمع، وتميل اللغة العربية إجمالاً إلى المقاطع المغلقة رغم أنها تشتمل على النوعين: المفتوح والمغلق"[٤].

والمحافظة على الحركات الإعرابية، والميل إلى المقاطع المغلقة ظاهرتان متناقضتان؛ لأنَّ الظاهرة الأولى تتطلب أن يكون المقطع الأخير من الكلمة مفتوحا، وهذا نقيض للثانية، وللجمع بينهما جاءت اللغة بالتنوين، وهو صوت صامت لا يُكلِّف نطقُه جهداً، لتغلق به المقطع الأخير، وتبقي على الحركات الإعرابية في الوقت نفسه، ويتجلىّ لنا هذا الأمر بوضوح في أبنية الأسماء المعربة:

وظيفة التنوين في بنية الأسماء المنصرفة صحيحة الآخر:

يُقسِّم الصرفيون الأسماء المعربة إلى قسمين: أحدها ما تمكّن في الاسمية، وهذا تلحقه الحركات الإعرابية الثلاث، ويلحقه التنوين، ويسمَّى المُنصرف، والآخر ما أشبه الفعل بعلل فرعية، وهذا يلحقه من الحركات الضمة والفتحة دون الكسرة، ولا يلحقه التنوين، وهو الذي يُسمّى غير المنصرف[٥]، والأصل أن يلحق التنوين الأسماءَ المنصرفة وصلًا ووقفًا، إلاَّ أنّه لحقها وصلًا ولم يلحقها وقفًا لعلة

(١) استيتيّة، سمير شريف، **علم الأصوات النحوي، ومقولات التكامل بين الأصوات، والنحو، والدلالة:** ٦٢٧-٦٢٨

(٢) المطلبي، غالب، **لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة:** ٢٢٣

(٣) وافي، علي عبد الواحد، **فقه اللغة**، الطبعة السادسة، ١٩٦٨، لجنة البيان العربي: ٢٠٩

(٤) بركة، بسام، **علم الأصوات العام، أصوات اللغة العربية**، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان:٩٨

(٥) الصيمري، **التبصرة والتذكرة**، تحقيق د. فتحي أحمد مصطفى عليٌّ الدين، منشورات جامعة أم القرى، ١٩٨٢م، الطبعة الأولى: ٨١، ٨٢

تتعلق بطبيعة المقطع، وسنقف عند وظيفة التنوين في بنية الأسماء المنصرفة صحيحة الآخر في الأحوال الإعرابية الثلاث: الرفع، والنصب، والجر.

وظيفة التنوين في بنية الأسماء المنصرفة صحيحة الآخر في حالة الرفع:

تميل اللغة العربية في آخر الكلمات إلى المقاطع المغلقة(١)، وفي الوقت نفسه تسعى للمحافظة على الحركات الإعرابية، وللجمع بين المحافظة على الإعراب، والميل إلى المقاطع المغلقة فقد جاءت اللغة بالتنوين، وهو صوت صامت لتغلق به المقطع الأخير، ويؤيِّد هذا أنَّ التنوين يلحق المقطع الأخير للكلمة في حالة الوصل فقط، فجملة: جاء زيدٌ تتكوَّن من أربعة مقاطع، الأخير منها مغلق بالتنوين هكذا: /جا/ء َ / ز َيْ/ د ُنْ/ : /ص ح ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/.

أمّا في الوقف، فإنَّ التنوين يغادر المقطع الأخير منها؛ لعدم الحاجة إليه، وذلك لإنَّ الوقف يتطلب السكون، أي الخلو من الحركة الإعرابية، و"حركات الإعراب في العربية الفصحى تسقط عند الوقف حتى إذا كانت متبوعة بالتنوين ما عدا في حالة النصب"(٢) لكره اللغة العربية للمقاطع المفتوحة في أواخر الكلمات(٣)، وبمغادرة التنوين والحركة تصبح الجملة: جاءَ زيدْ مكوّنة من ثلاثة مقاطع، الأخير منها مغلق بصامت غير التنوين ، هكذا: /جا /ء َ/ز َيْ دْ/ : /ص ح ح/ ص ح/ ص ح ص ص/ .

وظيفة التنوين في بنية الأسماء المنصرفة صحيحة الآخر في حالة الجر:

وما حصل في حالة الرفع ينسحب بحذافيره في حالة الجر وصلاً، فجملة: مَرَرْتُ بزيدٍ تتكوّن من ستة مقاطع الأخير منها مغلق بالتنوين: /م َ/ ر َ رْ/ت ُ/ ب ِ/ ز َيْ/ د ِ نْ/ : /ص ح/ ص ح ص /ص ح/ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/.

وفي الوقف، يُحذف التنوين من المقطع الأخير للسبب نفسه في حالة الرفع، فنقول: مررتُ بزيدْ، فتتكوّن الجملة من خمسة مقاطع بعد حذف التنوين، ويُغلق المقطع الأخير بصامت غير التنوين:/ م َ/ ر َ رْ/ ت ُ / ب ِ / ز َ يْ دْ/: /ص ح/ ص ح ص /ص ح/ص ح/ ص ح ص ص/ .

---

(١) عبدالتواب، رمضان، **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م مكتبة الخانجي، القاهرة: ٢٥٧.

(٢) كانتينو، جان، **دروس في علم أصوات العربية**، ترجمة صالح القرمادي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، ١٩٦٦ م: ١٨٨.

(٣) عبدالتواب، **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي** : ٢٥٧.

ولا يختلف الأمر إذا كان الاسم منتهيًا بتاء التأنيث، ففي الوصل يعود التنوين، ويقوم بوظيفته تمامًا كما في الأسماء التي تخلو من تاء التأنيث، فجملة: تلك مدرسةٌ... تتكوّن من ستة مقاطع، الأخير منها مغلق بالتنوين: / تِ لْ / كَ / مَ دْ / رَ / سَ / تُ نْ /: / ص ح ص /ص ح/ص ح ص /ص ح / ص ح/ ص ح ص /.

وفي الوقف تُحذف حركة الإعراب والتنوين معًا، وكذلك التاء تُحذف تخفيفًا واقتصادًا في الجهد، فيبقى المقطع الأخير من الكلمة مفتوحًا بحركة قصيرة ، وهذا النمط من المقاطع تكرهه العربية في أواخر الكلمات وقفًا ووصلًا، فتلجأ إلى إغلاقه بهاء السكت ، وهي في الحقيقة امتداد للنفس بما قبلها من صوت لين قصير(الفتحة)، فيُخيَّل للسامع أنّها تنتهي بالهاء[١] كما في جملة تلك مدرسَهْ: / تِ لْ/ كَ / مَ دْ / رَ / سَ هْ /: / ص ح ص /ص ح/ص ح ص /ص ح / ص ح ص / وتصبح الجملة مكوّنة من خمسة مقاطع بدلاً من ستة، ومثل هذا يحدث في حالة الجر كذلك.

وقد سلكت بعض اللهجات العربية منحًى آخر في حالة الوقف، إذ اكتفت بحذف حركة الإعراب، وحذف التنوين تبعًا لذلك، مع الإبقاء على التاء، فيقولون: هذا طلحتْ، وعليه السلام والرحمت[٢] يُريدون هذا طلحة، وعليه السلام والرحمة، ويقولون: شجرتْ، وجُحفتْ، يريدون شجرة وجُحفة[٣] تماماً كما في الأسماء المنصرفة التي لم يلحقها التأنيث، إذ يُصبح المقطع الأخير فيها مغلقًا بصامت غير التنوين.

ويُعزّزُ هذا أنَّ الكلمات المبنية على السكون نحو: كمْ ومَنْ، لا يكون معها وجه من وجوه الوقف، بل نقف عليها بالسكون الذي بُنيت عليه [٤] ولا يلحقه التنوين في الوصل لأنَّ المقطع الأخير في هذه الكلمات وأمثالها مغلق أصلًا.

---

(١) أنيس، **في اللهجات العربية**: ١٣٦، وعبد الصبور شاهين، **القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث**، مكتبة الخانجي القاهرة: ٨٣.

(٢) ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢ه/١٠٠٢م)، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق د. حسن هنداوي، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، دار القلم، دمشق، المجلد الأول: ١٥٩.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٦.

(٤) الاستراباذي، محمد بن الحسن الرضي (٦٨٦ه/١٢٨٧م) **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق محمد نور الحسن، ومحمد الزفاق، ومحمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م، بيروت، لبنان، المجلد الثاني: ٢٧٢،٢٧٣.

وظيفة التنوين في بنية الأسماء المنصرفة صحيحة الآخر في حالة النصب:

في حالة النصب فإنَّ الأمر يتكرر بتمامه في الوصل، إذ يلحق التنوينُ المقطعَ الأخير فيغلقه مع الإبقاء على حركة الإعراب، مثل: رأيت زيدًا... حيث تتكوَّن الجملة من خمسة مقاطع: / ر َ / أ َ يْ/ ت ُ / ز َ يْ/ د َ نْ/ : /ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ص ح ص/ ص ح ص/ .

لكن في الوقف الأمر مختلف، لأنَّ المقطع الأخير يتحوّل فيها من مقطع مغلق بالتنوين، إلى مقطع مفتوح بحركة طويلة، مع الإبقاء على عدد المقاطع نفسها، كما في جملة: رأيتُ زيدا: / ر َ / أ َ يْ / ت ُ / ز َ يْ/ د ا/ : /ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ص ح ص/ ص ح ح /.

ويرجع السبب في عدم حذف حركة الإعراب في حالة النصب لخفة النطق بالفتحة، فهي وسط بين الضمة والكسرة، ثمّ إنّها عندما تُمطل وتتحوّل إلى حركة طويلة تمثِّل عنصر استقرار في الصيغة[١]، وقد ذكر سيبويه أنّ " الفتحة أخف عليهم من الضمة والكسرة، كما أنَّ الألف أخفُّ عليهم من الياء والواو"[٢] ولذلك يحذفون الكسرة في فَخِذٍ والضمة في عَضُدٍ، فيقولون: فَخْذٌ، وعَضْدٌ، ولا يفعلون هذا في جَمَلٍ، فلا يقولون جَمْلٌ[٣] .

وقد سلكت بعض القبائل العربية مسلكًا آخر في حالة الوقف، فقد روى سيبويه عن الخليل، أنَّ بعض قبائل العرب تقف على المنوّن في حالة النصب بالهمزة، فيقولون: رأيت رجلأ[٤] و"الميل لنسج خاص من المقاطع قد يكون سببًا في اختلاف لهجات اللغة الواحدة"[٥] ، وفسَّر عبدالصبور شاهين هذه الظاهرة بقوله: " إنَّ الهمزة اجتُلِبت لمجرّد الوقوف عليها هربًا من الوقوف على الألف، أي على المقطع المفتوح"[٦] وهذا يؤكد فكرة الدراسة التي نحن بصددها، فالهمزة هنا تقوم بوظيفة التنوين الذي يجتلبونه للغاية نفسها، وهي الهروب من الوقوف على المقاطع المفتوحة.

---

(١) البكوش، الطيب، **التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث**، مكتبة لسان العرب، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م: ٥٧.

(٢) سيبويه، **الكتاب**، المجلد الرابع: ١٦٧.

(٣) سيبويه، **الكتاب**، المجلد الرابع: ١٨٨.

(٤) سيبويه، **الكتاب**، المجلد الرابع: ١٧٦ .

(٥) أنيس، إبراهيم، **في اللهجات العربية** :١٤٩.

(٦) شاهين، عبدالصبور، **القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث**: ٨٥.

ولعلَّ ظاهرة الهمز هي إحدى ظواهر جنوح العربية إلى إقفال المقاطع المفتوحة، نحو: العألم، وحُبلأ، بدلًا من العالم، وحُبلى، وهذا الرأي يُفسِّر لنا زيادة هاء السكت على أواخر الأفعال، والأسماء، والأدوات التي لا يجوز سقوط الحركة من أواخرها في الوقف، وذلك نحو: رَهوعِه، ولم يرَه، وسلطانيهْ، فالغرض من هاء السكت إقفال المقاطع المفتوحة في نهاية الكلمة.

وظيفة التنوين في بنية الاسم المنقوص:

الأسماء المنصرفة منها ما آخره حرف صحيح، ومنها ما آخره حرف علة، وهي: المقصور والمنقوص، ويضيف بعضهم إليها الأسماء الستة[١] ويُطلق مصطلح المنقوص عند سيبويه وابن السراج على المقصور[٢]، وعند ابن الحاجب على أبنية الكلمات المعتلة اللام، سواء أكانت اسمًا أم فعلًا[٣]، ثم اقتصرت دلالته عند المحدثين على الاسم المعرب الذي آخره ياء لازمة غير مشددة قبلها كسرة، مثل : القاضِي، والمحامِي، والرامِي[٤] وبهذا ليس من المنقوص عند المحدثين الأسماء المبنية مثل: الذي والتي، ولا الأفعال، مثل: رضيَ وقويَ، ولا الأسماء الستة في حالة الجر، ولا الاسم المعرب الذي آخره ياءٌ ساكنٌ ما قبلها، مثل: ظَبْي، ورَمْي، وهَدْي.

والمنقوص تُحذفُ ياؤه في حالتي الرفع والجر إذا لم يكن مضافًا أو مقترنًا بأل، أمّا في حالة النصب فإنها تبقى، وحذف الياء في الاسم المنقوص، أو بقاؤها ظاهرة لغوية ترتبط ارتباطًا وثيقا بانتظام بنية الكلمة مع طبيعة النظام المقطعي، وهذا الأمر يتضح لنا في كل أحوال الاسم المنقوص الآتية:

وظيفة التنوين في بنية الاسم المنقوص في حالة الرفع مع الاقتران بأل:

في هذه الحالة من المفترض أنَّ ياء الاسم المنقوص، وهي شبه حركة، قد وقعت بين حركتين: الكسرة حركة بناء (حركة العين في وزن الفاعِل)، والضمة حركة إعراب، فمثلا كلمة المحامي تتكوّن

---

(١) الصيمري، **التبصرة والتذكرة:** ٨٤.

(٢) سيبويه، الكتاب، المجلد الثالث: ٣٨٦، ٣٩٠، ٣٩١، وابن السراج، محمد بن سهل، **الأصول في النحو**، تحقيق عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة – بيروت، المجلد الثاني: ٣١٥ –٣١٦

(٣) الاستراباذي، **شرح شافية ابن الحاجب**، المجلد الأول: ٣٤

(٤) الحملاوي، أحمد، **شذا العرف في فن الصرف**، المكتبة العلمية الفلكية، بيروت، لبنان: ٩٠، والمراغي، أحمد، ومحمد سالم علي، **تهذيب التوضيح**، الطبعة التاسعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الجزء الثاني: ١٠٥، والراجحي، عبده، **التطبيق الصرفي**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م: ١١٠.

من أربعة مقاطع، وهي في الأصل المُفترض تتكوَّن من خمسة مقاطع (المحامِيُ): /أَ ل/ م ُ/ ح ا/ م ِ/ ي ُ/: /ص ح ص/ص ح/ص ح ح/ص ح/ص ح/ وهذا التتابع في الأصل المفترض بين: حركة الكسر التي تسبق الياء، والياء وهي شبه حركة، وحركة الإعراب الضمة التي تتلوها مستثقلٌ ويؤدي إلى سقوط الياء هكذا: /أَ ل/ م ُ/ ح ا / م ِ/ ـ ُ/، وسبب سقوط الياء هنا أنّها صوت انزلاقي يسهل إسقاطه عندما يكون محصورًا بين حركتين متماثلتين في الارتفاع (الكسرة صوت أمامي علوي، والضمة صوت خلفي علوي)[١]، والحركة التي أدَّت إلى سقوط الياء هي حركة الإعراب التي تليها(الضمة رفعا)، لأنَّ الحركة السابقة لها جزءٌ من مقطع سابق مستقل عمّا يليه، بينما حركة الإعراب تكوّن قمة المقطع المتُضمِّن للياء[٢]، ولربما أنَّ الضمة قد أُدغمت في الكسرة ثم مُطلت الكسرة، وقد لوحظ "أنَّ الضمَّة هي التي تُدغم دائمًا في الكسرة، سواء أكانت الأولى أم الثانية "[٣] إلاّ " إذا كانت إحدى الحركتين طويلة فإنها تتغلّب في الإدغام ولو كانت الضمة نحو (بقوا)"[٤] فهي قبل سقوط الياء(بقِيوا) .

وبعد سقوط الياء تماثل الضمةُ الكسرة َالتي قبلها مماثلة كلية، فيلتقي كسرتان تشكلان كسرة طويلة في نهاية المقطع الأخير للاسم المنقوص، كما في كلمة (المحامي) التي أصبحت تتكوّن من أربعة مقاطع بدلا من خمسة، الأخير منها مفتوح منتهٍ بحركة طويلة: /أ َ ل/م ُ/حا/مي/ :/ص ح ص/ص ح/ص ح ح/ص ح ح/ وهو نمط من المقاطع مقبول في بداية الكلمة، وفي وسطها، وفي آخرها، وصلًا ووقفا.

وظيفة التنوين في بناء الاسم المنقوص في حالة الرفع والإضافة:

إضافة الاسم المنقوص إمّا أن تكون إلى اسم غير معرَّف بأل مثل: محامي زيدٍ، التي تتكوَّن في الوصل من خمسة مقاطع: / م ُ/ حا/ مي/ ز َ ي/ د ِ ن/ : /ص ح/ص ح ح /ص ح ح/ص ح ص/ص ح ص/ وهي سلسلة من المقاطع الصوتية التي يكثر انتشارها في العربية، والمقطع الأخير من الاسم المنقوص(وهو المقطع الثالث) مقطع مفتوح بحركة طويلة، ليس عليه في اللغة قيد في حشو الكلام؛ أمّا عند إضافته إلى اسم مُقترنٍ بأل مثل: محامي القضية فإنّ القدماء من النحاة قد عدّوا ذلك

(١) استيتية، سمير شريف، **علم الأصوات النحوي، ومقولات التكامل بين الأصوات، والنحو، والدلالة:**٦٦٥-٦٦٦.

(٢) البكوش، **التصريف العربي في ضوء علم اللغة الحديث:** ٦١.

(٣) البكوش، **التصريف العربي في ضوء علم اللغة الحديث:** ٦٢.

(٤) المصدر السابق: ٦٤.

من الحالات النادرة، التي يجوز فيها التقاء الساكنين في العربية في وصل الكلام، وبيّنوا أنه "لا يكون في الأصل إلا في حرف لين مع مدغم متصل"[١] ويرى القدماء أنَّ علة منع التقاء الساكنين في العربية يعود إلى أنَّ "الحرف الساكن كالموقوف عليه، وما بعده كالمبدوء به، ومحال الابتداء بساكن، فلذلك امتنع التقاؤهما"[٢]، وأنَّ المد هنا جاء عوضًا عن الحركة، وحلَّ محلَّها، ولذا جاز التقاء الساكنين في هذا الموضع[٣] كما ظنّ القدماء.

ويبدو أنَّ النحاة القدماء قد وقعوا في توهّم بنوا عليه استنتاجًا غير دقيق، وهو أنّ التقاء الساكنين يأتي في العربية في وصل الكلام بشروط ذكروها في كتبهم، وتابعهم في ذلك بعض اللغويين العرب المحدثين[٤]، وسبب هذا الوهم عندهم أنّهم يعدون" أصوات الحركة ساكنةً، والأصل في هذه الأصوات أنها حركات تساعد على انطلاق الأصوات الحبيسة من مخارجها، فالصوت الساكن في الحقيقة هو الصوت الحبيس ذو المخرج"[٥].

وقد رأينا أنّ ياء المنقوص كسرة طويلة تشكلت بعد سقوط يائه الأصلية، وعند إضافته إلى المقترن بأل تتحوّل الكسرة الطويلة إلى كسرة قصيرة في النطق، لتنتظم بنية الكلمة مع طبيعة المقطع العربي، مثل: القاضي الفاضل، التي تُنطق /القاضِلْفاضِل/ فتتكوّن من خمسة مقاطع: /أ لْ / قا/ ضِ ل/ فا/ ضِ لْ/: /ص ح ص/ ص ح ح/ص ح ص/ص ح ح/ص ح ص/، ومثل: في البيت حيث تُنطق/ فِلْبَيت /[٦] مكوّنةً من مقطعين: /فِ لْ/ بَ يْ تْ/: /ص ح ص/ ص ح ص ص/، وبتقصير الحركة الطويلة ينتظم نسيج البنية مع طبيعة النظام المقطعي في اللغة العربية، وذلك تجنّبًا للمقطع الطويل المفرد الأغلاق /ص ح ح ص/ الذي لا تقبله العربية في وصل الكلام إلاّ إذا كان الصامت الأخير منه أحد متماثلين، وكان المتماثلان أصليين في الكلمة كما في دابّة /د ا بْ/ بَ هْ/: /ص ح ح

(١) السيوطي، جلال الدين، (٩١١ه/١٥٠٥م) **همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العربية**، منشورات الرضي ومنشورات زاهدي، قم، إيران، المجلد الأول: ١٩٨.

(٢) ابن يعيش، **شرح المفصل**: ١٢٠

(٣) المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٦ه/٨٩٩م)، **المقتضب**، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، لجنة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية ،١٣٩٩ه، المجلد الأول: ١٦١، وابن يعيش، **شرح المفصّل**، المجلد التاسع: ١٢٢

(٤) السامرائي، **التطور اللغوي التاريخي**، دار الأندلس، الطبعة الثانية ١٩٨١م: ٧٣.

(٥) حلمي، باكزة، الثنائية والميزان الصرفي في اللغات العربية في الجزيرة العربية، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد الثاني، المجلد الأول، ١٩٧٨: ٦٥

(٦) عبده، داود، **أبحاث في اللغة**، مكتبة لبنان، بيروت،١٩٧٣م: ٤٣.

ص/ص ح ص/ عند الوقف عليها بالهاء[١]، وفي هذا اقتصاد واضح دفع المتكلم الفصيح إلى خيار همزة الوصل، سعيًا إلى انتظام بنية المفردة مع طبيعة المقطع العربي.

وظيفة التنوين في بنية الاسم المنقوص في حالة الوقف:

ومن مظاهر انتظام بنية الكلمة مع طبيعة المقطع العربي عند الوقف حذف الياء بتعبير القدماء، أو تقصير الحركة الطويلة بتعبير المحدثين، وهي ظاهرة لغوية تأتي في إطار انتظام بنية الكلمة مع طبيعة النظام المقطعي، الذي يميل إلى التخلص من الحركة الطويلة الواقعة في المقطع الأخير من الكلمة، سواء أكان ذلك المقطع موقوفًا عليه أو غير موقوفٍ عليه، ففي حالة الوقف يتم التخلص من الحركة كاملة، كما في قوله تعالى: "فاقضِ ما أنت قاضٍ"[٢]، وذلك لأنَّ اللغة تميل إلى المقاطع المغلقة بشكل عام، وفي الوقف تلتزم بذلك تماما، فنحو كلمة (قاضِي) التي تتكوّن من مقطعين مفتوحين بحركتين طويلتين: / قا / ضِي/ : /ص ح ح/ص ح ح/ تصير عند الوقف مكوّنة من مقطع واحد مُغلق /قاضْ/ : / ص ح ح ص/ في حالتي الجر والرفع، وذلك انتظاما مع طبيعة المقطع العربي.

أمّا في حالة الوصل، فإنَّ الكسرة الطويلة التي تشكَّلت بعد سقوط الياء الأصلية تصبح حركة قصيرة، و يُجتلب التنوين ليُغلق المقطع الأخير، انتظامًا مع ميل العربية إلى المقاطع المغلقة، وتجنب المقاطع المفتوحة في أواخر الكلمات، فيقال في حالتي الرفع والجر المجردتين من أل والإضافة: هذا ساعٍ، ومررت بساعٍ، مكوّنة من مقطعين: /سا/ ع ِ ن / : / ص ح ح/ ص ح ص/ الأخير منهما مُغلق بصامت(التنوين) وهو النسيج المقطعي الذي تميل إليه اللغة، فقد جاء في آي الذكر الحكيم: (والفَجرِ، وليالٍ عَشرٍ)[٣].

ويعزز هذا أنَّ القياس في الأفعال المنقوصة ثبوتُ يائها، وألاّ يعتريها الحذفُ في الوقف ما لم تكن مجزومة، وكذلك الاسم المنقوص المعرّف بأل، ولكنها في الفواصل من القرآن الحكيم، والقوافي في الشعر يعتريها الحذف، قال سيبويه: "وجميع ما لا يُحذف في الكلام، وما يُختار فيه أن لا يُحذف، يُحذف في الفواصل والقوافي، فالفواصل قوله عزّ وجلّ: (والليلِ إذا يَسرِ)[٤]، وقوله تعالى: (قال ذلك

(١) بشر، د. كمال، **دراسات في علم اللغة**، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م :١١٠.

(٢) سورة **طه**، آية: ٧٢.

(٣) سورة **الفجر**: ١- ٢.

(٤) سورة **الفجر**: ٤.

ما كنا نبغِ)[١]، (ويومَ التنادِ)[٢]، (والكبيرُ المُتعالِ)[٣]، والأسماءُ أجدر أن تُحذف، إذ كان الحذف فيها غير الفواصل والقوافي" [٤].

وظيفة التنوين في بنية الاسم المقصور:

المقصور في اصطلاح الصرفيين، ما كان آخره ألفًا لازمة، من الأسماء المُعربة المتمكنة مثل: العصا، والرَّحى[٥]، والقياسي منه كلُّ اسم آخره ألفٌ وله نظيرٌ من الأسماء الصحيحة، وأن يكون قبل آخر نظيره فتحة، وأمثلة ذلك: المعتلُّ اللام من أسماء المفاعيل من غير الثلاثي المجرّد، نحو مُعطًى ومُشترًى، لأنَّ نظيره من الصحيح مفتوح ما قبلَ الآخر مثل: مُكرَم و مُشترَك.

وكذلك أسماء الزمان والمكان، من مُعتلّ اللام مما قياسُه مَفعَل ومُفعَل، نحو: مَغْزًى ومُلهًى، لأنَّ نظيره من الصحيح مفتوح ما قبلَ الآخر، مثل: مَقتَل ومُخرَج، والمصدر من فَعِل مُعتلّ اللام الذي الوصف منه على أفعَل، أو فَعْلان، أو فَعِل بشرط أن يكون مفتوحَ الفاءِ والعين، كالعَشى، والطَّوى، والصّدى، لأنَّ نظائرها: الحَول، والعَطش، وكلّ ما كان على وزن فِعَل جمعُ فِعْلة، مثل: فِرًى جمع فِرية، وفُعَل جمع فُعْلَة مثل: مُدًى جمع مُدْية، فإنَّ نظيرها من الصحيح قِرَب جمع قِربَة، وكُرَب جمع كُربَة [٦].

وقد يلحق التنوينُ المقصورَ مثل: فتًى وعصًا، وقد لا يلحقه مثل: حُبلى، وبُهمى وجَمَزى، ولعّل السبب في ذلك يعود إلى وظيفة التنوين في المقطع العربي، إذ تميل اللغة العربية في آخر الكلمات إلى المقاطع المغلقة[٧]، ووظيفة التنوين هنا هي إغلاق المقطع الأخير تجنبًا للمقطع المفتوح في أواخر الكلمات، ففي حالات الرفع والجر والنصب تُقدّر الحركات الإعرابية على الاسم المقصور، سواء أكان منوّنًا أو غير منوّن، ففي التنوين نقول : هذا فتًى، ومررت بفتًى، و رأيتُ فتًى ، مكوّنًا من مقطعين: /فَ / تَ ن / : /ص ح/ ص ح ص/ الأخير منهما مُغلق بصامت(التنوين) وهو النسيج المقطعي الذي تميل إليه اللغة، ولهذا نجد أنَّ الهمزة تُبدل من الألف باطّراد في الوقف، نحو قولهم في "حُبلى" و

(١) سورة **الكهف**: ٦٤.

(٢) سورة **غافر**: ٣٢.

(٣) سورة **الرعد**: ٩.

(٤) سيبويه، **الكتاب** المجلد الرابع: ١٨٤، ١٨٥.

(٥) الاستراباذي، **شرح شافية ابن الحاجب**، المجلد ٢: ٣٢٤،٣٢٦.

(٦) الحملاوي، **شذا العَرْف في فن الصرف**: ٩٠،٩١.

(٧) عبدالتواب، **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**: ٢٥٧.

"موسى" و "رأيت رجلا": "حُبلأ" و"موسأ" و "رأيت رجلأ"[١] وفي اللهجات الدارجة في العصر الحديث تُنطق" لا " النافية " لَأ " فتتحوّل من مقطع مفتوح / ص ح ح / إلى مقطع مغلق/ ص ح ص/ .

ومثل هذا ما رواه سيبويه عن الخليل، أنَّ بعض قبائل العرب تقف على المنوّن في حالة النصب بالهمزة، فيقولون: رأيت رجلأ [٢]، وفسَّره عبدالصبور شاهين بقوله: "إنَّ الهمزة اجتُلِبت لمجرّد الوقوف عليها هرباً من الوقوف على الألف، أي على المقطع المفتوح"[٣] لأن المقطع الأخير في الاسم المقصور مفتوح بحركة طويلة، تمامًا كما المقطع الأخير في الاسم المنصوب الموقوف عليه .

وأمّا في المقصور المُعرَّف بأل، الذي لا يلحقه التنوين، نحو: الفتى: /أ ل/ ف َ /ت ى/:/ص ح ص/ص ح ح/؛ فإنَّ المقطع الأخير فيه مفتوح بحركة طويلة، وهذا لا ضير فيه، وذلك لخفة النطق بالفتحة، فهي وسط بين الضمة والكسرة، ثمّ إنّها عندما تُمطل وتتحوّل إلى حركة طويلة تمثِّل عنصر استقرار في الصيغة[٤]، وسبق أن ذكرنا قول سيبويه: "الفتحة أخف عليهم من الضمة والكسرة، والكسرة، كما أنَّ الألف أخفُّ عليهم من الياء والواو"[٥]، ولذلك يحذفون الكسرة في فَخِذٍ والضمة في عَضُدٍ، فيقولون: فَخْذٌ، وعَضْدٌ، ولا يفعلون هذا في جَمَلٍ، فلا يقولون جَمْلٌ[٦] .

وفي المقصور الذي لا يلحقه التنوين عند الإضافة، نحو: فتى العائلة: التي تُنطق/ فَتَلْعائلَه/ تتكوّن من خمسة مقاطع: / ف َ / ت َ ل / ع ا/ ء ِ/ ل َ ه ْ/: /ص ح / ص ح ص/ص ح ح/ ص ح/ص ح ص /، وبتقصير الحركة الطويلة في المقطع الثاني، ينتظم نسيج بنية المقصور عند إضافته إلى المُعرَّف بأل مع طبيعة النظام المقطعي في اللغة ، وذلك تجنّبًا للمقطع الطويل المغلق بصامت: /ص ح ح ص/ الذي لا تقبله العربية في وصل الكلام، إلاّ إذا كان الصامت الأخير منه أحد متماثلين، وكان المتماثلان أصليين في الكلمة نحو دابّة /د ا بْ/ ب َ ه ْ/ : /ص ح ح ص/ص ح ص/ عند الوقف عليها بالهاء[٧].

---

(١) الإشبيلي، ابن عصفور، **الممتع في التصريف**، المجلد الأول: ٣٢٥.

(٢) سيبويه، **الكتاب**، المجلد الرابع: ١٧٦.

(٣) شاهين، **القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث**،: ٨٥.

(٤) البكوش، **التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث**، : ٥٧.

(٥) سيبوبه، **الكتاب**، المجلد الرابع: ١٦٧.

(٦) سيبويه، **الكتاب**، المجلد الرابع: ١٨٨.

(٧) بشر، د. كمال، **دراسات في علم اللغة**، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م :١١٠.

ونخلص من هذا إلى أنَّ اللغة تميل أحياناً في المقصور إلى التنوين لخدمة المقطع، و أنّ الهمزة تُبدل فيه من الألف في بعض اللهجات للغاية نفسها، و أنّه أحياناً أخرى لا ينوّن، ولا تُبدل الهمزة فيه من الألف لعدم حاجة المقطع لذلك.

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج أبرزها:

١. بيَّنت الدراسة أنَّ التنوين في اللغة العربية يأتي أداة لتسريع الأداء النطقي الذي تميل إليه القبائل العربية التي تسكن البادية، لأنه لا يُكلِّف جهدًا صوتيًا، بخلاف حروف المدّ التي تستلزم نطقًا متأنيًا.

٢. كشفت الدراسة أن للتنوين وظيفته في نسيج البنية المقطعية للكلمة كعنصرٍ صوتي يحفظ حركات الإعراب؛ لأنَّ اللغة العربية لغة معربة، ولحركات الإعراب وظيفة دلالية في السياق، وبنيوية ترتبط بعناصر الجملة الأخرى، مما يستدعي الحفاظ عليها، ويبرز هذا بوضوح في بنية الأسماء المنصرفة صحيحة الآخر، في أحواله الإعرابية الثلاث: الرفع، والنصب، والجر، وفي بنية الاسم المنقوص المقترن بأل والمجرَّد منها، وصلاً ووقفا، وفي بنية الاسم المقصور كذلك.

٣. بينت الدراسة أنّ اللغة جاءت بالتنوين للجمع بين المحافظة على حركات الإعراب، والميل إلى المقاطع المغلقة.

٤. أظهرت الدراسة أنّ اللغة استخدمت وسائل أخرى للقيام بوظيفة التنوين نفسها، مثل: الهمز، وهاء السكت.

المراجع

الأستراباذي، محمد بن الحسن الرضي (٦٨٦ه/١٢٨٧م) شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد نور الحسن، ومحمد الزقاق، ومحمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م، بيروت، لبنان.

الإشبيلي، ابن عصفور، الممتع في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب، تحقيق د. رجب عثمان محمد، و د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨ه، ١٩٩٨م

أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية، الطبعة الثامنة، ١٩٩٢م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

بشر، كمال علم اللغة العام الأصوات اللغوية، مكتبة الشباب مصر.

برجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، مكتبة السماح، ١٩٢٩م.

بركة، بسام، علم الأصوات العام، أصوات اللغة العربية، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان.

بشر، د. كمال، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

البكوش، الطيب، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، مكتبة لسان العرب، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢.

ابن الجزري، محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، مطبعة التوفيق، دمشق، الطبعة الأولى ١٣٤٥ه، وطبعة دار الكتب بيروت لبنان.

الجمل، حسام عبد، ظاهرة التنوين في العربية، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد الثامن،٢٠١٢م.

ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، تحقيق د. حسن هنداوي، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، دار القلم، دمشق.

الجهاوي، عوض مرسي، ظاهرة التنوين في العربية، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ١٩٨٢م.

حجازي، محمود فهمي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.

حسّان، تمّام، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية(١٩٩٠م).

حلمي، باكزة، الثنائية والميزان الصرفي في اللغات العربية في الجزيرة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد الثاني، المجلد الأول، ١٩٧٨

الحملاوي، أحمد، شذا العرف في فن الصرف، المكتبة العلمية الفلكية، بيروت، لبنان.

الخليل، عبد القادر مرعي، المصطلح الصوتي عند علما العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر، جامعة مؤتة، ١٤١٣ ه، ١٩٩٣م.

دي بو جراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط٢، ٢٠٠٧م.

دي سوسير، فردينان، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، جونية لبنان(١٩٨٤).

ديوان امرئ القيس وملحقاته، شرح أبي سعيد السكري، تحقيق، د. أنور أبو سويلم، ود. محمد الشوابكة، إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ، دولة الإمارات العربية المتحدة، العين، الطبعة الأولى،٢٠٠٠م.

الراجحي، عبده، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

الزجاجي، أبو القاسم (ت ٣٣٧ ه)، الإيضاح في علل النحو، تحقيق د. مازن المبارك، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م، دار النفائس، بيروت.

الزعبي، آمنة، ما نُسِي أصله من ظاهرتي التنوين والتمييم في اللغة العربية، دراسة تاريخية مقارنة، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، العدد ٣٣(ملحق) ٢٠٠٦م

السامرائي، التطور اللغوي التاريخي، الطبعة الثانية ١٩٨١م، دار الأندلس، بيروت.

ابن السراج، محمد بن سهل، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة – بيروت.

استيتيّة، سمير شريف، علم الأصوات النحوي، ومقولات التكامل بين الأصوات والنحو والدلالة، دار وائل للنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٢م

سيبويه، عمرو بن عثمان بن قمبر: الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٣، عالم الكتب،١٩٨٣م.

السيوطي، جلال الدين، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ه، ١٩٨٨م.

الشايب، فوزي حسن، محاضرات في اللسانيات، ٩٩ط١، منشورات وزارة الثقافة،١٩ عمان، الأردن.

شاهين، عبدالصبور، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة الخانجي القاهرة.

شاهين، عبد الصبور (١٩٨٠) المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الصيمري، عبدالله بن محمد بن إسحاق، التبصرة والتذكرة، الطبعة الأولى، تحقيق د. فتحي أحمد مصطفى عليٌّ الدين، منشورات جامعة أم القرى، ١٩٨٢م.

عبدالتواب، رمضان، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م مكتبة الخانجي، القاهرة.

عبده، داود، أبحاث في اللغة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣م.

كانتينو، جان، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، ١٩٦٦ م.

المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، لجنة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ه.

المراغي، أحمد، ومحمد سالم علي، تهذيب التوضيح، الطبعة التاسعة، ١٣٩٩ه المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

مصطفى، إبراهيم، إحياء النحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م

المطلبي، غالب، لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨م.

المطلبي، غالب، ظاهرة التنوين في العربية، الأصول والوظيفة، جرش للبحوث والدراسات، المجلد الثالث، العدد الثاني، ١٩٩٩م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ه.

النجار، نادية رمضان، علم لغة النص والأسلوب بين النظر والتطبيق، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، مصر، ٢٠١٣م.

الجمل، حسام عبد، ظاهرة التنوين في العربية، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد الثامن، ٢٠١٢ م.

النوري، محمد جواد، أصوات اللغة العربية، منشورات جامعة القدس المفتوحة، الطبعة الأولى (١٩٩٦).

ابن هشام، عبدالله جمال الدين يوسف، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٩٧٩م.

وافي، علي عبد الواحد، فقه اللغة، الطبعة السادسة، ١٩٦٨، لجنة البيان العربي.

ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

التوجيْهُ الدّلاليّ لِنَماذجَ مِنِ الانْزِياحِ اللغويّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

د.باسم يونس البديرات*

تاريخ تقديم البحث: ٢٠١٩/١١/١١م. تاريخ قبول البحث:٢٠٢٠/٦/١٧م.

ملخص

أصبحتْ الدّلالةُ في اللغةِ تُدرَسُ ضِمنَ علمٍ خَاصٍ يُسمّى عِلمَ الدّلالةِ، وهو علم يَختصُّ بدراسةِ معاني العباراتِ والتّراكيبِ في سِياقاتِها المختلفة، وإنْ كانَ عِلمُ الدّلالة يُدرس في اللغةِ ضِمْن أحد مستوياتها المتعددة إلا أنّه يُعدُّ الأهمَ منْ بيْنِها جميعا، حتّى أَصْبحَ يُمثّل قمّةَ المستوياتِ اللغويّةِ في الدّرسِ اللغويّ الحديثِ، فلأجله يُبحثُ المستوى الصّوتي والصّرفي والنّحوي والمعجمي؛ إذْ هُوَ غايةُ المعْنى، ومُنْتهى العبارةِ الّتيْ يَسْعى إليها المُتكلِّم. مِنْ هُنا هدفتْ الدِّراسةُ الكَشْفَ الدلالي لنماذجَ مِنْ الانزياحِ اللُغويّ في بعضِ تَراكيْبِ القرآنِ الكريمِ مِنْ خِلالِ الإجَابةِ عن السؤالين الآتيين:

- إلى أي حدٍّ راعى التَّحليلُ النَّحويُّ القَديمُ الأبْعادَ الدّلاليّةَ في التّراكيبِ اللغويّةِ؟
- ما الأبعادُ الدّلاليّةُ التي حقّقها الانزياحُ اللغويُّ في القُرآنِ الكريم؟

وخَلصتْ الدراسةُ مِنْ خِلالِ الرَّبطِ بينَ بعضِ هذهِ التّراكيبِ الانزياحيّةِ والسّياقاتِ التي وَردتْ فيْها إلى جمُلةٍ مِن النّتائج مِنْها: أنَّ الانزياحَ اللغويَّ في القُرآنِ الكريمِ يُعَدُّ مَلْمحًا أسلوبيًا ثريًّا يَرْتبَطُ بالبعد الدّلالي للتركيبِ اللغويّ بِصُورةٍ تَتنَاسبُ والسياق، وقَدْ اتّخذَتْ الدِّراسةُ مِن الوصفِ والتّحليلِ مَنْهجًا لها، وذلك مِنْ خِلالِ الوقوفِ على بَعضِ نمَاذجِ الانزياحِ اللغويِّ وبَيانِ البُعدِ الدّلاليّ الّذي تَقْصدُهُ.

الكلِماتُ الدّالة: الانزياح، القياس، المُطابقة، الدّلالة، التّعاور، الاستعمال.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

Semantic Investigation for Models of Linguistic Shift in the Holy Quran

Dr. Basem Younes Al-bderat

Abstract

The study of meaning has become a well-established language science called semantics; a science specialized in studying the meanings of phrases and structures in different contexts. Although semantics is studied among other multiple levels of language, it has become the most significant of them all in modern linguistics. As for the purpose of studying meaning, we study the phonological, morphological, syntactic, and lexical levels of language. Hence, the study aimed to detect the semantic models of linguistic shift in some of the structures of the Holy Quran by answering the following questions:

1. To what extent does the old grammatical analysis take into account the semantic dimensions of the linguistic structures?
2 - What semantic dimensions are achieved by the linguistic shift in the Holy Quran?

By linking some of these shift structures and the contexts in which they were presented, the study concluded that linguistic shift in the Holy Quran is a rich methodological feature linked to the semantic dimension of linguistic composition in a manner appropriate to the context. The study used the descriptive and analytical approach by examining some of the models of linguistic shift and indicating the semantic dimension that it means.

Keywords: linguistic shift, analogy, conformity, meaning, co-ordination, use.

مقدمة:

يعدّ الانزياح اللغويّ في الدرس الحديث فعلا مقصودا بذاته يحقق من خلاله الأديب أدبيّته وتميّزه ومقدرته على التلاعب اللغويّ، ويجذب متلقيّه لمتابعة العمل وشّده إليه؛ بما يتضمنه من أبعاد دلاليّة وإيحائيّة تثير الدهشة والمفاجأة(١). وعندها يمكن القول إنّ الانزياح يُعدّ خرقا لغويّا واعيا يشحن النّص اللغوي بطاقة أسلوبيّة ذات طابع جمالي تُحْدِثُ تأثيرا وجذبا، "وهذا الجذب يفرض نفسه على القارئ أو السامع، ليتفكّر في سببه، وما يُفضي إليه من دلالة على حسب قصد المُنتِج الذي لا بدّ من أن يكون بينه وبين المتلقّي أيا كان تواصل إخباري ليتمكّن من تَبيُن مُراد المتكلِّم مستعينا بوسائل متعددة داخل النّص أو خارجه"(٢). فالانزياح إذاً ظاهرة أسلوبيّة ذات بُعد دلالي تُسهم في تكوين النصوص، والمساعدة على فهمها وتذوقها وإدراك المعاني المُضمّنة التي تتجاوز حدود اللغة الظاهرة.

وقد تتبعتْ هذه الدراسة مجموعة من الانزياحات اللغويّة في القرآن الكريم لكشف الجوانب الدّلالية التي حققتها. وقد جاءت هذه الدراسة بمبحثين وعدّة مطالب تناولت فيها أهمية الانزياح اللغوي وما يُفضي إليه من أبعاد دلاليّة من خلال النظرة المعمّقة للتراكيب اللغوية، ومدى مراعاة التحليل اللغوي العربي القديم للجانب الدلالي، وتحليل بعض نماذج الانزياح اللغويّ لبعض التّراكيب القرآنيّة التي تحقق هدف الدراسة؛ إذ ليس من اليسير الإحاطة بجميع أوجه الانزياح اللغويّ في القرآن الكريم في دراسة واحدة.

وهناك دراسات أخرى تناولت جوانب من هذا الموضوع، تركزت في مجملها حول الالتفات في القرآن الكريم، وبيان وجوه الإعجاز البياني في بعض مواطنه(٣)، أو عدّ هذا الانزياح من ملح كلام العرب(٤)، أو من باب جذب الانتباه إلى بؤرة محورية في التركيب اللغوي(٥)، أو أنّه ذو وظائف

(١) ربابعة، موسى، "**الانحراف مصطلحا نقديا**"، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، جامعة مؤتة، المجلد العاشر، (١٩٩٥م)، العدد الرابع، ص٦٠.

(٢) الحموز، عبد الفتاح، **اللسان العربي الفصيح والمعنى**، دار جرير، الأردن، ط١، (٢٠١٣م)، ص٧.

(٣) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، (ت٧٤٥هـ/ ٣٩٢م)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، (د.ت)، ج٣/ ص٣٤١- ٣١٥.

(٤) ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين، (ت٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)، **مغني اللبيب**، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب، (د.ن)، (د.ت)، ج٦/ ص٦٦٠.

(٥) يُنظر: الحموز، **انزياح اللسان العربي الفصيح والمعنى**، مقدمة الكتاب.

أسلوبية وجماليّة تُحدث تأثيرا خاصّا في المتلقي[1]. أو ما جاء منها بصورة مُتفرّقة في كتب النحو أو التفاسير بطريقة قد تصعب على القارىء تتبعها. ولعل ما يميّز هذه الدراسة عن غيرها المنهج التحليلي القائم على الربط بين الانزياح اللغوي والفصيح من كلام العرب بصورة تتجاوز مجرّد البحث عن مبررات أو مسوغات نحويّة للانزياح، بل الربط بين هذه الانزياحات والبعد الدلالي الذي ترمي إليه.

المبحث الأول: البعد الدلالي في التحليل اللغوي القديم

تنقسم المعاني في اللغة إلى أنواع متعددة، وهي المعنى الصوتي الذي ينشأ من إبدال صوت مكان آخر، أو تغيير حركة أحيانا مكان حركة أخرى وهو ما يُعرف بالفونيم، بالإضافة إلى النبر والتنغيم. وتتجاوز المعاني في اللغة أصوات الألفاظ لتقدّم الصيغة الصرفية دورا بارزا في ذلك، وهو ما يُعرف بالدلالة الصرفيّة[2]، فأي تحوّل في الصيغة الصرفية يؤدي إلى تغيير في محتوى الدّلالة، فكلّ زيادة في المبنى يقابلها زيادة في المعنى، وقد جعل ابن جنّي الدلالة الصرفية أقوى من المعنوية، من قِبَل أنّها وإنْ لم تكن لفظا، فإنّها صورة يحملها اللفظ ويخرج عليها ويستقرّ على المثال المعتزم بها[3]. وهذه الزوائد الصرفية هي ما يُعرف عند المحدثين بالمورفيم، وهو أصغر وحدة في بنية الكلمة تحمل معنى أو وظيفة نحويّة. والمعنى النحوي، بمعنى موقع الكلمة في التركيب اللغوي من حيث الفاعليّة، والمفعوليّة، والإضافة وغيرها، ويرتكز هذا المعنى على فكرة العامل والمعمول ارتكازا كبيرا.

والمعنى المعجمي، وهو المعنى المرتبط بالمفردة عند سماعها. والمعنى الدّلالي الذي لا يتكوّن من ألفاظ مفردة فحسب، وإنّما من أحداث كلاميّة، أو من امتدادات نطقيّة تكوّن جملاً تتحدد معالمها؛ لأنّ الكلمات ما هي إلاّ جزئيات يَبني منها المُتكلّم كلامه، ولا يُمكن اعتبار كل منها حدثا كلاميا مستقلا قائما بذاته[4]. ومعنى ما سبق أن الجمل والتراكيب تتحد ضمن نسق لغوي معيّن، فتُشكِّل معنًى يتجاوز حدود الكلمات مفردة، وهو المعنى الكلّي للتركيب، أي الدلالة التي يسعى المتكلّم إلى إيصالها إلى السامع، وربّما تُوَظَّف المعاني الأخرى خدمة لها، بمعنى أن الدلالة قد أصبحتْ عِلْما يختصّ بدراسة

(١) الخرشة، أحمد غالب، **أسلوبيّة الانزياح في النّصّ القرآني**، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، (٢٠٠٨م)، ص١.

(٢) عمران، حمدي بخيت، **علم الدلالة بين النظرية والتطبيق**، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١، (٢٠٠٧)، ص٢٨.

(٣) أبو الفتح، عثمان ابن جني، (ت٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م)، **الخصائص**، تحقيق: محمد النجار، دار الكتب العلميّة، مصر، (د.ت)، ج٣/ ٩٨.

(٤) عمر، أحمد مختار، **علم الدلالة**، عالم الكتب، القاهرة، (٢٠٠٩)، ص٦-١٢.

معاني العبارات والتراكيب في سياقاتها المختلفة، وإن عُدّت الدلالة أحد فروع علم اللغة إلا أنّ يعدّ الأهم من بينها جميعا، حتى أصبح يمثّل قمّة المستويات اللغوية في الدّرس اللغوي الحديث، فلأجله يُبحث المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي؛ إذ هو غاية المعنى، ومنتهى العبارة التي يسعى إليها المتكلون"(١).

ومن الإنصاف القول إنّ علماء العربية القدماء قد تنبّهوا إلى أهمية المعنى بصورة خاصّة في كلام العرب، وعلى رأسهم سيبويه، إذ يقول: "وليس شيء مما يُضطرّون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجها"(٢). وكذلك الحال عند ابن جني فقد عقد في كتابه الخصائص للمسألة غير باب منها: (باب في تجاذب المعاني والإعراب)، حيث يقول: "تجد في كثير من المنثور والمنظوم الإعراب والمعنى متجاذبين، هذا يدعوك إلى أمر، وهذا يمنعك منه، فمتى اعتورا كلاما ما أمسكت بعروة المعنى، وارتحت لتصحيح الإعراب"(٣). وعقد بابًا آخر بعنوان:(باب في التفسير على المعنى دون اللفظ)(٤)، فصّل فيه المسألة حين التجاذب بين الألفاظ والمعاني.

فالنحاة كانوا يحتكمون إلى أثر المعنى في انزياح اللسان العربي عن النظام اللغوي أو الاستعمال الدارج، إلا أنّ مُجمل ما جاء في حديثهم عن الانحراف أو الانزياح يتمثّل في خروج اللغة عن المألوف أو عماّ يتوقعه المتكلّم(٥)، إذ اقتصر عملهم في كثير من جوانبه على التأويل النحوي. فالمتمعّن بالتحليل النحوي القديم، أو منهجه يُدرك مدى تركيز النحاة القدماء في بحثهم اللغوي على المعنى النحوي بصورة تفوق المعنى الدّلالي، سواء في دراسة التراكيب اللغوية الموافقة للاستعمال أو الخارجة عن المألوف، مما جعل بحثهم اللغوي يخدم الإعراب وتقديراته بصورة تفوق المعنى الأسمى، وهو المعنى الدلالي. ولعلّ ما سبق يرتبط ارتباطا وثيقا بالمنهج اللغوي القائم آنذاك الذي أعطى العامل النحوي عناية خاصّة؛ حيث أخذ حيّزاً وافراً في مناقشاتهم النحويّة، وقد أولاه النحاة القدماء أهميّة كبيرة، وأفردوا له أبواباً في مؤلفاتهم، ووضعوا له نظريات عدّوها من الفروض التي لا يجوز الخروج

(١) السعران، محمود، **علم اللغة: مقدّمة للقارئ العربي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، (١٩٩٧)، ص١١.

(٢) سيبويه، عمرو بن عثمان، (ت٨٠هـ/ ٧٩٦م)، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٩٨٨)، ج١/ ٣٢.

(٣) ابن جني، **الخصائص**، ج٣/ ٢٥٥.

(٤) ابن جني، **السابق**، ج٣/ ٢٦٠- ٢٦١.

(٥) المبيضين، ماهر أحمد، "**الانزياح في شعر امرئ القيس**"، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعيّة، المجلّد(٩)، عدد (٢)، ص٧٥.

عليها، "فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغيّر عاملاً"(١). فأصبح مفهوم العمل النحوي في نظريّة النحو القديمة يقتضي بالضرورة وجود أطراف ثلاثة فيه، وهي: العامل، والمعمول، والعلامة الإعرابيّة، رمز تأثير العامل بالمعمول(٢)، ظاهرةً أو مقدّرة.

ولعلّ هذه المنهجية في التحليل النحوي – القائمة على المعنى النحوي بصورة خاصة – كانت سبباً في أن بعض المفاهيم الدّلاليّة للتراكيب اللغويّة لم تستوفِ حقّها من الدراسة، وإنّما تركّز البحث النحوي القديم على الجانب الشكلي الإعرابي. ونحو ذلك مفهوم الاختصاص في اللغة العربيّة، فقد تركّز البحث النحوي القديم لهذا الباب فيما يخدم فكرة العامل، وحُصِر تناوله في هذا المفهوم من حيث تقدير العامل في الاسم المنصوب، نحو قولنا: نحنُ المسلمين، وكان تقدير الفعل (أخصُّ) أو (أعني) تبريراً لوجود العلامة الإعرابية. فقد جاء في كتاب سيبويه: "هذا باب من الاختصاص يجري على ما جرى عليه النداء...، وذلك قولك: إنّا معشرَ العرب نفعل كذا وكذا، كأنه قال: أعني، ولكنّه فِعْل لا يظهر ولا يستعمل"(٣).

وقد استقرّ عند النحاة فيما بعد أن المنصوب على الاختصاص هو: اسم معمول لـــ(أخُصُّ) واجبَ الحذفِ(٤). والاختصاص في هذا المفهوم علة نحوية مفسِّرة لحالة انتصاب الاسم بتقدير فعل محذوف، ولا تؤثر في الناتج الدلالي للتركيب اللغوي. في حين نجد مفهوم الاختصاص في اللغة العربية قد يتجاوز هذا التحديد النحوي الضيّق إلى تراكيب أخرى تنبىء في دلالتها عن مفهوم الاختصاص، ونحو ذلك: لام الاختصاص الداخلة بين معنًى وذات، نحو: (السرج للدابة). والمخصوص بالمدح أو الذم، نحو قولنا: نعمَ القائد صلاحُ الدين. وبئس الرجلُ الكذوبُ. والنعت المقطوع، نحو قولنا: أكرمتُ عمرَ القويُّ.

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، **المقدمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة (٣٠٠٤)، ج٤/ ١١٢٩.

(٢) أبو المكارم، علي، **أصول التفكير النحوي**، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، (٢٠٠٦)، ص٢٥٩– ٢٦٠.

(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج٢/٢٣٣.

(٤) ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين الأنصاري، (٧٦١/ ١٣٦٠م)، **أوضح المسالك**، تحقيق: محمد محيي الدين، المكتبة العصريّة، بيروت، (د.ت)، ج٤/٧٣–٧٤.

ومثل ذلك أيضاً الدلالة الشرطيّة لبعض التراكيب؛ فلم يدرسها علماء اللغة القدماء تحت باب مستقل، بل دُرِست في باب إعراب الأفعال المضارعة. مع أننا نجد تراكيب شرطيّة لا علاقة للمضارع بها[١]. ومثله أيضاً مفهوم الأمر في اللغة العربية، فقد اقتصر تناوله قديما في باب فعل الأمر فقط، وتركّز الاهتمام على الجانب الإعرابي، غير أن البلاغيين ربما تناولوا دلالة الأمر بصورة أفضل، وبيّنوا الحالات التي يمكن أن يتحقق فيها هذا المفهوم، ولم تنل حقّها في البحث بصورة تكامليّة في باب الأمر، نحو الفعل المضارع المتصل بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعله، وغيرها.

والمنهج نفسه يتكرر مع مفهوم التعجّب في الدرس النحوي القديم، الذي يعني "التأثُّر النفسي الناتج عن مشاهدة غير المألوف من الأمور، أو الدهشة البارزة نتيجة مشاهدة فِعْلٍ ما لم يألفْهُ الإنسان"[٢]، في حين نجد أنّ هذا المفهوم يتحقق في سياقات لغويّة أخرى تتجاوز التحديد النحوي القديم الذي قيّد هذا الأسلوب في صيغ بعينها، مثل: النداء، والاستفهام، والقسم وغيرها.

ولعّل ما سبق كان سببا في أن أصبحتْ بعض الدراسات النحويّة الحديثة تستقي مناهجها من آراء البلاغيين والأصوليين الذين عنوا بالناتج الدلالي للتراكيب أكثر من عنايتهم بالعلامة الإعرابية، وما تؤديه من معانٍ نحويّة. وبرز هذا المنهج البلاغي بصورة جليّة على يد الجرجاني في معالجاته للتراكيب اللغوية معتمداً على معاني علم النحو. فقد شبّه نظم الكلام وترتيب الكلمات بنظم اللؤلؤ والجوهر معتمداً على الذوق من جهة، وعلى العقل من جهة أخرى. فحال ضمّ الكَلِم بعضها إلى بعض، عند الجرجاني مرهون بتوخي معاني النحو "وأنك إنْ عمدتَ إلى ألفاظٍ فجعلتَ تُتْبع بعضَها بعضاً من غيرِ أن تتوخَّى فيها معانيَ النحو لم تكن صنعَت شيئاً تُدْعَى به مؤلفاً، وتُشبَّه معه بمن عَمِلَ نَسْجاً أو صَنَعَ على الجملة صَنيعاًــ ولم يتصوَّر أن تكون قد تخيّرتَ لها المواقع"[٣]. فسلّط الجرجاني الضوء على بلاغة التراكيب المستوحاة من النحو العربي، إذ وجد النحاة لا يعتنون كثيراً بالناتج الدلالي للتركيب، فرأى انّ النّظم يكون في التركيب لا في تحليله، وهو في هذا المنهج أقرب إلى المنهج

(١)حجازي، محمود فهمي، **مدخل إلى علم اللغة**، الدار المصرية السعودية، القاهرة، (٢٠٠٦)، ١٢٨.

(٢) البديرات، باسم، البطاينة، وحسين، "**أسلوب التعجّب في الدرس النحوي القديم بين المعنى النحوي والمعنة الدلالي**"، مجلة جامعة الخليل، الخليل عدد، (٢٠١٥م)، ص٢٢- ٢٣.

(٣) انظر: الجرجاني، عبد القاهر، (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، **دلائل الإعجاز**، تحقيق رشيد رضا، ط٢، (د.ن)، ص ٣٧٠.

التركيبي في نظريّة المعنى الذي يبدأ بتحليل التركيب دفعة واحدة باعتباره كلا متماسكا، ولا يفتته إلى أجزاء كما فعل النحاة التقليديون(١).

فأولى الجرجاني اهتمامه لبعض أبواب النحو. فالاعتبار في نظم الكلام عنده يكون بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات. فلو كان النظم يكمن في معاني النحو "لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط، ولم يعرف المبتدأ والخبر وشيئا مما يذكرونه لا يتأتى له نظم الكلام. وإنّ لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في النحو. قيل إنّ الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات. فإذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول: (جاءني زيد راكبا)، وبين قوله: (جاءني زيد الراكب)، لم يضره ألا يعرف أنه إذا قال: راكبا كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في (راكب) أنه حال، وإذا قال (الراكب) أنه صفة جارية على زيد(٢).

وقد أفادتْ بعض الدراسات النحويّة الحديثة من فكرة الجرجاني سالفة الذكر في توسيع مجال دراسة النحو العربي، ومن هذه الدراسات دراسة الجملة العربية معناها ومبناها لتمام حسّان(٣)، فأبرز في دراسته دور المعاني السّياقية والمقامية في تحليل الجمل والتراكيب؛ فالعلامات الإعرابيّة وحدها لا تسعف المتلقي في تحديد المعنى المراد، فلا بد من الأخذ بتضافر القرائن كافة في التركيب اللغوي، وأقام حدود دراسة الجملة في ضوء فكرة التَّعليق، وقام على دراسة بنية الجملة العربية في ضوء العلاقات السياقيّة والقرائن اللفظيّة والمعنويّة، وجعلها الإطار الأساسي للتحليل النحويّ. وبناء على ذلك رأى أنّ النظام النحوي للغة العربية ينبغي أن يُبنى على مجموعة من الأسس، منها: المعاني النحويّة العامّة (معاني الجمل أو الأساليب). ومجموعة من المعاني النحويّة الخاصّة، أو معاني الأبواب المفردة نحو: الفاعليّة، والمفعوليّة، والإضافة، وغيرها. ومجموعة العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصّة حتى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها، كالإسناد، والتخصيص، والتبعيّة. فأصبح المنهج اللغوي المتبّع في دراسة اللغة يميل إلى الوصفيّة في الوصول إلى المعنى اعتمادا على تضافر جملة من القرائن اللفظيّة والمعنويّة، أكثر من جانب التحليل المرتبط بالمعنى الإعرابي الذي اتخذه النحاة القدامى.

---

(١) زوين، علي، **منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث**، دار الشؤون الثقافيّة العامة، ط١، (١٩٨٩م)، ص١٦٢.

(٢) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٣٢١- ٣٢٢.

(٣) حسان، تمام، **اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة**، المغرب، (١٩٩٤)، ص١٧٨ -١٧٩.

المبحث الثاني: البعد الدلالي للانزياح اللغوي في القرآن الكريم

تخضع جميع لغات العالم لنظام معين في ترتيب كلماتها وتراكيبها لتأدية معانيها، فإذا اختل هذا النظام لن يحقق الكلام المقصد والإفهام، وإذا اتّبعت ذلك النظام عبّرتْ عن مراد الفكر وما يدور في الأذهان. وهذا الأمر يرتبط ارتباطا وثيقا بعلم الدّلالة الذي يعني "دراسة كيفيّة استعمال الكلمات وبيان علاقاتها بالعمليّة الذهنيّة"(١). وينبغي أن يشمل كذلك كلّ ما يتّصل بالكلمات من ظروف وملابسات، وعناصر أخرى غير لغويّة متعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمات(٢).

والبعد الدلالي يرتبط ارتباطا وثيقا بلغة القرآن الكريم، فهو يمثل الأسلوب الأمثل والنموذج الأعلى، فقد جاء إلى العرب في فترة كانت تفخر أكثر ما تفخر بلغتها وبيانها وفصاحتها. فإذا استعملتْ كلمة في القرآن دون أخرى – على سبيل المثال– نجد أنّ ثمة علّة سياقية استدعت أن تُستعمل هذه الكلمة من بين مرادفاتها لعلّة تخص الدلالة لا تخص جانبا آخر. فأصبح البحث بالقيم العاطفية للمعنى من القضايا الدلالية البارزة، وهو ما يُسمّى بـ (ظلال المعنى) (٣). فمعاني الكلمات لا تُحدد فقط بالقيم التجريدية العامة، بل تُحيط بكلّ كلمة ظلال من المعاني التاريخية والنفسيّة والعاطفيّة وغيرها.

ومن هنا يؤكد كثير من الباحثين خصوصية المرادفة القرآنية لا عمومها. فالقرآن الكريم يشتمل: "على ألفاظ يُراد بها الترادف وهي ليست منه، ولهذا نجدها قد وزعت حسب المقامات، فلا يقوم مرادفها فيما استُعمل فيه مقام الآخر، فعلى المفسّر أو القارىء مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد"(٤). فلو نظرنا على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة:٥) وأمعنّا النظر في دواعي استعمال لفظة (الأسفار) بدلا من لفظة (الكتب). لأدركنا أن السبب الدلالي لاختيارها هو تناسبها مع حال المشبه وهم (حملة التوراة) لأن التوراة مقسمة إلى أسفار بدل الأجزاء. وفي هذا ملاءمة شديدة ومشاكلة غاية في الدقة. ومن جوانب ملاءمة المفردة للمشبه به (الحمار) أن كلمة الأسفار أيضا هي جمع (سَفَر) كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ

(١) زوين، **منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث**، ص٨٩.

(٢) ستيفن، أولمان، **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة: كمال بشر، دار غريب، مصر، ط١.

(٣) زوين، **منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث**، ص٩٢.

(٤) مطاوع، عطية علي، **إشكالية الترادف**، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، (٢٠٠٦) م، ص١٠.

أَسْفَارِنَا﴾ (سبأ:١٩) والحمار أحد أدوات السّفر والأحمال في التاريخ. ومن هنا فإن الاشتراك الدلالي لكلمة (الأسفار) لم يقع بعيدا عن حال المشبه به بل هو من لوازمه(١).

وهذا الجانب الدلالي لسبب الاختيار لا يقتصر على مستوى المفردة في القرآن الكريم وإنّما يتجاوزه إلى التراكيب اللغوية أيضا، إذ ليس ثمّ خيارات في الانتقاء، فالمعنى وحده هو من يفرض التركيب المُطابق للسياق، وبغير ذلك يختلّ المعنى وينفرط النظم. فالتركيب حدث كامل يختزن في طياته أدق ما يكون من المقصد الدلالي. إلى جانب جمال صوتي أحيانا، وتناسب دلالي مع سياق السورة التي ترد فيها والحدث أو الفعل الذي تصفه. وهذا من أرقى أنواع التناسب الذي تُفسِّر من خلاله الكثير من الانزياحات اللغوية في القرآن الكريم؛ فيكون التركيب الانزياحي غايةً في الدقة في التعبير عن المعنى الدلالي المُراد. ولا يمكن حمله على أنّه مجرّد اختلاف باللهجات، أو تعدد باللغات، أو مجرّد جواز بالاستعمال، بل لا بدّ من وجود أبعاد دلالية يرمي إليها لا تُدرك إلا بتمعن دقيق للسياق الذي وردت فيه، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ (طه:٦٥)، حيث لم يقل كما هو متوقع من السامع (وإما أنْ نكون أوّل من يلقي) فتغيير النمط في التركيب لم يحقق مراعاة الأداء الصوتي وتوافق نهاية الفواصل في السورة فحسب(٢)، ولكنّه يكشف البعد الدلالي الذي يرمي إليه التركيب، وهو تصوير نفسية السّحرة وغرورهم يوم تحدّوا موسى عليه السلام بسحرهم، وأنهم لم يراودهم شك في تفوقهم عليه ، وإنّما كان الأمل قد ملأ نفوسهم بنصر وفوز عاجل(٣).

فالتراكيب اللغوية في القرآن تحمل في طياتها أدق التفاصل والأحكام التي لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال قرائن معنوية ترتبط بالسياق، وتتجاوز الظاهر وتنقل التركيب من نمط لغوي إلى نمط آخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨) فإن صيغة التركيب في الآية السابقه (يتربصن) في ظاهره صيغة الخبر غير المُلزِم في الغالب، ولكن لا يمكن

(١) البديرات، باسم، والذنيبات، فايز، "**بلاغة الاستعمال القرآني للمفردات السامية**"، المجلّة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، (٢٠١٧م) مجلد (١٣)، العدد٤، ص٢٧-٢٨.

(٢) جاء الفعل (ألقى) متفقا مع نهاية الفواصل في السورة: (موسى، الأعلى، أتى، الدنيا، أبقى.....). انظر: عمر، أحمد مختار، **دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته**، عالم الكتب، القاهرة، ط١، (٢٠٠١)، ص٧٩.

(٣) بدوي، أحمد، **من بلاغة القرآن**، دار نهضة مصر الفجالة، القاهرة، (١٩٥٠)، ص٦٢.

حمله على حقيقته الظاهرة؛ فإنهن قد لايتربصن فيقع خبر الله بِخِلَافِ مَخْبَرِهِ وهو مُحال؛ فوجب اعتبار هذه القرينة، حمل الصيغة على معنى الإنشاء (الأمر)؛ صيانة لكلام الله تعالى عن احتمال المُحال[١].

ومن ذلك أيضا الإحلال بين المفرد والمثنى والجمع في التراكيب اللغويّة لا يمكن أن يُعزى إلى الجواز أو عدمه، فإيقاع الجمع موقع التثنية على سبيل المثال لا بدّ من أن يحمل دلالة معينة في التركيب القرآني، ونحو ذلك قولــه تعالــى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ (المائدة: ٣٨). فالظاهر يقتضي قوله (يَدَيْهِما) إذ الحديث عائد على المثنّى (السارق والسارقة)، واتّضح المعنى المراد وهو قطع اليمين من كلّ سارق، ويدلّ على ذلك قراءةُ عبدالله بن مسعود: "فاقطعوا أيمانَهما"[٢]. غير أنّه أوقع الجمع موقع التثنية؛ دلالة على تغليظ العقوبة وتشديدها على السارق والسارقة بما فعلا. وقد جاء عن العرب ما يدلّ على هذا النوع من الإحلال وما يحمله من دلالة، نحو قولهم: "شابت مفارقه، وليس له إلا مفرق واحد"[٣]. ربّما وضع الجمع موضع المفرد ليس من مبدأ أمن اللبس، أو حريّة الاختيار بين الاثنين كما قيل، وإنّما لبعد دلالي يحمله الإحلال وهو التكثير والمبالغة بالشيب.

ومن ذلك أيضا تكرير الاسم في الجملة الواحدة، فهو ضعيف غير كثير بالإجماع، نحو: زيد ضربت زيدا، لأن الضمير أخف[٤]. مع ذلك جاء في القرآن الكريم ما أعيد فيه لفظ المبتدأ في جملة الخبر على خلاف ماسبق، نحو قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ (القارعة:١-٢) وقوله (الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة:١-٢) إلا أن إعادة لفظ المبتدأ (القارعة) و(الحاقة) في لفظ الخبر عدل عن التحديد السابق الذي قال به النحاة؛ لينبيء عن بعد دلالي، وهو التعظيم والتشديد المرتبط بيوم القيامة، جاء في إعراب القرآن للنحاس: يظهر الاسم على سبيل التعظيم والتشديد؛ لأن إعادة الاسم فيه معنى التعظيم[٥].

(١) الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج٢/ص ٢١٦.

(٢) الفرّاء، أبو زكريا، (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، **معاني القرآن**، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، (د.ت)، ج١/ ص٢٣٦.

(٣) ابن سيده، أبو الحسن، (٤٧٨هـ/ ١٠٦٦م)، **المخصص**، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د.ت)، ج٤/ ص٢٦٩.

(٤) الأستراباذي، محمد بن الحسن، (٦٨٦هـ/ ١٢٤٧)، **شرح الرضي على الكافية**، تعليق: يوسف حسن، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، (١٩٩٦)، ج٢/ص١٩٤.

(٥) النحاس، أبو جعفر، (ت٣٣٨هـ/ ٩٤٩م)، **إعراب القرآن**، دراسة: الشيخ خالد العلي، دار المعرفة، بيروت، (٢٠٠٨)، ج٤/ ٣٢٤.

وفيما يأتي بيان لبعض مواطن الانزياح اللغوي في القرآن الكريم وبيان مدى ارتباطها بالمعنى الدلالي للسّياقات التي وردت فيها:

المطلب الأول: تأنيث الفعل مع فاعله

ذهب النحاة إلى أنّ الفعل يؤنّث مع فاعله بعلامات منها تاء ساكنة في آخر الماضي. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ (آل عمران: ٣٥). وقد اختلف النحاة في تذكير الفعل وتأنيثه مع الجموع، فقال الكوفيون يجوز تأنيث الفعل وتذكيره مع كلّ الجموع، وقال البصريون بجواز التذكير والتأنيث مع الجموع إلا مع جمع المذكر السالم فإنّه يجب التذكير، ومع جمع المؤنث السالم فإنّه يجب التأنيث. فإذا كان الفاعلُ اسم جمع أو جمع تكسير جاز فيه التأنيث أو التذكير على السواء بلا خلاف. واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿قالَ نِسْوَةٌ﴾ (يوسف:٣٠). وقوله تعالى: ﴿قالتِ الأعْرَابُ﴾ (الحجرات: ١٤)[١]. فمع أنّ الفاعل (نسوة) مؤنّث إلا أنّ الفعل قد ذُكّر. ومع أنّ الفاعل (الأعراب) مذكّر إلا أنّ فعله (قالتْ) قد أُنّث. ولم يكن للبعد الدلالي حضور في مثل هذا التحليل من حيث تأنيث الفعل أو تذكيره، وإنّما اقتصر القول على جواز التذكير أو التأنيث. وهذه المنهجيّة في التحليل تكشف بكلّ جلاء أنّ البعد الدلالي كان مغيبا تغيبا تاما، وأنّ مناسبة الحدث لا أثر لها في مثل هذا التحليل. فثمة علة دلاليّة استدعت أن يُذّكر الفعل في قوله تعالى (قال نسوة) وهي الانسجام مع طبيعة الفعل الذي قامتْ به النسوة في قصّة يوسف عليه السلام؛ ويتأكّد ذلك الفعل الجماعي من النسوة، إذ لم يقتصر على امرأة العزيز- بقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣). فمن المُعتاد أنّ الرجل هو من يلاحق المرأة ليس العكس، غير أنّ فعل النسوة في قصة يوسف عليه السلام خالف المعتاد، فقامتْ النساء بفعل الذكور؛ فذكّر الفعل انسجاما مع هذا الصنيع. وكذلك الحال في تأنيث الفعل في قوله تعالى: (قالتْ الأعراب). فمن المعروف أنّ القال والقيل سمة نسويّة؛ فربّما أنّث الفعل انسجاما مع طبيعة الحدث. ويؤكد هذا الرأي ما جاء في كتاب معاني القرآن عن سبب نزول هذه الآية، فقد نزلت فى أعاريب بنى أسد حين قدِموا على النبي صلّى اللّه عليه المدينة بعيالاتهم طمعا في الصدقة، فجعلوا يروحون ويغدون،

(١) الأزهري، خالد بن عبد الله، (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، **شرح التصريح على التوضيح**، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية بيروت، (٢٠٠٠)، ج٢/ ص٤١٠.

ويقولون بإلحاح شديد: أعطنا فإنا أتيناكَ بالعيال والأثقال، وجاءتكَ العربُ على ظهور رواحلها[١]. فجاء استنكار فعلهم في قوله عزّ وجل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ (الحجرات: ١٧).

ويتضح البعد الدلالي لتأنيث الفعل مع الفاعل أو تذكيره بصور أوضح في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ (الممتحنة: ١٢). فمع أنّ الفاعل مؤنث تأنيثا حقيقيا إلا أنّ فعله قد ذكِّر. فالتأويل النحوي– في تقدير النحاة – اقتضى تقدير محذوف حفاظا على النسق القاعدي، وهو (النساء المؤمنات). والنساء – في تقدير النحاة اسم جمع، فحذف الموصوف وخلفته صفته، فعُومِلَتْ معاملته. أو لأنّ (أل) في المؤمنات اسم موصول مقدر بـــ(اللاتي)، واللاتي أيضا في تقديرهم اسم جمع؛ ولذا جاز تذكير الفعل (جاء). غير أنّ البعد الدلالي الذي قد ينسجم مع طبيعة التنزيل، ويتوافق مع تذكير الفعل مع فاعله المؤنث هو طبيعة الفعل الذي أقدمتْ عليه المؤمنات في هذا السياق، وهو فعل ذكوري، فالمبايعة والعهود –عند العرب– أمر يقتصر على الرجال ولا تُقْدم عليه النساء، إلا أنّ تذكير الفعل (جاءك) جعل النساء المؤمنات صاحبات قرار في هذا الموقف[٢]، وغير تابعات بالذمة أو العهد المقطوع لزوج أو لغيره، فذكّر الفعل انسجاما مع طبيعة العمل الذي أقدمن عليه رضوان الله عليهن.

وتتضح فكرة تأنيث الفعل مع فاعله انسجاما مع دلالة الحدث أيضا في قول جرير في هجاء الأخطل[٣]:

لَقَـــدْ وَلَـــدَ الأُخَيْطِـــلَ أُمُّ ســـوءٍ علـــى بَـــابِ اسْـــتِها صُـــلُبٌ وَشَـــامُ

فذهب النحاة إلى أنّ الفعل (وَلَدَ) قد ذُكّر مع أنّ فاعله مؤنّث (أمّ سوء) لعلّة الفصل بين الفعل وفاعله. ومع ذلك فقد أنّث الفعل مع فاعله مع وجود الفصل في غير موطن، ونحو ذلك قراءة أبي

(١) الفراء، **معاني القرآن**، ج٣/ص٧٣.

(٢) روي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال: أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه. انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)، **الكشاف**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج٤/ص٥٩.

(٣) جرير، أبو حزرة بن عطية التميمي، ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين، دار المعارف، مصر، ط٣، (١٩٨٦)، ص٢٨٣.

جعفر ومعاذ والحارث في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً﴾ (يس: ٢٩)، بجعل كان تامّة، أي ماحدثت أو وقعت إلا صيحة[١]. ونحو ذلك أيضا قول الشاعر[٢]:

مَـــــا بَرِئَـــتْ مِـــنْ رِيبَـــةٍ وَذَمٍّ فـــي حَرْبِنَـــا إلا بَنَـــاتُ العَـــمّ

فـ (بنات العمّ) فاعل (برئتْ) وأنّثه مع وجود الفصل بين الفعل وفاعله. ولعلّ البعد الدلالي الذي يشير إليه تذكير الفعل (ولد) في قول جرير السابق مع فاعله المؤنث (أمّ سوء)– ولم يُدرك في التحليل النحوي – وينسجم مع مراد الشاعر هو الذم والهجاء، بناء على طبيعة العلاقة التي تربط بين الشاعرين، فالبيت بأكمله يشير إلى هذا الذم، وذلك في تصغيره (الأخيطل)، وفي قوله (أمّ سوء)، وفي قوله (على باب استها). وربمّا أرد أن يضيف ذما آخر أقوى من ذلك، وهو تذكير الفعل الذي قامت به أمّه، فجاء بقوله: (ولد)، فذكّر الفعل ذما لأمّ الأخطل، إذ إن الولادة فعل أنثوي يخص المرأة، ومن أنجبته لم ترتقي بفعلها حدّ نظيراتها من النساء فزاد في ذمّه.

ويبرز مدى ارتباط تأنيث الفعل أو تذكيره بالبعد الدلالي في مواطن أخرى في القرآن الكريم، ونحو ذلك تأنيث الفعل (اتخذتْ) في حديثه عن العنكبوت في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١). فقد انّث لفظ العنكبوت بقوله (اتّخذتْ) مع أنّ لفظ العنكبوت مذكّر ومؤنّث، ومنه قول مزاحم العقيلي وقد جعل اللفظ مذكرا[٣]:

علـــى هَطَّـــالِهم مـــنهم بُيـــوتٌ كـــأَنَّ العَنْكَبُـــوتَ هـــو ابْتَناهـــا

ولعلّ التوجيه الدلالي لتأنيث اللفظ هنا يتمحور في الدور الرئيس الذي تلعبه أنثى العنكبوت في حياة الأسرة؛ فهي الوحيدة القادرة على بناء البيت، أما الذكر فلا حيلة له، ولا دور له بالبناء، ويقتصر دوره على إخراج خيوط تساعده على التنقل والحركة، فجاء التأنيث انسجاما مع طبيعة العمل الذي أُنيط بالأنثى بصورة خاصة دون الذَّكر.

---

(١) الدمياطي، شهاب الدين، (ت١١١٧هـ/ ١٧٠٥م)، **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان، (١٩٩٨)، ص٦٤٩.

(٢) ابن مالك، محمد بن عبد الله، (٦٧٢هـ/ ٢٧٤م)، **شرح تسهيل الفوائد**، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي، دار هجر للطباعة والنشر، (١٩٩٠)، ج٢/ ص١١٤.

(٣) العقيلي، مزاحم، **ديوان مزاحم العقيلي**، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار صادر، بيروت، (١٩٧٦)، ص٢٣.

المطلب الثاني: التقديم والتأخير

لم يتجاوز التحليل النحوي القديم – في كثير من جوانبه – بما يخصّ التقديم والتأخير في التركيب اللغوي إلى المعنى الدلالي حدود ما صرّح به النحاة في تعليلهم لفوائد التقديم في الكلام على فائدة (الاهتمام والعناية). كما صرّح بذلك سيبويه في قوله: "واعلم أن التقديم والتأخير والعناية والاهتمام هنا مثله في باب كان، ومثل ذلك قولك: إنَّ أسداً في الطريق رابضاً، وإنَّ بالطريق أسداً رابضاً. وإنْ شئت جعلت بالطريق (مستقراً) ثم وصفته بالرابض فهذا يجرى هنا مجرى ما ذكرتُ من النكرة في باب كان"(١). وقد توقّف الدرس البلاغي على يد عبد القاهر الجرجاني عند موقف النحويين من التقديم وعرض لرأي سيبويه السابق. إذ يقول: "وقد وَقعَ في ظنونِ الناسِ أَنَّه يكفي أنْ يقالَ: "إنه قُدِّم للعناية، ولأنَّ ذِكْرَه أَهمُّ"، مِنْ غير أن يُذْكَر، مِنْ أين كانت تلك العنايةُ؟ وبمَ كانَ أهمَّ؟ ولِتخيُّلهم ذلك، قد صَغُر أمرُ التقديمِ والتأخير في نفوسهم، وهَوَّنوا الخَطْبَ فيه، حتى إنك لتَرى أكثرَهم يَرى تَتبُّعَه والنظرَ فيه ضرباً من التكلُّف. ولم ترَ ظنّاً أَزرى على صاحبهِ من هذا وشبهه"(٢).

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ (الفاتحة: ٣-٤)، فقد اقتصر التحليل النحوي في مثل هذا المثال وما شاكله على الإعراب، وبالذات إعراب (إياك) وموجب تقدّمها على الفعل والفاعل، ولم يتجاوز إلى الجانب الدلالي لتقديم المفعول، أو تكرار المفعول (إياك) مع الفعلين (نعبد) و(نستعين)، فالعلّة عند النحاة اقتصرت على اختلاف الفعلين (نعبد ونستعين)، في حين أن التكرار قد ارتبط بالتأكيد بصورة أكبر، أما السبب الدلالي لتقديم المفعول فلأجل الاختصاص والحصر، فقد حصرت العبادة والاستعانة بالله وحده دون سواه، فيكون موحّدا لله تعالى بالعبادة والدين جميعا، وفي ذلك الأسلوب تمييز واضح بين الطاعة والعبادة، فالطاعة قد تكون للخالق والمخلوق، أمّا العبادة بمعنى نخشع ونذلّ ونستكين، لأنّ العبودية عند العرب بمعنى الذلّة، ولذا تسمّى الطريق المذلل الذي وطئته الأقدام، وذللته السابلة معبّدا(٣). ف(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) مَبْنيٌّ على الإلهيَّة، (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) مَبْنيٌّ على الرُّبوبيَّة،

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج٢/ص١٤٣

(٢) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص١٠٨.

(٣) الطبري، أبو جعفر، (٣١٠ه/ ٩٢٣م)، **التفسير الكبير**، تحقيق: محمود محمد شاكر وآخر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د.ت)، ج١٥/ص٢٨٢.

فتضمَّنت السُّورةُ: توحيدَ الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ بقولهِ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[1]. وهي سمة أسلوبية شاعتْ في كلام العرب قبل الإسلام إذ يقدّمون أسماء آلهتهم، فيقولن: باسم اللات، وباسم العزى، فوجب على الموحّد معنى اختصاص اسم الله عزّ وجل بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل[2]. وكذلك الاستعانة فقد حُصِرت بالله الواحد الأحد تحقيقا لقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥)، فأنتم فيها دلالة العموم دون استثناء، وعلى ذلك فالإنسان لا يَطمع بمستعَان غير الله، ولا تُرفع الحوائج إلا إليه.

ومعنى ما سبق أننا حينما نقدّم بعض أجزاء التركيب اللغوي تارة، ونؤخرها تارة أخرى، فإننا لا نفعل ذلك رغبة في التعبير أو تفنناً في القول، إنّما ذلك ناشئ عن اختلاف المعنى الدلالي المقصود، وهو غرض يجمع بين اللفظ والمعنى بالذات في القرآن الكريم، فـ"هو مذهب مقرر، وخطّة موحّدة، وخصيصة شاملة..... يَفتَنُّ في استعمالها بطرائق شتى، وفي أوضاع مختلفة"[3]. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنهَرْ﴾ (الضحى: ٩-١٠). فتقديم المفعول (اليتيم) و(السائل) في الآية السابقة ليس لغرض لفظي فقط كما يرى بعض الباحثين وهو "مراعاة الفاصلة وزيادة التناسق اللفظي"[4]، وإنّما لمعنى دلالي أسمى وهو: التخصيص، إي إذا كان لا بدَّ من القهر والنهر، فاليتيم والسائل خارج نطاق هذين الفعلين، لما فيهما من كسر للجناح وإهانة للمخاطب.

ولمعرفة خطر التقديم والتأخير من جهة ولمعرفة أهميته من جهة أخرى، نقف كذلك عند نموذج آخر من القرآن الكريم فنعرف هذه الغاية العظمى من تقديم الكلمات وتأخيرها في السياق، وما يؤديه من معنى دلالي لا يُدرك إلاّ بالربط بين المعنى والتركيب، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت﴾ (البقرة: ٢٥٨). ولم يقل: يحيي ويميت ربّي. فالفارق الدلالي كبير، فقوله: "ربي الذي يحيي ويميت" تفيد أنَّه لا محيي ولا مميت إلاّ الله، ولو قيل يحيي ويميت ربي،

---

(١) الدمشقي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد، (ت٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م)، **تفسير سورة الفاتحة**، تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله، دار المحدث للنشر والتوزيع، (١٤٢٧ه)، ص٤٣.

(٢) الزمخشري، **الكشاف**، ج١/ ص ٤٦.

(٣) سيّد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي، (ت١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م) **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، القاهرة، (٢٠٠٤)، ص٣٧.

(٤) انظر: بان الأثير، ضياء الدين، (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت)، ص٣٩. يُنظر كذلك: لاشين، عبد الفتاح، **معاني التراكيب**، دار الطباعة المحمديّة، القاهرة، (١٩٨٣م)، ص١٨١.

لكان المعنى: أنَّ الله قادر على الإحياء والإماتة، ولا مانع أنْ يقدِر عليها غيره، ولهذا قال المجادل: "أنا أحيي وأميت"، أي: لا غيري، لأنّ النّزاع ليس على قدرة الله على الإحياء والإماتة، بل في تفرده تبارك وتعالى بهما(١).

ويتجلى البعد الدلالي أيضا بصورة واضحة فيتقدّم الجار والمجرور، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ (القصص: ٢٠). وقوله تعالى: ﴿وجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (يس: ٢٠). فمثل هذين التركيبين لا فرق بينهما في التحليل النحوي القائم على بيان المعنى النحوي، ولا يتضح هذا الفرق ولا الجانب الدلالي إلا من خلال تحليلها تحليلا ينسجم مع طبيعة الحدث الذي تمثله كل آية منهما. فتقديم الفاعل (رجل) في سورة القصص على الجار والمجرور بقوله: (وجاء رجل) هو الوضع الطبيعي المنسجم مع قواعد التركيب النحوي في اللغة العربية، أو ما يُسمّى بنظام الرتبة؛ فعادة ما يكون الفاعل عقب الفعل مباشرة، وهو النسق الغالب في الاستعمال اللغوي في اللغة العربيّة. وفي هذه الآية من سورة القصص لا داعي لتقديم أو لتأخير انسجاما مع دلالة الآية وما تشير إليه، على اعتبار أنّ الخبر الذي جاء به الرجل سيكون من أطراف المدينة – أقصاها – وهو مكان سكن فرعون وحاشيته. جاء في تفسير التحرير والتنوير: "والظاهر أنّ أقصى المدينة هو ناحية قصور فرعون وقومه، فإنّ عادة الملوك السّكن في أطراف المدن مخافة الثورات والغارات وغيرها"(٢). أضف إلى ذلك أنّ أطراف المدن أصفى للعيش، فهي محل جذب للملوك والأثرياء، ويتضح الجانب الدلالي في تقديم الفاعل (الرجل) من خلال تقديمه تقديرا لموقفه، وبيانا لشجاعته وإقدامه؛ لكونه أفصح عن مخطط يُحاك لموسى – عليه السلام – ويكشف سرّا بيته فرعون وأعوانه، ولا يخفى مصير هذا المُفصِح عن سرّ فرعون، فكان تقديمه دلالة على مكانته من خلال إقدامه.

أمّا في تقديم "من أقصى المدينة" على "رجل" في سورة يس ففيه إشارة إلى أنّ الرسالة التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام بلغتْ أقاصي المدن وأطرافها، ولم يذهب جهدهم سدى، فقد قاموا بما أوكل إليهم على أحسن وجه على الرغم من تكذيب أهل القرى وتنكيلهم بهم. يقول ابن عاشور: "وفائدة انّه

(١) انظر: عباس، فضل حسن، **البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني**، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، (١٩٩٧م)، ص ٢٨– ٢٠٩ .

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر، (ت١٣٩٤هـ/ ١٩٧٣م)، **تفسير التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، (٢٠٠٠م)، ج٢٠/ص ٣٤.

جاء من أقصى المدينة إشارة إلى أنّ الإيمان بالله ظهر في أهل بعض المدن قبل ظهوره في قلب المدينة؛ لأنّ قلب المدينة هو مسكن الملأ وأحبار اليهود، وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحّة ما يدعوهم إليه الرسل، وعامّة سكانها تبع لعظمائهم لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم، بخلاف أطراف سكان المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال"(١).

وقد يضاف بعد دلالي آخر لتقديم الجار والمجرور، وهو بيان فضل الرجل لتحمله المشقّة نتيجة لبعد الشقة والمسافة الطويلة التي قطعها. واتباعه الرسالة على الرغم من بعده. جاء في روح المعاني "قدّم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقّه التقديم بيانا لفضله؛ أذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم"(٢).

المطلب الثالث: البعد الدلالي للعلامة الإعرابيّة

الإعراب هو الأثر الظاهر أو المقدّر الذي يجلبه العامل في آخر الاسم المتمكّن والفعل المضارع(٣). وهذا التغيّر يرتبط ارتباطا وثيقاً بالمعاني النحويّة (الفاعلية، والمفعولية، والإضافة وغيرها) بالدرجة الأولى. وقد بيّن الزجاجي فيما ينقله عنه السيوطي في الأشباه هذا الأمر عندما ذهب إلى أنّ الحركات الإعرابيّة دوال على المعاني، فيقول: "إنّ الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، وتكون فاعلة ومفعولة، ومضافة ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلّة على هذه المعاني جُعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني، وتدلّ عليها ليتّسع لهم في اللغة ما يريدون من تقديم أو تأخير عند الحاجة"(٤).

وانطلاقا مما سبق كان التركيز منصبا في التحليل النحوي القديم على العلامة الإعرابية؛ فتعدّ الأثر البارز للعامل بالمعمول، وهي مسألة لا تتجاوز حدود المعنى النحوي كما أشرنا سابقا، وربّما

---

(٢) ابن عاشور، **المرجع السابق**، ج٢٢/ ص٢١٣.

(٢) الألوسي، محمود أبو الفضل، (١٢٧٠هـ/ ٨٥٤م)، **روح المعاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج٢٢/ص ٢٢٦.

(٣) ابن هشام، أبو محمد عبد الله الأنصاري، (٧٦١هـ/ ١٣٥٩م)، **شرح شذور الأنصاري في معرفة كلام العرب**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، (٢٠٠٤)، ص٣٣.

(٤) السيوطي، جلال الدين، (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، **الأشباه والنظائر في النحو**، تحقيق: عبد الإله نبهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٥، ج١/ ص٧٦-٧٧.

كانت العناية الخاصة بالعلامة الإعرابية سببا في أن وُسِم التحليل النحوي القديم عند بعض الباحثين المحدثين بسمة الشكليّة، بمعنى أن التحليل النحوي قد أعطى أولويّة للفظ على حساب الدّلالة. فالنحو– في التحليل الحديث _ ينبغي أن يكون قانون تأليف الكلام، وبيانا لكلّ ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة، والجملة مع الجمل، حتّى تتسق العبارة وتؤدي معناها. وبقصر النحاة التحليل النحوي على أواخر الكلمات ضاقتْ حدوده الواسعة، وضاع كثير من أحكام نظم الكلام وأسرار تأليف العبارة(١).

ومما جاء في الاستعمال اللغوي الفصيح مخالفا للنسق العام للإعراب قُيّد عند النحاة بأمن اللبس، يقول ابن الطراوة: إذا فُهِم المعنى فارفع ما شئت وانصب ما شئت، وإنما يحافظ على رفع الفاعل ونصب المفعول إذا احتمل كل واحد منهما أن يكون فاعلا وذلك نحو: " ضرب زيد عمرا" لو لم ترفع "زيدا" وتنصب "عمرا" لم يعلم الفاعل من المفعول(٢). ولم يتجاوز التحليل النحوي هذا الحدّ للمعنى الدلالي بما يتجاوز جذب الانتباه، أو جعله من باب تقارض اللفظين في الأحكام(٣). كإعطاء الفاعل إعراب المفعول. مثل: "خرق الثوبُ المسمارَ" و"كسر الزجاجُ الحجرَ". ونحو ذلك في قراءة ابن كثير بنصب (آدم)، ورفع (كلمات)(٤) في قوله تعالى:﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٌ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة: ٣٧).

في حين نجد أن العلامة الإعربية قد ترتبط ارتباطا وثيقا بتغير دلالي يتجاوز حدود العامل والمعمول، أو ربّما تكون أحيانا عنصر تحويل في الجملة التوليديّة، في الكثير من الأساليب اللغويّة(٥)، ونحو ذلك قول العرب: (لا تَأكُلِ السَّمَكَ وتَشْرَبَ اللبَنَ)(٦)؛ فتكون العلامة الإعرابية في نهاية الفعل (تشرب) دلالة على تحوّل النمط الدلالي للتركيب اللغوي، فالفتحة يكون القصد منها النهي عن الجمع

(١) مصطفى، إبراهيم، **إحياء النحو**، القاهرة، (١٩٩٢)، ص٤٠.

(٢) الإشبيلي، عبيد الله بن أحمد، (ت١٢٧٠هـ، ٨٥٤م)، **البسيط في شرح جمل الزجاجي**، تحقيق: عيّاد بن عيد الثبيتي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (١٩٨٦م)، ج١/ ص٢٦٢ــ ٢٦٣.

(٣) ابن هشام، **مغني اللبيب**، ج٦/ ص٦٦٠.

(٤) ينظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج١/ ص٢٥٤. وأبو حيان الأندلسي (ت٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)، **البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د، ت)، ج١/ ص٣١٨.

(٥) عمايرة، خليل أحمد، **في نحو اللغة وتراكيبها**، دار المعرفة، (١٩٨٤)، ص١٦١.

(٦) سيبويه، **الكتاب**، ج٣/ ٦٦. ويُنظر كذلك: بن هشام، أبو محمد عبد الله الأنصاري، (ت٧٦١ه/١٣٥٩م)، **شرح قطر قطر الندى وبل الصدى**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، (ط١)، ص١١٧.

بينهما، بمعنى: يجوز لك أن تأكل السمك وحده أو تشرب اللبن وحده، لكن الممنوع هو الجمع بينهما. أمّا الجزم فيكون القصد منه النهي عن كل واحد منهما؛ أي: "لا تأكلِ السمك ولا تشربِ اللبن"، ومعنى هذا: أنك تنهاه عن أكل السمك وتنهاه عن شرب اللبن. أمّا الضمة فيكون القصد النهي عن الأول وإباحة الثاني، فأنت حينئذٍ نهيتَه عن أكل السمك، وأجزتَ له شُرْبَ اللبن؛ أي: لا تأكل السمك ولكَ شُربُ اللبن.

ومن ذلك أيضا قول أبي الأسود[1]:

لا تَنْـــهَ عَـــنْ خُلُـــقٍ وتَـــأْتِيَ مِثْلَـــهُ عَـــارٌ عَلَيْـــكَ إِذَا فَعَلْـــتَ عَظِـــيمُ

فمع أنّ نحاة البصرة أصرّوا في تحليلهم لهذا النوع من التراكيب اللغويّة على البحث عن ناصب الفعل (تأتيَ)، وقدّروا (أنْ) بعد الواو، إلا أنّ نحاة الكوفة ربّما كانوا أقرب إلى الصواب عندما ذهبوا إلى أنّ الفعل قد نُصِب على الصرف أو الخلاف، بمعنى عدم الجمع بين الإيجاب والسلب، فكانت الحركة في آخر الفعل (تأتيَ) دليلا على تغيّر دلالي في بنية التركيب يستحيل معها الجمع بين ما قبل الواو وما بعدها من حيث المعنى المراد.

ومن نماذج ارتباط انزياح العلامة الإعرابية بالمعنى الدلالي في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُـشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود: ٦٩). مع أن اللفظتين (سلاما، وسلام) قد وقعتا في تركيبٍ متوافق شكليّا في بنيته الخارجيّة، إلا أنّ الحركة الإعرابيّة قد اختلفت في الحالتين مرّة بالفتح وأخرى بالضمّ، مما يؤكّد أن العلامة الإعرابية في مثل هذه التراكيب المتشابهة تنبئ عن تغيّر دلالي خفي يُعبّر عن حالة نفسيّة للمتكلّم. فكان التقدير الإعرابي لها أنّ نصب (سلاماً) بإعمال (قالوا). كأنّه قيل: قالوا قولاً وسلّموا تسليماً. وقال (سلامٌ) بالرفع لعدم إعمال قال، والتقدير: قال إبراهيم لهم: (سلامٌ) بمعنى: وعليكم السلام أو بمعنى: سلامٌ عليكم، أو قولي سلامٌ[2]. والفارق بين التركيبين واضح من حيث الفعليّة في قول الملائكة: سلاما، والاسميّة في قول إبراهيم عليه السلام: سلامٌ، "فالاسميّة فيها دلالات إيجابيّة أكثر من الفعليّة إذ تدلّ على الثبوت"[3].

(١) الدؤلي، أبو الأسود، **ديوان أبي الأسود الدؤلي**، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، (١٩٩٨)، ص٤٠٤.

(٢) الطبري، **التفسير الكبير**، ج١٥/ص ٢٨٢.

(٣) الحموز، **انزياح اللسان العربي**، ص١٩٨.

ويبدو لي أن المعنى الدلالي الخفي الآخر الذي تضمنه التغيير في حركة اللفظتين يكمن في أنّ الفتحة حركة الخفّة بإجماع النحاة، ترتبط في الغالب بـــ (الفُضل) والضمّة علامة القوّة ترتبط (بالعُمد) المسند إليّه (الركن الأساسي في الجملة)؛ فجيء بالضمّة في قول إبراهيم (سلامٌ) للدلالة على حُسن الضيافة والاستقبال من إبراهيم عليه السلام لضيفه. فقد جاء عند أبي حيّان في البحر المحيط: "فالظاهر أنّه لم يعرف أنّهم ملائكة لمجيئهم في صورة البشر، وكان مشغوفاً (إبراهيم) بإكرام الأضياف"(١). فَكرَمُ إبراهيم يتجاوز الضيافة الماديّة (الطعام والشراب) إلى جانب آخر وهو الضيافة المعنويّة التي تعني طبيعة المنطوق اللغوي في الاستقبال، ومنه الحركة. فكان استعمال الضمّة بما يليق بحُسن ضيافة إبراهيم عليه السلام وكرمه تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (النساء: ٨٦). ويتضح بُعد دلالي آخر للانزياح السابق بقوله مرّة (سلاما) وأخرى (سلامٌ)، بأن قول الملائكة سلاما بالنصب دلالة على مقدرتهم على منح السلام وحمل العقاب من قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود: ٧٠)، أمّا في قوله (سلامٌ) بالرفع فكأنه قصد: أنّ أمري سلامٌ لأنني لأ أملك عقابا أو سلاما، بمعنى أنني في سلام بما منحتموننني إياه.

ومما يوضح مدى ارتباط العلامة الإعرابية بالبعد الدلالي في القرآن الكريم ما حُمِل في بعض الأحيان عند النحاة على الجرّ على الجوار، ومثالهم المشهور: (هذا جُحْرُ ضبٍّ خربٍ). قال سيبويه: "وقد حملهم قُرب الجوار على أنّ جرّوا: هذا جحرُ ضبٍّ خربٍ"(٢). فجرّ (خربٍ) لمجاورة (ضبٍّ) مع أنّ الخراب من مستلزمات (جحرُ) وهي مرفوعة(٣). وقد عقد النحاة لها أبوابا في مؤلفاتهم، ومن ذلك ما نجده في الخصائص لابن جني حيث سماها بـــ (باب الجوار)(٤)، وقد تبعه في ذلك ابن هشام، وعقد لها بابا في كتابه المغني بعنوان: (الشيء يُعطي حكمَا لشيء إذا جاوره)، كقول بعضهم: "هذا جُحْرُ ضبٍّ خَرِبٍ"(٥). وتبعهما أيضًا السيوطي في كتابه: الأشباه والنظائر في النحو، لخَّص فيه ما قاله ابن جنّي في الخصائص وما قاله ابن هشام في مغني اللبيب، وساق للجوار أمثلة متعددة(٦). ومن المحدثين

(١) أبو حيان، **البحر المحيط**، ج٥/ص ٢٤٢.

(٢) سيبويه، **الكتاب**، ج١/ ص٦٧.

(٣) سيبويه، **المرجع السابق**، ج١/ص ٦٧.

(٤) ابن جني، **الخصائص**، ج٣/ ص٢١٨.

(٥) ابن هشام، **مغني اللبيب**، ج٦/ ص٦٦٠.

(٦) السيوطي، **الأشباه والنظائر**، ج١/ ص٣٢٢ــ ٣٢٨.

الآخذين بهذا الرأي عبد الفتاح الحموز حيث يقول رداً على منع الحمل على الجوار في باب العطف: "ولسنا مع من يذهب إلى منع الحمل على الجوار في باب العطف؛ لأنّ ما في التنزيل يردّ مزاعم هؤلاء"(١).

ومن أمثلة ما حُمل على الجوار عند النحاة في القرآن الكريم، وحمل بُعدا دلاليا تجاوز ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (إبراهيم: ١٨). فكان مدار التحليل النحوي لهذا الانزياح أو ما شابهه حول تفسير جر كلمة (عاصف)، فجعلها بعضهم من باب إقامة الصفة مقام الموصوف، أي (في يومِ ريحٍ عاصفٍ)، ورأى بعضهم إنّ هذا الشاهد القرآني ينطوي تحت باب الجر على الجوار؛ فالعَصْف كما يرى النحاة ليس من مستلزمات اليوم، بل من مستلزمات (الريح)، يقول الفرّاء: "فلما جاء بعد اليوم أتبعته إعراب اليوم وذلك من كلام العرب أن يتبعوا الخفض الخفض إذ أشبهه"(٢).

ولم يتجاوز التحليل النحوي في مثل قوله تعالى (يوم عاصف) في كثير من الأحيان إلى البعد الدلالي الذي تحمله العلامة الإعرابية، فربّما أتبع كلمة (عاصف) لليوم إعرابا ومعنى مع أنّ العصف – كما هو معتاد ليس من مسلتزمات اليوم – لبعد دلالي، فجعل العصف سمة لليوم لبيان هول هذا الموقف وعظمته على الكافرين. فجاء في لسان العرب أنه جعل العُصوف تابعاً لليوم في إعرابه وإنما العُصوف للرياح، وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به، فيقال يومٌ عاصفٌ، كما يقال يومٌ باردٌ ويومٌ حارٌ والبرد والحرّ فيهما(٣).

وجاء عند ابن كثير أيضا في تفسيره أنّ المقصود "أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، فسعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم"(٤). فحقق انزياح العلامة الإعرابية في في المثال السابق سلامة المعنى الدلالي المراد انسجاما مع السياق، وخفّة المبنى من حيث الانسجام الصوتي.

---

(١) الحموز، عبد الفتاح، **الحمل على الجوار في القرآن الكريم**، مكتبة الرشيد، الرياض، (١٩٨٥)، ص ٤٠.

(٢) الفراء، **معاني القرآن**، ٢/ ص٧٤.

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم، (٧١١هـ/ ١٣١١م)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج٩/ص ٢٤٧.

(٤) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، **تفسير ابن كثير**، تحقيق: محمود حسين، دار الفكر، (١٩٩٤)، ج٢/ ص٦٤١.

ونحو ذلك أيضا قراءة يحيى بن وثاب وقراءة الأعمش: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاق ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ (الذاريات: ٥٨). فخفض (المتين) مع عدم المطابقة بينها وبين (القوة) خلافا لأسس الإعراب بناء على اختلاف التذكير والتأنيث بين اللفظين، ويبدو أنّ البعد الدلالي الذي ينسجم مع طبيعة التنزيل في هذا الموقف يقتضي الجرّ، ولا يقتصر على مجرّد المجاورة، إذ المراد بالقوة هنا (الحبل)، فجعل (المتين) صفة حقيقية للحبل، قال أبو جعفر النحاس: "المُراد بالقوّة الحبل، فكأنه وصفٌ للحبل"(١).

ويتضح الأثر الدّلالي للعلامة الإعرابية بصورة أدق في باب العطف، فالعطف بإجماع النحاة تابع يتبع الاسم المعطوف عليه إعراباً، ونحو ذلك جاء محمدٌ وعليٌّ، وضربتُ زيداً وعَمْراً، وعلى هذا الأساس بُنيت القاعدة النحويّة في باب العطف واطّردت، غير أنّه وجدتْ بعض الانزياحات في بعض التراكيب اللغويّة في القرآن الكريم في غير موطن، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧). ونحو في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:١٦٢)، فكان المتوقع أن يقول: (الصابرون) و(المقيمون)، انسجاما مع القاعدة النحويّة التي تقتضي وجوب إتباع المعطوف حركة المعطوف عليه.

إلا أن البعد الدلالي للانزاح كان ذا أثر واضح في هذين التركيبين وما شابههما انسجاما مع سياق التنزيل؛ فنصب (الصابرين) و(المقيمين) على وجه المدح، وهو الأدلّ على المعنى، ولم يُرِد بذلك العطف. إذ إنّ الصبر قمّة الطاعة لما يتطلبه من حمل النفس على ما لا تقوى أحيانا، ولذا قيل: تَصبّر فلان، دلالة على شدّة التكلُّف، فجاء المدح أنسب لمن جاهد نفسه وحملها على الصبر على شدّته وصعوبته طاعة لوجه الله. وكذلك الحال بالنسبة لنصب (المقيمين الصلاة) فالصلاة عمود الدين؛ فجاء الخطاب القرآني مشدّدا عليها بصيغة الأمر الصريحة لأهميتها في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ٣٢). فأراد أن يخصّها بصورة تفوق غيرها من العبادات. كما جمع ربّ العزّة بين الصبر والصلاة في موطن آخر بيانا لأهميتهما بقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥) وهو أسلوب من أساليب العرب، أفرد له سيبويه بابا في كتابه سماه (ما ينتصب على التعظيم والمدح)(٢)، وجعل النصب من هذا القبيل من باب إفراد السِّمة وتمييزها عمن سواها، بمعنى

(١) النحاس، **إعراب القرآن**، ١/ص ٢٥٨.

(٢) سيبويه، **الكتاب**، ج٢ / ص٦٢.

الاختصاص. ويورد في ذلك قول الخليل بن أحمد: والعرب تنصب الكلام على المدح والذم، كأنهم يريدون إفراد الممدوح والمذموم، فلا يتبعونه أول الكلام"(١).

ونختم هنا بمثال آخير يوضح مدى ارتباط العلامة الإعرابية بالبعد الدلالي للتركيب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة:٦٩). اختلف أهل العربية في تفسير رفع الصابئين، فَقَالَ بعضُهم أنّه ارتفع لضعف عمل {إِنَّ}، وهذا قول الكسائي، وقال أيضا يجوز أنه ارتفع؛ لأنه معطوف على المُضْمَر في {هَادُواْ}، كأنه قال: هادوا هم والصابئون. فالعطف على المضمر المرفوع من غير توكيد قبيح، وفي هذا بُعْدٌ وإنما يأتي في ضرورة الشعر(٢). ومنهم من جعلها من باب التقديم والتأخير، فتكون مبتدأ لخبر محذوف(٣). ولعلّ ارتفاع الصابئين وعدم نصبها يرتبط بالبعد الدلالي في التركيب، وهو أنّ الذين آمنوا بالقرآن الكريم هم المسلمون، والذين هادوا هم حملة التوراة، فبينهم جامع مشترك وهو الكتاب السماوي والإيمان به، أما الصابئون – كما جاء في التفاسير – (٤) فهم طائفة بين النصارى والمجوس ليس لهم دين، فمخالفة المعنى تقتضي مخالفة الإعراب؛ فجاءت الواو فاصلة بين ما قبلها وما بعدها لاختلاف عقدي بائن بين من آمن بالكُتب السماوية وبين من اعتنق دينا على هواه، فقيل في المجوس أيضا هم من عبدوا الملائكة.

المطلب الرابع: جمع تمييز العدد المركّب

جرى الاستعمال اللغوي في غالبه على أنّ تمييز الأعداد ثلاثة فما فوقها إلى العشرة تمييز مجموع مجرور بإضافة العدد إليه، نحو: ثلاثة أثواب، وثلاثُ ليالٍ، وعشرةُ أشهرٍ، وعشرُ سنين. وتُمَيّز الأعداد من أحد عشر إلى تسعة وتسعين مفرد منصوب، نحو: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ (يوسف:٤). ومما جاء على خلاف السابق قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً﴾ (الأعراف: ١٦٠). فالانزياح في الآية السابقة وقع في جانين: الأوّل، أوقع الجمع بعد اثنتي عشرة بقوله:

---

(١) سيبويه، **السابق**، ج٢/ ص٧٤.

(٢) الزجاج، أبو إسحاق، (ت٣١٠هـ/ ٩٢٣م)، **معاني القرآن وإعرابه**، عالم الكتب، بيروت، (١٩٨٨)، ج٢/ص ١٩٢.

(٣) الأنباري، عبد الرحمن بن أبي الوفاء، (ت٣٠٤هـ/ ٧٩٠م)، **أسرار العربية**، تحقيق: فخر صالح قدارة، دار الجيل – بيروت، ط١، (١٩٩٥)، ص٤٧.

(٤) المُجَاشِعِي، أبو الحسن علي بن فَضَّال، (ت٤٧٩هـ/ ٠٨٦م)، **النكت في معاني القرآن الكريم وإعرابه**، تحقيق: عبد الله عبد القادر الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠٧)، ص ٢٠٢.

(أسباطا)؛ والمتوقع يقتضي أن يُفسّر هذا العدد بالمفرد لا بالجمع قياسا على غير موضع في كتاب الله منها: (أحد عشر كوكبا)، و(اثنا عشر شهرا). والجانب الثاني للانزياح يتمثّل في أنّه أنّث العدد بقوله (اثنتي عشرة). وظاهر النص يقتضي القول: (اثني عشر) مطابقة مع المعدود المذكّر (أسباطا).

وقد تأوّل النحاة فيما سبق حفاظا على النسق القاعدي، فذهبوا إلى أنّ كلمة (أسباطا) ليست مُمَيِّزا للعدد اثنتي عشرة، بل هي بدل منه، والمميّز محذوف في تقديرهم وهو (فرقة)[١]. جاء عن أبي علي الفارسي قوله: ليس قوله: (أَسْبَاطًا) تمييزاً، ولكنّه بدل من قوله: (اثنتي عَشْرَةَ)[٢]. وذكر ابن هشام أنّ (أسباطاً) بدل من (اثنتي عشرة) والتمييز محذوف أي: اثنتي عشرة فِرْقَةً، ولو كان (أسباطاً) تمييزاً لذُكِّرَ العددان؛ وأفرد التمييز لأن السِّبْطَ مذكر[٣]. وقال ابن السّكيت – في رأيه الذي ينقله ابن منظور في لسان العرب – أن السبط ذَكَرٌ ولكن النية ذهبتْ إِلى الأُمم[٤]. وقال الفراء لو قال: (اثْنَيْ عشَر سِبْطاً) بتذكير السبط كان جائزاً[٥].

أما التوجيه الدّلالي لهذا التركيب القرآني الذي قد ينسجم مع الحدث انسجاما أكثر توافقا من التوجيهات النحويّة السابقة هو أن تمييز العدد المركّب (اثنتي عشرة) ليس محذوفا بل هو كلمة (أسباطا)؛ بناء على دلالة المفردة وانسجامها مع الحدث، فقد جاء في لسان العرب "أنّ السبط من اليهود كالقبيلة من العرب، وهم الذين يرجعون إلى أب واحد، وسميّ سبطا ليفرق بين ولد إسماعيل وولد إسحاق، وجمعه أسباط، وهي الفِرْقة[٦]. فالسياق سياق تكثير، فعدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنا عشر، وكل واحد منهم شكّل سبطا (قبيلة) متكاملة، لذا جاءت العيون بعدد الأسباط لا الأشخاص، ومتفرقة، فجاء في سورة البقرة: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (البقرة: ٦٠)؛ حتى لا يتكالبوا عليها، فالمعدود هنا ليس مفردا وإنما هو عدد دال على قبيلة بأكملها، فيكون التمييز (جمعا) منسجما مع دلالة الحدث الذي تنقله الآية. وكذلك الحال بالنسبة لتأنيث

(١) الزجاج، **معاني القرآن وإعرابه**، ج١/ ص٣٧٧.

(٢) فخر الدين، الرازي، **مفاتيح الغيب**، دار الفكر، لبنان، (١٩٨١)، ج١٥/ ص٣٦.

(٣) ابن هشام، **أوضح المسالك**، ج٤/ ٢٥٧.

(٤) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧/ ص٣٠٩.

(٥) ابن منظور، **المرجع السابق**، مادة (سبط)، ج٧/ ص٣٠٨.

(٦) ابن منظور، **المرجع السابق**، مادة (سبط)، ج٧/ ص٣٠٨.

العدد (اثنتي عشرة)، فقد جاء منسجما مع تمييزه المؤنث، إذ إن السبط بمعنى القبيلة. فواحد الأَسباط سِبْطٌ يُقال: هذا سِبْط وهذه سِبْط وهؤلاء سِبْط جمع وهي الفِرْقة[١]. ونحو ذلك قول النواح الكلابي:

وإنَّ كِلابـــاً هـــذهِ عَشْـــرُ أَبْطُـــنٍ وأَنـــتَ بَـــرِيءٌ مِـــنْ قبائِلِهـــا العَـــشْرِ

قال الخليل: "البطن مذكر وإنما عنى القبائل"[٢].

المطلب الخامس: الاستغناء ببناء القلّة عن بناء الكثرة والعكس

قسم النحاة أوزان جمع التكسير إلى قسمين: مجموعة أوزان القلَّة. ومجموعة أوزان الكثرة. وجمع القلة هو ما وضع للعدد القليل إذ يدلّ على ثلاثة فما فوقها إلى العشرة. وقد حددت جموع القلّة بأربعة أوزان، وهي: (أَفْعُل كأذْرُع، وأَفْعال كأثواب، وأَفْعِلة كأعمدة، وفِعْلة كصبية). ويشارك هذه الأبنية في الدّلالة على القلة جَمْعا التصحيح: المذكر والمؤنّث[٣]. وعلل الرضي ذلك بغلبة استعمالها في تمييز الثلاثة وإيثارها فيه على سائر الجموع[٤]. وحدّ الكثرة ما زاد على ذلك.

وعلى الرغم من أنّ تعدد أبنية الجموع للمفردة الواحدة ظاهرة شائعة في اللغة العربية فإنّ استعمالها في نصّ واحد متجانس لا يمكن أن يُنسب إلى اختلاف لهجات العرب، أو تعدد لغاتهم، بل لا بدّ من أسباب دلالية استوجبت استعمال بناء دون آخر، ونحو ذلك جمع لفظ (حمار) على (فَعِيل) في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨). وعلى (فُعُل) في قوله ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (المدثّر: ٥٠)، فقد قصد بلفظ الحميرِ على (فعيل) الأهليةَ منها التي تستعمل للركوب، أمّا في الآية الثانية فقد قصد بالجمع الحُمُر على (فُعُل) الوحشية منها، جاء عن ابن عبّاس قوله: أراد الحمر الوحشية بقوله (حُمُر)[٥].

---

(١) ابن منظور، **المرجع السابق**، مادة (سبط)، ج٧/ ص٣٠٨.

(٢) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت١٧٣هـ/ ٧٩م)، **الجمل في النحو**، تحقيق: فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، (١٩٩٥)، ص٢٨٨.

(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج٣/٦٠٣.

(٤) الصبان، محمد بن علي، **حاشية الصبان**، تحقيق: طه عبد الرؤوف، المكتبة التوفيقيّة، (د،ت)، ج٤/ ص١٢١ .

(٥) أبو حفص، سراج الدين الدمشقي، (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٩٩٨م)، ج١٩/ ص٥٣٨.

وقد حُملتْ الكثير من الأبنية التي استعملت في غير اختصاصها بالنسبة للقلة أو الكثرة على باب الاستغناء، بمعنى أنّه قد يُستغنى – في الاستعمال – ببعض أبنية القلّة عن بناء الكثرة والعكس. فمن الأول قولهم: أَرْجُل جمع رِجْل بسكون الجيم. وأَعْنَاق جمع عُنُق، وأَفْئِدَة جمع فُؤَاد. فالسبب الذي أوجد فكر الاستغناء في الاستعمال – من وجهة نظر النحاة – عدم وجود بناء مختصّ للمراد التعبير عنه في حالة الكثرة أو القلّة. يقول ابن جنّي: ومن ذلك استغناؤهم بجمع القلة عن جمع الكثرة نحو قولهم :(أَرْجُل) لم يأتوا فيه بجمع الكثرة، وكذلك (شَسُوْع) لم يأتوا فيه بجمع القلة، وكذلك (أيّام) لم يستعملوا فيه جمع الكثرة، ومن ذلك أيضا (دراهم) و(دنانير)، ونحو ذلك من الرباعي وما ألحق به فلا سبيل فيه إلى جمع القلة(١).

وذكر ابن يعيش أيضا أنّ الاسم إذا لم يكن له إلاّ جمع قلّة فقط أو جمع كثرة فقط كان مشتركاً بين القلة والكثرة(٢). وذكر كذلك ابن عقيل أنّ جمع التكسير على قسمين: قلّة وكثرة، ومع ذلك فقد يُستعمل كل منهما في موضع الآخر مجازا، وقد يستغنى ببعض أبنية القلة عن بعض أبنية الكثرة كرجل وأرجل وعنق وأعناق وفؤاد وأفئدة، وببعض أبنية الكثرة عن بعض أبنية القلة كرجل ورجال وقلب وقلوب"(٣).

وجاء في القرآن الكريم في غير موطن ألفاظ من (٣ – ١٠) والمعدود فيها من أبنية جمع الكثرة، مع أن للفظ جمعين مستعملين للقلّة والكثرة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١). فأتى بتمييز العدد (سبع) على بناء الكثرة (سنابل)، وكان الظاهر يقتضي أن يؤتى به على (سنبلات) وهو مستعمل؛ ليطابق معدوده، قياساً على الاستعمال اللغوي؛ إذ إنّ معيار القلّة يتحدد من ٣ – ١٠. إلا أنّ المقام مقام تكثير وتضعيف، فأتى ببناء يناسب البعد الدلالي المراد في هذا السياق وهو مضاعفة الأجر والثواب(٤). وفي هذا ترغيب يناسبه استعمال جمع دال على التكثير. وفي موطن آخر جاء تمييز العدد سبع على أبنية القلّة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ (يوسف: ٤٣). فبقرات جمع قلّة أتي به لمناسبة السياق، وهو سياق قلّة قُصد به

(١) ابن جني، **الخصائص**، ج١/ ص٢٦٧.

(٢) ابن يعيش، علي ابن أبي السرايا (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، **شرح المفصّل**، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠١م)، ج٥/ص٣٩.

(٣) ابن عقيل، **شرح ابن عقيل**، ج٤/ ص١١٤-١١٥.

(٤) أبو حيان، **البحر المحيط**، ج٢/ص ٣١٦-٣١٧.

العدد (سبع) بدلالته العددية المعروفة، فقد كانت رؤيا الملك تشير إلى الجدب والقحط القادم؛ فاختار جمع المؤنث الدال على التقليل.

ومثله أيضاً في جمع (قَرْء) على (قُرُوْء) في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، فقد جاء تمييز العدد ثلاثة جمع كثرة خلافا للمتوقع، ولا يمكن أن يكون من باب الاستغناء الذي قال به النحاة؛ إذ سُمع جمع آخر للمفرد وهو (أَقْرَاْء)[١]. قال الأَصمعي جاء هذا على غير قياس، والقياسُ ثلاثةُ أَقْرُؤٍ. وقال النحويون في قوله تعالى (ثلاثةَ قُروء) بمعنى ثلاثةً من القُروء. الحِيَضُ، والأَقْراء الأَطْهار، وقد أَقْرَأَتِ المرأَةُ في الأَمرين جميعاً، وأَصله من دُنُوِّ وقْتِ الشيء، قال الشافعي: القَرْء اسم للوقت فلما كان الحَيْضُ يَجِيء لِوقتٍ والطُّهرُ يجيء لوَقْتٍ جاز أَن يكون الأَقْراء حِيَضاً وأَطْهاراً[٢]. ولعلّ السياق الذي وردت فيه المفردة هو من حدد طبيعة البناء أن يكون للكثرة، فجاء في كتاب البرهان في علوم القرآن أنّه "أضاف الثلاثة إلى القروء وهو جمع كثرة، ولم يضفها إلى الأقراء التي هي جمع قله. قال الحريري: المعنى لتتربص كل واحده منهن ثلاثة أقراء فلما أسند إلى جماعتهن – والواجب على كل فرد منهن ثلاثة – أتى بلفظ قروء لتدلّ على الكثرة المرادة والمعنى الملموح"[٣]. وقد يُضاف بعد دلالي آخر تحمله الآية، وهو أنّ الأشهر وإن كانت ثلاثة في عددها إلا أنّها تحوي أياما كثيرة، مرورها على المطلقة يتجاوز هذه المدّة بناء على الحالة النفسية التي تمرّ بها؛ فجاء بناء الكثرة منسجما مع هذه الدلالة النفسية في النصّ القرآني.

المطلب السادس: التعاور الزمني

تقسم الأفعال في الدرس النحوي القديم من حيث دلالتها الزمنية إلى ثلاثة أقسام الماضي، والمضارع، والأمر، وهي دراسة لفظية بحتة لا ترتبط بالسياق، فهناك من الباحثين المحدثين من أوصل دلالة الفعل الماضي على سبيل المثال إلى تسع عشرة دلالة، منها: الماضي المطلق، والماضي القريب، واحتمال المضي والاستقبال، والماضي الحاصل في المستقبل، وغيرها. وكذلك الحال بالنسبة للمضارع[٤]. مما يعني أنّ الأزمنة في اللغة العربيّة لم تُدرس دراسة مستقلّة مستوفاة، وإنّما تركّز البحث النحوي القديم على دراستها من حيث علاقتها بالفعل (ماض، ومضارع، وأمر). ولم يدخلوا في

(١) الأزهري، **شرح التصريح**، ج٢/ ص٥٢٢.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج١/ص ١٢٨.

(٣) الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج٤/ ص٢٤.

(٤) السامرائي، فاضل، **معاني النحو**، دار الفكر، عمان، ط١(٢٠٠٠)، ص٣٠٨.

تفاصيلها، ولم يجعلوا لكلّ من الصيغ الزمانيّة باباً خاصاً به، حالها حال اللغات الأخرى؛ إذ نجد الأزمنة البسيطية، والمقيّدة، والمطلقة(١).

فنجد ارتباطا وثيقا بين استعمال الزمن والمعنى الدلالي الذي يقصده التركيب اللغوي، فقد جاء في بعض المواضع في القرآن الكريم وقد استعمل فيها الفعل المضارع موضع الفعل الماضي، والعكس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر:٩). فجمع بين فعلين مختلفين من حيث الدلالة الزمنية الأول: (أرسلَ)، والثاني (تُثيرُ)؛ فكان من المتوقّع أن يقول: فأثارتْ سحاباً؛ إذ الحديث عمّا مضى. إلا أنّ التعاور الزمني في هذه الآية يحمل بعدا دلاليا، وهو استحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة من إثارة السحاب، مستخدما الفعل بدلالته الحاضرة لا الماضية لتفي الصورة حقّها. فقد جاء عن الزمخشري قوله: "فإن قلت: لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله، وما بعده؟ قلت: ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب.... وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تُستغرب، أو تُهمُّ المُخاطَب، أو غير ذلك"(٢).

ونحوه قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج:٦٣). فالمعنى الظاهر يقتضي القول (فأصبحتْ) إذ الحديث كذلك عمّا مضى وانتهى وقوعه من الفعل. وللنحاة أقول في هذه المسألة أيضا، منها: أنّ (أنزل) فعل مضارع في اللفظ ماضٍ في المعنى، على أنّه معطوف على (أنزل)(٣). وردّها المفسرون إلى المعنى المقصود، وهو استمرار بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعمَ عليَّ فلان عام كذا فأروحُ، وأغدو شاكراً له(٤).

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام و فرعون:﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص:٥) مع قوله أيضًا: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص:٦) فإن (المنَّ) على موسى بالنّصر والتّأييد قد تمّ

(١) فريد الدين، آيدن، **الأزمنة في اللغة العربية**، أسطنبول، دار العِبَر للطباعة والنشر، (١٩٩٧)، ص٢ وما بعدها.

(٢) القرطبي، محمد بن أحمد، (ت٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)، **تفسير القرطبي**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، مؤسسة الرسالة، بيروت، (٢٠٠٦)، ج١٤، ص٣٢٧.

(٣) الحموز، **انزياح اللسان العربي الفصيح والمعنى**، ص٦٩.

(٤) الزمخشري، **الكشاف**، ج٣/ ص٢١.

وانتهى، وأصبح من الماضي، ولكن جاء الخطاب القرآني بصيغة المضارع بقوله (نمنُّ) لاستحضار تلك الصورة المشرقة للنصر والتأييد بعد ضعف ووهن، وكأن الأحداث تجري بصورة حاضرة لحظة سماع الخطاب. وكذلك الحال في قوله (نُري) في الحديث عمّا مضى من عاقبة فرعون، حيث جاء التعبير القرآني بصيغة المضارع؛ لاستحضار صورة الهزيمة التي آل إليها فرعون وجنوده.

وذكر هذا التعاور الزمني ابن هشام في المغني، وعدّه من سنن العرب وطرائقهم، حيث "يعبّرون عن الماضي والآتي كما يعبّرون عن الشيء الحاضر؛ قصدا لإحضاره في الذهن حتّى كأنّه مشاهد حالة الإخبار(١). ونحو ذلك قول رؤبة(٢):

جاريةٌ في رمضانَ الماضي

تُقَطِّع الحديثَ بالإيماض

فكان ينبغي القول (قَطَعتْ) فجاء الفعل الماضي على صيغة المضارع استحضارا للصورة التي أرادها الشاعر بصورتها الحاليّة، ووضع المخاطب في بؤرة المشهد. ومثله قول تأبّط شرا(٣):

بِـــأَنّي قَـــد لَقِيـــتُ الغـــولَ تَهـــوي ... بِسَـــــهبٍ كَالصَـــــحيفَةِ صَحصَـــــحانِ

فَأَضـــرِبُها بِـــــلا دَهَـــــشٍ فَخَـــــرّت ... صَـــــــريعاً لِليَـــــدَينِ وَلِلجِـــــرانِ

فلم يقل الشاعر (ضربْتُها) انسجاما مع زمن الحدث، وهو الماضي؛ "لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، وكأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدة"(٤).

وتتضح فكرة ارتباط زمن الفعل بالبعد الدلالي الذي يقصده بصورة أدقّ في القرآن الكريم في إجراء اسم الفاعل مجرى مضارعه، نحو: "إني ضاربُ زيدٍ". "وإنّي ضاربٌ زيدا"، يقول سيبويه: هذا باب من اسم الفاعل "الذي جرى مجرى الفعل المضارع في المفعول في المعنى فإذا أردت فيه من

(١) ابن هشام، **مغني اللبيب**، ج٦/ ص٦٩٤.

(٢) ابن العجاج، رؤبة، **ديوان رؤبة بن العجاج**، تحقيق: وليم بن الورد، دار ابن قتيبة، (د.ت)، ص١٧٦.

(٣) تأبّط شرا، **ديوان تأبّط شرا**، جمع وتحقيق: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط١، (١٩٩٤)، ص٢٢٤.

(٤) الكشاف، **الزمخشري**، ج٣/ص ٦١٠.

المعنى ما أردت في يفعل كان نكرة منوناً وذلك قولك: هذا ضارب زيداً غداً. فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيداً غداً. فإذا حدثت عن فعل في حين وقوعه غير منقطع كان كذلك. وتقول: هذا ضارب عبد الله الساعة، فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيداً الساعة"(١). غير أنه قد جاء في القرآن الكريم ما كان فيه اسم الفاعل دالا على الزمن الماضي وعاملا إلا أنّه إجري مجرى مضارعه، وذلك في قوله تعالى في وصف هيئة أصحاب الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (الكهف: ١٨)، فظاهر النّص يستدعي إضافة اسم الفاعل (باسط) إلى معموله (ذراعيه) انطلاقا من زمن الحدث (الماضي) الذي ينقله النّص القرآني هنا، غير أن البعد الدلالي الذي يتجلى على خلاف الجانب النحوي هو استحضار الصورة وإن كانت في زمن ماض، لتكون ماثلة للمستمع وكأنّها أمام عينيه، فجاء التركيب بما يتناسب مع المُراد، مع استحضاره أبسط عناصر القصّة وهو الكلب، وإن كان مجرّد عنصر استيفاء للمشهد القرآني فقط. وهو شكل من أشكال التصوير الفني في القرآن الكريم في نقله للحدث، يشترك فيه الوصف، والحوار، وجرس الكلمات وغيرها بطريقة تتملاها العين والأذن والحسّ والخيال والفكر والوجدان(٢).

وقد جاء في بعض التراكيب القرآنية عكس ما سبق، بمعنى التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨). إذ إنّ الحديث عمّا سيقع، غير أنّه قد جاء بصيغة الماضي بقوله (نُفخَ)؛ تنبيها على تحقيق وقوعه، لأنّ كل فعل مناط بالله عزّ وجل – وإن كان في المستقبل – إلا أنّه فعل غير مشكوك في حصوله، بالإضافة إلى استحضار المشهد لأخذ العبرة والعظة، جاء في كتاب البرهان أنّ "والفائدة في الماضي إذا أُخْبِر به عن المستقبل الذي يوجب أنه أبلغ وأعظم، لتنزيله الواقع والفائدة في المستقبل، ليثبت هيئة الفعل باستحضار صورته، وليكون السامع وكأنّه شاهد"(٣).

ومثله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (الذاريات: ١٣) فأضيف (يوم) وهو مُشْبه (إذا) في الاستقبال، إلى الجملة الاسميّة، و(إذا) لاتُضاف إليها، وإنّما تُضاف إلى الجملة الفعليّة، فجعله

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج١/ص ١٦٤.

(٢) سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ص٣٧.

(٣) الزركشي، **البرهان**، ج٣/ص ٣٧٨.

سيبويه "مما نزّل فيه المستقبل لتحقق وقوعه بمنزلة ما قد وقع ومضى"(١). ومنه قول الشاعر سواد بن قارب(٢):

فَكُــنْ لِــي شَــفِيْعا يَــوْمَ لاَ ذُوْ شَــفَاعَةٍ بِمُغْنٍ فَتِــيلا عَــنْ سَــوَادِ بــنِ قَــارِبِ

فأضاف (يوم) كذلك إلى الجملة الاسميّة دلالة على تحقق وقوع الفعل وإن كان مستقبلا.

المطلب السابع: المطابقة بين الفعل والفاعل من حيث العدد

ذهب النحاة إلى أنّ الفعل إذا أسند إلى اسم ظاهر (الفاعل)، فهو مفرد في كلّ حال، بمعنى أنّه يُجرّد من علامة الجمع أو التثنية. ونحو ذلك قولنا: جاء الزيدُ، وجاء الزيدان، وجاء الزيدون. وقال ابن مالك في ألفيته (٣):

ووحِّــــدِ الفِعــــلَ إذا مــــــا أُسْــــنِدا لاثْنينِ أو جَمْــعٍ، كــــ: (فــازَ الشُّــهَدا)

فالفعل مفرد في جميع حالاته الإسناديّة. وقد جاء في بعض تراكيب القرآن الكريم ما خالف هذا النسق القاعدي للاستعمال وارتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الدّلالي، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٧١). وخرّج النحاة الانزياح في الآية السابقة على أنّه لغة خاصة لبعض العرب. واصطلحوا على تسميتها بلغة (أكلوني البراغيث)(٤)، وهناك من أطلق عليها لغة: (يتعاقبون فيكم ملائكة)(٥). وتنسب هذه اللغة إلى قبائل: (طيء، وأزد شنوءة، وبلحارث)، وهي من أفصح القبائل العربية لسانا(٦). وقد وصفها ابن يعيش بأنّها: لغة فاشية لبعض

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج٣/ ص١١٩.

(٢) السيوطي، **همع الهوامع**، ج١/ص ١٢٧.

(٣) ابن عقيل، **شرح ابن عقيل**، ج١/ ص٢٢٤.

(٤) السيوطي، **الهمع**، ج٤/ ١٦٠.

(٥) جلال الدين السيوطي، **الأقتراح في أصول النحو**، مطبعة السعادة، القاهرة ، (١٩٧٦)، ص٥٥.

(٦) الأندلسي، أبو حيان، **ارتشاف الضرب**، تحقيق: رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٩٩٨)، ج٢/ص٧٣٩.

العرب[١]. وذكرها السيوطي في الهمع، فقال: ومن العرب من يلحق الألف والواو والنون على أنّها حروف. وهذه اللغة يسميها النحويون لغة (أكلوني البراغيث)[٢].

ومن ذلك قول أمية بن أبي الصلت[٣]:

يلومُـــونَنِي فـــي اشْـــتِراءِ النَّخِيـــ ـــــلِ أهلـــــي فكُلُّهـــمُ أَلُـــوم

حيث طابق الشاعر بين الفعل (يلومونني) وفاعله (أهلي). ومثله قول الشاعر[٤]:

نَصَروكَ قَـوْمي فـاعْتَزَزْتَ بِنَصْـرِهِم ولَـوَ أَنَّهُـمْ خَـذلوك كُنْـتَ ذَلِيـلا

فقد ألحق واو الجماعة بفعل "نصر" مع أن الفاعل مذكور بعده؛ وهو "قومي".

ولم ينكر سيبويه هذه اللغة، وعدّها بمثابة علامة التأنيث في الفعل المسند إلى الفاعل المؤنث، إذ يقول: "واعلم أنّ من العرب من يقول: ضربوني قومُك، وضرباني أخواك فشبهوا هذا بالتاء التي يظهرونها في نحو قالت فلانة؛ وكأنّهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث وهي قليلة"[٥].

وربّما كان لاستعمال واو الجماعة في (صمّوا) و (عموا) أثر في إبراز المعنى الدلالي المُراد، وهو المبالغة بالفعل، الذي وردت الإشارة إليه في الآية الأولى بقوله تعالى (كثيرٌ). وكذلك الحال في (صموا) و(عموا)؛ فالإعراض عن ذكر الله مهما قل إلا أنّ أثره كبير على العبد، فجيء بالواو دالة على هذا المعنى بما يتناسب والسياق الذي وردت به، وكذلك الحال في قول الشاعر السابق: (يلومونني في اشتراء النخيل أهلي) بدلا من (يلومني)، فالملامة وقعت على الشاعر من الأهل جميعا بصورة مبالغ فيها فأثّرت عليه تأثيرا بالغا، وهذه الواو معبّرة عن هذه الحالة النفسية للشاعر فلم يستثنه من اللوم أحد من الأهل ليخفف عليه. ومثله كذلك قول الآخر (نصروك قومي)، فربّما جيء بالواو في قوله

(١) ابن يعيش، **شرح المفصل**، ج٢/ ص٢٩٦.

(٢) السيوطي، **الهمع**، ج٤/ ص١٦٠.

(٣) ابن أبي الصلت أمية، **ديوان أمية بن أبي الصلت**، تحقيق: سجيع جميل الجبيلي، دار صادر، بيروت، (١٩٩٨)، ص٤٨.

(٤) يعقوب، إميل بديع، **المعجم المفصل في شواهد العربية**، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٦م)، ج٦/ ص١٤٠.

(٥) سيبويه، **الكتاب**، ٢/ص ٤٠- ٤١.

(نصروك) بدلا من (نصرك) ليتناسب مع دلالة التّكثير والمبالغة بالفعل التي أراد، ومدح القوم بوحدة النُصرة وتفاني الجمع بها دون تخاذل من أحد أفراد قومه.

ويتأكّد البعد الدلالي للمطابقة بين الفعل والفاعل في العدد، وذلك بإيراد علامة الجمع مع الفعل في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (الأنبياء: ٣). للنحاة فيها تأويلات متعددة، منها: أنّ موضع (الذين) رفع على البدل من الواو في (أَسَرُّوا). أو أنّ موضعه رفع بإضمار فعل تقديره: يقول الذين ظلموا. أو أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين ظلموا.أو أن يكون رفعا بـــ (أَسَرُّوا) على لغة من قال: أكلوني البراغيث[١]. إلا أن مجيء الواو ربما يحمل بعدا دلاليا أسمى من التقديرات السابقة، وهو معنى تكثير عدد الفاعلين بناء على طبيعة الفعل وهو إسرار النجوى مع النهي عنه، فأخفى هؤلاءِ الطاغُون تناجيهم ومسارتهم حين يثبطون المؤمنين ويَصُدُّون الناس عن الإسلام، بِتنْقِيص الرسول وتكذيبه، وإثارة النفوس عليه فقد جاء في كتاب مجاز القرآن قوله: قال آخرون: بل قد تفعل العرب هذا فيُظْهرون عددَ القوم في فعلهم إذا بدءوا بالفعل، نحو: (ضَرَبُونِي قَوْمُكَ)[٢]. وجاء أيضا في روح المعاني: أنّ النجوى اسم من التّناجي ولا تكون إلا سرّا فمعنى إسرارها المبالغة في إخفائها[٣].

النتائج:

تناولت هذه الدراسة بالبحث والتحليل نماذج من الانزياح اللغوي في القرآن الكريم محاولة ربطها بالمعنى الدّلالي الذي حققته في سياقات تتناسب مع التنزيل، وخلصت إلى جملة من النتائج منها:

- ركّز التحليل النحوي القديم في دراسته للانزياح اللغوي في القرآن الكريم أو في لغة العرب على المعنى النحوي والتأويل بصورة تفوق المعنى الدلالي.
- لا يمكن حمل الانزياح اللغوي في القرآن الكريم على أنّه مجرّد لغة خاصّة أو لهجة لبعض القبائل العربيّة، وإنّما هو فعل مقصود يحمل أبعادا دلالية.

---

(١) القيسي، مكي بن أبي طالب، **مشكل إعراب القرآن**، ٢ج، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤٠٥هـــ)، ج٢/ ص٤٧٧.

(٢) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، **مجاز القرآن**، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٣٨١هـــ)، ص٧٨.

(٣) الألوسي، **روح المعاني**، ج١٧/ ص٧.

- كانت محاولات تطويع النصوص للقواعد النحوية بائنة الأثر في توجيه بعض نماذج الانزياح اللغوي في القرآن الكريم.
- أخذت بعض الدراسات اللغويّة الحديثة تستقي منهجها من الدرس البلاغي الذي عنى بالناتج الدلالي للتراكيب اللغوية أكثر من عنايته بالإعراب وتقديراته.
- ارتبط تأنيث الفعل أو تذكيره في بعض نماذج الانزياح في القرآن الكريم بطبيعة الفعل التي أنيطت بالفاعل، وليس من مبدأ جواز الحالتين: التذكير والتأنيث فقط.
- ارتبط الانزياح اللغوي للعلامة الإعرابية بدلالات تجاوزت حدود المعنى النحوي وقواعد الإعراب، أو تقارض اللفظين في الأحكام – منها ما عبّر عن الحالة النفسية للمتكلّم، وتحوّل النمط الدّلالي للتركيب وغيرها.
- دلالة الكثرة أو القلّة لا تتحدد بالعدد أو بالبناء، وإنّما الأساس القرينة الدالة على الكثرة من القلّة أو العكس.
- حَمل تعاور الأزمنة في الاستعمال القرآني دلالات متعددة، منها: وضع المُخاطب في بؤرة الحدث المقصود. ومطلق تحقق الأفعال التي أسندت إلى الله عزّ وجلّ.
- نهضت المطابقة بين الفعل وفاعله الجمع بإبراز المبالغة بالفعل سواء في التراكيب القرآنية أو في الاستعمال الفصيح عند العرب بما يتناسب والسياقات التي وردت فيها.

المراجع

ابن الأثير، ضياء الدين، (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

الأزهري، خالد بن عبد الله، (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، شرح التصريح على التوضيح، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية بيروت، (٢٠٠٠).

الأستراباذي، محمد بن الحسن، (٦٨٦هـ/ ١٢٤٧)، شرح الرضي على الكافية، تعليق: يوسف حسن، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، (١٩٩٦).

الإشبيلي، عبيد الله بن أحمد، (ت١٢٧٠هـ، ٨٥٤م)، البسيط في شرح جمل الزجاجي، تحقيق: عيّاد بن عيد الثبيتي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (١٩٨٦م).

الألوسي، محمود أبو الفضل، (١٢٧٠هـ/ ٨٥٤م)، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

الأنباري، عبد الرحمن بن أبي الوفاء، (ت٣٠٤هـ/ ٧٩٠م)، أسرار العربية، تحقيق: فخر صالح قدارة، دار الجيل – بيروت، ط١، (١٩٩٥).

الأندلسي، أبو حيان، (ت٦٥٤هـ – ١٢٥٦م)، ارتشاف الضرب، تحقيق: رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٩٩٨).

بدوي، أحمد، من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر الفجالة، القاهرة، (١٩٥٠).

البديرات، باسم، البطاينة، وحسين، "أسلوب التعجّب في الدرس النحوي القديم بين المعنى النحوي والمعنة الدلالي"، مجلة جامعة الخليل، الخليل عدد، (٢٠١٥م).

البديرات، باسم، والذنيبات، فايز، "بلاغة الاستعمال القرآني للمفردات السامية"، المجلّة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، (٢٠١٧م) مجلد (١٣)، العدد٤.

الجرجاني، عبد القاهر، (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، دلائل الإعجاز، تحقيق رشيد رضا، ط٢، (د.ن).

حجازي، محمود فهمي، مدخل إلى علم اللغة، الدار المصرية السعودية، القاهرة، (٢٠٠٦).

حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، (١٩٩٤).

أبو حفص، سراج الدين الدمشقي، (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١ (١٩٩٨م).

الحموز، عبد الفتاح:

الحمل على الجوار في القرآن الكريم، مكتبة الرشيد، الرياض، (١٩٨٥).

اللسان العربي الفصيح والمعنى، دار جرير، الأردن، ط١، (٢٠١٣م).

الخرشة، أحمد غالب، أسلوبيّة الانزياح في النّصّ القرآني، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، (٢٠٠٨م).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة (٣٠٠٤).

الدمشقي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد، (ت٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م)، تفسير سورة الفاتحة، تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله، دار المحدث للنشر والتوزيع، (١٤٢٧ه).

الدمياطي، شهاب الدين، (ت١١١٧هـ/ ١٧٠٥م)، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان، (١٩٩٨).

ربابعة، موسى، "الانحراف مصطلحا نقديا"، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، جامعة مؤتة، المجلد العاشر، (١٩٩٥م)، العدد الرابع.

الزجاج، أبو إسحاق، (ت٣١٠ه/ ٩٢٣م)، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت، (١٩٨٨).

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، (ت٧٤٥هـ/ ٣٩٢م)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، (د.ت).

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)، الكشاف، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

زوين، علي، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافيّة العامة، ط١، (١٩٨٩م).

السامرائي، فاضل، معاني النحو، دار الفكر، عمان، ط١(٢٠٠٠).

ستيفن، أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، دار غريب، مصر، ط١.

السعران، محمود، علم اللغة: مقدّمة للقارىء العربي ، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢،(١٩٩٧).

سيبويه، عمرو بن عثمان، (ت٨٠هـ/ ٧٩٦م)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٩٨٨).

سيّد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي، (ت١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م) التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، (٢٠٠٤).

ابن سيده، أبو الحسن، (٤٧٨هـ/ ١٠٦٦م)، المخصص، دار الكتب العلميّة، بيروت، د، ت.

السيوطي، جلال الدين، (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: عبد الإله نبهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (١٩٨٥م).

الصبان، محمد بن علي، حاشية الصبان، تحقيق: طه عبد الرؤوف، المكتبة التوفيقيّة، (د،ت).

الطبري، أبو جعفر، (٣١٠م/ ٩٢٣م)، التفسير الكبير، تحقيق: محمود محمد شاكر وآخر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د.ت).

ابن عاشور، محمد الطاهر، (ت١٣٩٤هـ/ ١٩٧٣م)، تفسيير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، (٢٠٠٠م).

عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، (١٩٩٧م).

أبو عبيدة، معمر بن المثنى، (ت٢٠٩هـ/ ٨٢٤م)، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى، القاهرة، (١٣٨١هـ).

عمايرة، خليل أحمد، في نحو اللغة وتراكيبها، دار المعرفة، (١٩٨٤).

عمر، أحمد مختار:

دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، عالم الكتب، القاهرة، ط١، (٢٠٠١).

علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، (٢٠٠٩).

عمران، حمدي بخيت، علم الدلالة بين النظرية والتطبيق، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١، (٢٠٠٧).

أبو الفتح، عثمان ابن جني، (ت٣٩٢هـ/١٠٠٢م)، الخصائص، تحقيق: محمد النجار، دار الكتب العلميّة، مصر، (د.ت).

الفرّاء، أبو زكريا، (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، (د.ت).

الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت١٧٣هـ/ ٧٩م)، الجمل في النحو، تحقيق: فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، (١٩٩٥).

فريد الدين، آيدن، الأزمنة في اللغة العربية، أسطنبول، دار العِبَر للطباعة والنشر، (١٩٩٧).

القرطبي، محمد بن أحمد، (ت٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)، تفسير القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، مؤسسة الرسالة، بيروت، (٢٠٠٦).

القيسي، مكي بن أبي طالب، (ت٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م)، مشكل إعراب القرآن، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤٠٥هـ).

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، تفسير ابن كثير، تحقيق: محمود حسين، دار الفكر، (١٩٩٤).

لاشين، عبد الفتاح، معاني التراكيب، دار الطباعة المحمديّة، القاهرة، (١٩٨٣م).

ابن مالك، محمد بن عبد الله، (٦٧٢هـ/ ٢٧٤م)، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي، دار هجر للطباعة والنشر، (١٩٩٠).

المبيضين، ماهر أحمد، "الانزياح في شعر امرئ القيس"، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعيّة، المجلّد (٩)، عدد(٢).

المُجَاشِعِي، أبو الحسن علي بن فَضَّال، (ت٤٧٩هـ/ ٠٨٦م)، النكت في معاني القرآن الكريم وإعرابه، تحقيق: عبد الله عبد القادر الطويل،دار الكتب العلمية، بيروت،(٢٠٠٧).

مصطفى، إبراهيم، إحياء النحو، القاهرة، (١٩٩٢).

مطاوع، عطية علي، إشكالية الترادف، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، (٢٠٠٦)م، ص١٠

أبو المكارم، علي، أصول التفكير النحوي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، (٢٠٠٦).

ابن منظور، محمد بن مكرم، (٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت).

النحاس، أبو جعفر، (ت٣٣٨هـ/ ٩٤٩م)، إعراب القرآن، دراسة: الشيخ خالد العلي، دار المعرفة، بيروت، (٢٠٠٨).

ابن هشام، أبو محمد عبد الله الأنصاري، (ت٧٦١ه/١٣٥٩م):

أوضح المسالك، تحقيق: محمد محيي الدين، المكتبة العصريّة، بيروت، (د.ت).

شرح شذور الأنصاري في معرفة كلام العرب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، (٢٠٠٤).

شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، (ط١).

مغني اللبيب، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب، (د.ن)، (د.ت).

يعقوب، إميل بديع، المعجم المفصل في شواهد العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٦م).

ابن يعيش، علي ابن أبي السرايا (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، شرح المفصّل، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠١م).

أثر اللسانيات التداولية في فهم الدلالات البلاغية للتشبيهات في العربية

د. هاجر أحمد المومني*

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٢٠/١/٢١م. تاريخ قبول البحث:٢٠٢٠/٧/١٢م.

ملخص

يدور هذا البحث حول أثر اللسانيات التداولية في الوقوف على فهم دقيق لأنواع التشبيه، والدلالات التي يستخلصها المنهج اللساني التداولي من ترتيب لنشأة كل واحد من التشبيهات في العربية، والكشف عن ارتباط ذلك بالتطور التاريخي للعربية بأسرها. ففي الوقت الذي كانت فيه العربية تشق طريقها إلى التطور ك انت البلاغة تقدم نفسها جزءًا من هذا التطور. ولقد كان العرب على الرغم من الأمية الشائعة بينهم على قدر كبير من البلاغة.

بناء على ذلك فإن البحث يهدف إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١. ما الدلالات التي يمكن استنتاجها من التشبيهات التالية: التشبيه المرسل المفصل، التشبيه المرسل المجمل، التشبيه المؤكد المفصل، والتشبيه المؤكد المجمل (البليغ).
٢. لماذا ظلت هذه التشبيهات جارية على ألسنة العرب مع أن التطور يقتضي غالبا الاستغناء عن بعض المراحل فيطويها النسيان؟
٣. ما التصور الذي يمكن وضعه للترتيب التاريخي لهذه التشبيهات باستعمال المنطق اللساني التداولي الذي يعمل في هذه الحال من الداخل؟

* مركز اللغات وَقِسْمُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة، جامعة اليرموك، إربد/الأردنّ، الرَّمز البريديّ: (٦٣-٢١١)، ص.ب: (١٢٠٥).
قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الإمارات العربيّة المتّحدة، العين/الإمارات العربيّة المتّحدة، ص.ب: (١٥٥٥١).

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

٤. ماذا يمثل التشبيهان التمثيلي والضمني من تطور الوعي الجمالي في العربية؟

أما المنهج المُتّبَع في هذا البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي. أما كونه وصفيا فلأن الوصف هو الطريق الصحيحة في استقراء التشبيه، ووصف بياناته، واستقراء دقائقه وتفصيلاته. وأما كونه تحليليا فلأن الموضوعات البلاغية تحتاج إلى تأمل واستنباط، وهما أمران يحتاجان إلى تحليل للوقوف عليهما في البلاغة العربية، وبخاصة تشبيهاتها. والبلاغة وعي جمالي قبل كل شيء، فهي لذلك في حاجة إلى تحليل.

وقد توصل البحث إلى نتائج كثيرة منها: أن التشبيه ضرب من المبالغة، ولكنه ليس من المبالغة بالمفهوم الشائع عند البلاغيين والنحاة. ومنها أنه وضع تصورًا لترتيب نشأة كل واحد من التشبيهات، وأن أقدم التشبيهات نشأة هو التشبيه الذي تجتمع فيه الأركان الأربعة. هذا في التشبيه المفرد. وأما التشبيه التمثيلي فهو أحدث نشأة، ولكن التشبيه الضمني هو أحدث التشبيهات نشأة في تاريخ العربية، بمقتضى النظر اللساني التداولي. ومن هذه النتائج أني وجدت أن دواوين كاملة من الشعر العربي القديم ليس فيها تشبيه ضمني واحد.

الكلمات الدالة: اللسانيات التداولية، التشبيه، البلاغة.

The Impact of Linguistic Pragmatics in the Process of Understanding the Meanings of Simile in Arabic

Dr. Hajar Ahmad Al-Momani

Abstract

This research aims at clarifying the impact of linguistic pragmatics in the process of understanding the meanings of simile in Arabic. This could be underlined in the following questions:

1. What kind of meanings can be extracted from of simile in Arabic?
2. Why did the popular similes continue to exist despite the fact that some stages of development can be dispensed?
3. How can we build a conception of chronological order for similes?
4. How can we extract the aesthetic Arabic conception of simile?

This research has been built according to the descriptive methodology.

The research ended up with the following results:

1. The meanings of similes are different according to the existence of the structure of each simile.

2. The popular similes continue to exist according to the functions.

3. The chronological order of the similes is built according to the principles of language development.

Keywords: Simile, Popular Simile, Aesthetic Conception.

مهـــاد:

اللسانيات توجّهٌ حديث في الدرس اللغوي المعاصر، ولكنّ له جذورًا راسخة في التراث النحويّ والبلاغي والدلاليّ. وهو منهج يتجاوز التنظيم الشكلي، ويَـفْـتَـنُّ في فهم أبعاد الكلام من حدودها الدنيا، إلى حدودها القصوى، ليجعل البلاغة أكثر من مجرد كونها تحليلا شكليا يحتكر في شكلانيته التصنيفات التقليدية للدرس البلاغي. وهذه المسألة هي التي جعلت البحث محصورًا في هذه المشكلة العلمية بالاستقصاء والتحليل، فكان البحث موسوما بكلماته المُـحَـدِّدَة للمشكلة:

أثر اللسانيات التداولية في فهم الدلالات البلاغية للتشبيهات في العربية:

لم تكن صلة اللسانيات بالبلاغة يوما صلة مفتعلة، بل هي صلة فاعلة على المستويات العلمية ذات الجانب التاريخي، والجانب الموضوعي. أما من الجانب التاريخي فإن اللسانيات التاريخية تجعل فهم الباحث يمتد إلى تاريخ البلاغة، فيحدد مواقعها التطورية على نحو محكوم بالمنطق العلمي، فيقفُ على ترتيب تطور الموضوعات البلاغية في اللسان العربي، ترتيبا يدل على تطور الذوق العربي نحو مراقي الكمال في الكلام. وأما من الجانب الموضوعي فإن اللسانيات لا تحصر نفسها بموضوعات محددة تحصر الفهم في تفكيك بنية تشبيهية أو مجازية أو استعارية أو كنائية، مع الاحتفاظ بالقول على أهمية ذلك طبعا. ولكنها علاوة على ذلك تبسط جناحيها على المتداول في اللسان العربي، فيصبح كل استبطان لوارد الكلام وشارده استجلاء لبلاغته، بل إنها تنظر في الأطر والمضامين النحوية لتجعل النحو بلاغة، فتصحَّ المقولة اللسانية: النحو بلاغة والبلاغة نحو مقولة صادقة موافقة لمنهج الجرجاني في الربط بين النحو والمعنى والبلاغة.

وتظهر أهمية هذا التناول في أنه يتجاوز المألوفات إلى فهم أبعادها المكتنزة بالعدول حينا والموافقة حينا آخر. وهذا أمر في غاية الوضوح الذي يخفى على بعض النّاس، فما كانت أنواع التشبيه مثلا لتملأ ذاكرة الكلام من قبيل الترف اللغوي، ولكنها كانت عدولا وموافقة بمقتضى تطور الذهنية الجمالية عند العرب. كانت عدولا عن تشبيه معين يملأ حيزاً في مفاتن الجمال لسانا وسمعا وتصورا، إلى تشبيه آخر اقتضاه التفكير البلاغي الراقي عند العرب. وهما – عدلا ومعدولا عنه – يمتحان من بئر واحدة، إنها التطور الذوقي الجمالي في اللسان العربي. ومن المؤسف أن البحث العربي لم ينظر

إلى التطور البلاغي على اعتبار أنه هو نفسَــه مَــرقى جمالي. لقد أتى على البحث البلاغي حين من الدهر كان مقتصرًا على بعض وجوه الوعي البلاغي عند العرب، ولم يتجاوزها. ولكنّ عبد القاهر الجرجاني وضع المعالم الرئيسية للتصور التداولي الذي يكشف عن جماليات اللسان العربي على نحو مختلف عما جرى عليه الأمر في البلاغة التقليدية. ولا شك أن هذا البحث قد أفاد كثيرًا من الجرجاني، أفاد منه موجها، وأفاد منه في أنه فتح له أبوابا أخرى ولَــجَ منها إلى حقائق أخرى كثيرة.

المبحث الأول: مقدمات منهجية

يتضمن هذا المطلب نُــبَــذًا عن المقدمات المنهجية الآتية: المشكلة البحثية التي على أساسها بُني البحث، والأهمية التي يُتوخى الوصول إليها ومن شأنها أن تُسهم في فهم التطور الذي نشأت وترعرعت الفنون البلاغية بمقتضاه على ألسنة العرب، وهذا له صلة كبيرة بالهدف الأساسي لهذا البحث، فبمقدار ما يتحقق من هذا الهدف تكون أهمية البحث التي يقف عندها القارئ الحصيف، ثم المنهج الذي اتُّــبع في الوصول إلى الهدف، والدراسات السابقة. وهذا بيان ذلك:

مشكلة الدراسة:

كانت البلاغة عند العرب إبداعا في التصور ينجم عنه إبداع في القول. والإبداع في القول وسيلة إلى بلوغ درجة عالية من التأثير في نفس المتلقي. فالقول البليغ ليس غاية في ذاته، ولكنه وسيلة راقية لخروج المتكلم من حوزة التعبير المباشر، إلى آفاق فهم الجمال المتمثل في الربط بين التبصر ولغة التعبير عنه. وهذه درجة متقدمة في اللسانيات التواصلية. وقد حاول المشتغلون بالبلاغة من علماء العربية أن يقفوا على حقيقة الجمال البلاغي في العربية، فكان استخراجهم لبعض ما صار يُسَمّى فنون البلاغة، كالتشبيه، والمجاز، والاستعارة، والكناية، ثم فرّعوا على كل فن من هذه الفنون فروعا أخرى، ثم أخذوا يبحثون عن أركان كل واحد منها، حتى صار الدرس البلاغي أشبه ما يكون بعملية التفكيك، وهي طريقة تعليمية تقليدية لا توقف المتعلمين بالضرورة على أسرار بلاغة اللسان العربي.

عمل عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) على إيجاد منهج جديد لفهم أسرار البلاغة، منهج يختلف تماما عن المنهج التقليدي. وقد بنى منهجه هذا على أمرين هما: نظم الكلام، والمعنى. وقد أفاض في شرح هذين المكوّنين الأساسيين اللذين يغطيان مساحة واسعة من اللسانيات التداولية. ونظرًا لغياب التدوين الذي نستطيع أن نحدد به تاريخ كل فن من فنون البلاغة، والتطور الذي حصل له على ألسنة العرب، فإن اللسانيات تستطيع أن تستقرئ هذه الفجوات، فتسدها بمعلومات من داخل هذه الفجوات. ليس المطلوب هو الوقوف على النشأة التاريخية المحددة لكل لون من ألوان البلاغة، ولكن المطلوب هو الوقوف على الترتيب في التطور لهذه الفنون، والوصول إلى فهم أدق لدلالات المضامين البلاغية. ومن هنا كانت صياغة مشكلة البحث على النحو الآتي:

أثر اللسانيات التداولية في فهم الدلالات البلاغية للتشبيهات في العربية

أهمية هذه الدراسة وأهدافها:

كان دارسو تاريخ البلاغة العربية يبحثون عن التسلسل التاريخي لما قـدّمه البلاغيون من فُهوم وآراء في تشكيل الرؤية البلاغية عند العرب، حتى أصبحت البلاغة علما مستقلا من علوم العربية. تجد بعضهم يبدأ من أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ) وما وضعه من آراء في فهمه للمجاز في كتابه مجاز القرآن، وهو فهم واسع فضفاض، يشمل كل تغيير في اللغة عن أصل وضعه. من ذلك مثلا أنه جعل الكلام الذي فيه لغتان مجازًا، فقال في تذكير "الأنعام" من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ (النحل ٦٦): "ومن مجاز ما فيه لغتان فجاء بإحداهما (ثم ذكر الآية) فالأنعام يُذكّر ويؤنث"[١]. ويظهر الجاحظ بعد ذلك (ت ٢٥٥هـ)، وما قدّمه من آراء مبنية على الذوق الرفيع والفهم العميق في فهم عُلـوّ التعبير في اللسان العربي. وظهر بعد ذلك علماء وأدباء كثيرون، كان لكل واحد منهم بصمة في تطوير النظر البلاغي الذي بمقتضاه يتذوق المرء الكلام البليغ. لكنّ أبرزهم على الإطلاق عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) الذي وضع أسس نظرية كاملة للبيان العربي، هي نظرية النظم، وفيها يربط بين النحو والبلاغة ربطا قويا، حتى إنك تتصور المقولة

(١) معمر بن المثنى، مجاز القرآن ج ١، تحقيق محمد فؤاد سزكين، القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت، ص ١٥.

اللسانية المعاصرة: النحو بلاغة، والبلاغة نحو، ماثلة أمام عينيك. ثم ظهر بعد ذلك علماء كثيرون عملوا على تطوير النظر البلاغي الذي به يُـتـذوق الكلام البليغ، إلى أن جاء السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، وألف كتابه: المفتاح وقد ظهرت فيه النزعة التعليمية أكثر من الحرص على بيان الذوق الرفيع في اللسان العربي. وكان لهذا الكتاب أثر كبير في ما جاء بعده من علوم البلاغة.

إن التأريخ (بالهمزة لا بالألف) بالعصور والسنوات، لتطور علوم البلاغة العربية أمر غير منكور، لأنه يكشف لنا عن تطور علوم البلاغة. لكن هذا البحث لا يهدف إلى الوصول إلى هذه الغاية، فقد أشبعها العلماء والدارسون بحثا، وفي ما قالوه خير كثير. ولكن البحث يهدف إلى تطور الفن البلاغي نفسه عند العرب أنفسهم، بغض النظر عن الدرس البلاغي عند العلماء في العصور اللاحقة. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث، فإن أحدًا من الباحثين لم يحفل بهذا الموضوع، وسنرى تحقق هذا التصور في أثناء هذا البحث. وإن معرفة ذلك من شأنه أن يوضح كيف تطور الذوق العربي نفسه، وكيف أن الوعي البلاغي كان عاملا رئيسا في تطوير العربية، كما كان الوعي اللغوي عاملا أساسيا في تطوير الوعي الجمالي بعامة، والوعي البلاغي بخاصة.

أسئلة الدراسة:

ثمة سؤال رئيس تهدف الدراسة إلى الإجابة عنه وهو: هل يمكن قراءة تطور الفن البلاغي الذي كان يجري على ألسنة العرب بمقتضى النظر التداولي التقديري؟ وهناك أسئلة أخرى فرعية تنبثق من هذا السؤال وهي:

١. ما أغراض التشبيه التي كانت تجري على ألسنة العرب؟ وما علاقة ذلك بالتطور اللغوي؟
٢. ما التصور المفترض الذي على أساسه يمكن تحديد الترتيب الذي يمكن على أساسه معرفة نشوء كل فرع من فروع التشبيه معرفة تقريبية؟ وما علاقة ذلك بالتطور اللغوي؟
٣. ما علاقـــة الربط بين أدوات التشبيه بالوظائف الجمالية التي تحملها تلك الأدوات في التشبيه؟
٤. ما التفسير الذي يمكن تبنيه لكثرة ورود التشبيه في الشعر بخاصة، والأدب بعامة؟

منهج الدراسة:

قــد يُظنّ أن منهج هذه الدراسة هو المنهج التاريخي، وليس الأمر كذلك، فإن هذا هو منهج العلماء المعاصرين الذين أحسنوا استخدامه في فهم علم البلاغة من حيث هي علم. منهج هذا البحث هو المنهج اللساني التداولي في قراءة تطور فنون البلاغة، لا من حيث هي قواعد علمية استنبطها العلماء جيلا بعد جيل. وهذا منهج مختلف عن المنهج التاريخي البحت، من حيث إن هذا الأخير يُقدر التطور تقديرًا استنتاجيا، فهو كما يسمى في الدرس اللساني المعاصر: ما بعد المنطوق metalanguage، لأن أحدًا لا يستطيع أن يحدد الزمن المحدد الذي نشأ فيه كل فرع من فروع التشبيه على ألسنة العرب، ولا أقصد علماء البلاغة، ولكن النظر اللساني التداولي يساعد على وضع تصور للترتيب التطوري لفروع التشبيه مثلا. وهذا هدف أساسي يسعى هذا البحث إلى الولوج في خِضَمّه.

لا يسعى المنهج اللساني التداولي الحديث إلى إحلال نفسه محل البلاغة، ولكنه يشق الطريق إلى فهمها، مع ما يقتضيه ذلك من الولوج في المضمون الدلالي للكلام، وتذهب بعيدًا في استخراج مضامينه الدلالة في الفكر والجمال.

الدراسات السابقة:

لم يكن البلاغيون مَعنِيّين بدراسة تطور الفنون البلاغية دراسة تعمل على ترتيب نشوء كل فن من فنونها، ونشوء كل فرع من فروع هذه الفنون. ولذلك لم ينصرف اهتمامهم إلى هذا الموضوع. وما ورد من لفتات ذكية عند الجاحظ في البيان والتبين تدل على انبهار السامعين بالقول الرفيع، والكلام البليغ. وما جاء في كتاب الدكتور شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ فهو دراسة تاريخية معمقة للدرس البلاغي عند العلماء والمفسرين، وليس دراسة لتطور الفن البلاغي نفسه عند العرب. وقد عمل ما كان يجري من تسابق بين الشعراء في سوق عكاظ وذي المجاز وغيرهما هو من هذا القبيل. ولذلك يبدؤون به باعتباره منشأ تاريخيا مقروءًا لتاريخ البلاغة. لا نستطيع القول إن المكتبة البلاغية ليس فيها شيء مما يريد البحث أن يصل إليه. لقد أمدّت مراجع هذا البحث تصورات أساسية بمادة غزيرة.

المبحث الثاني: التشبيه – تعريفه، أنواعه، وتطوره

في هذا المبحث مطلبان هما: مفهوم التشبيه وتعريفه، والثاني أنواع التشبيه وتطورها بالتقدير التداولي.

المطلب الأول: تعريف التشبيه

يُعَــرّف بعضهم التشبيه بأنه "الدلالة على مشاركة أمر لآخر" و بأنه "إلحاق أمر بأمر بأداة التشبيه لجامع بينهما"[(١)]. إن التشبيه أكثر من كونه مشاركة، وإلا لصح أن تكون عبارة: "زيد شريك لعمرو في المسؤولية" تشبيها، وليس الأمر كذلك. ولو كان إلحاقا لكانت عبارة: "فلان ملحق بنسب بني فلان" تشبيها، وما هو كذلك. والذي نراه أن التشبيه وصف شيء بشيء آخر لصفة أو أكثر مشتركة بينهما.

وبمقتضى النظر التداولي، فإن وصف المشبه بالمشبه به لا يعني أنهما قــد أصبحا متطابقين، فقولنا زيد كالأسد، يعني بادي الرأي أنه ليس أسدًا، ولكنه يشبهه، ويعني كذلك أنّ المشبه به غاية يُتوخى الوصولُ إليها. ولذلك قالوا: المشبه به أقوى من المشبه، أي أن المشبه به أقوى في الصفة من الركن الأول الذي هو المشبه. ولولا ذلك لما كان لتشبيه شخص بأنه أسد قيمة تُرجى. وينطبق هذا على التشبيهات السلبية والسالبة. أما السلبية فهو أن تشبّه شيئا مكروها بشيء آخر مكروه، كأن تقول فلانٌ كالثعبان. وأما السالبة فكالنفي في مثل قوله تعالى: (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى) (الحج٢)، فنفيُ كونهم سكارى بعد أن وصفهم بأنهم سكارى، يعني أن ثمة صفة مشتركة بين المشبه والمشبه به، تكون موجودة في السكارى، فهم إذن سكارى بهذا الاعتبار، لكنها غير ما يكون في السكارى، فهم ليسوا سكارى باعتبار آخر. وهذا قائم على مبدأ التشاكل والتباين اللذيْن يتكاملان في إنشاء منظومة تصويرية، تسير فيها خطوط التشابه والتباين على نحو تكاملي، لا تناقض فيه. ولسنا نفرق بين تطور اللغة واجتماع التشاكل والتباين في التشبيه، فإنهم لما أرادوا أن يبلغوا حدًّا واضحًا في

(١) عباس، فضل حسن. البلاغة – فنونها وأفنانها، البيان والبديع (ط١٧)، عمان: دار الفرقان، ٢٠٠٧، ص ١٧.

تشبيه شيء بشيء آخر، أظهروا ما بينهما من تماثل في الصفات، وأسقطوا من النطق ما يتباينان فيه، فقالوا زيد كالأسد – أو أي تعبير تشبيهي آخر – وأسقطوا من النطق أنه ليس أسدًا، وظل ذلك مفهوما مما وراء اللغة، بحسب التعبير الشائع في الدراسات التداولية المعاصرة.

المطلب الثاني: أنواع التشبيه وتطورها

أولاً: التشبيه المفرد

هو التشبيه الذي يكون فيه كل من المشبه والمشبه به مفردًا، فلا هو تمثيل حالة ظاهرة بحالة أخرى ظاهرة، ولا هو حالة ضمنية بين طرفي التشبيه. وكونه مفردا لا يعني أنه كلمة واحدة فقط، فقد يكون تعبيرًا من مضاف ومضاف إليه مثل قولنا: رجل العلم كالسيف في دفع الباطل. وآية كونه مفردًا في هذا المثال أنك يمكن أن تستبدل به كلمة واحدة، هي كلمة (العالم)، ويمكن أن يكون مختصا بوصف كما في: الرجل الصادق كحدّ السيف، ويمكنك أن تستغني عن الموصوف (الرجل)، فتقول: الصادق كحدّ السيف، وهكذا في كل ما يشبه ذلك.

إن من خصائص التطور اللغوي ومقتضياته أن الحسيات تغلب على التجريد في البدايات، وفي النشأة الأولى للغة. وهذه القضية أصبحت في الدرس اللساني المعاصر من البدهيات الأساسية. ومن هذه الخصائص أيضا أن التفصيل الحسي يكون له حضور واضح في البداية، ثم يأخذ التجريد مكانه في تطوير التعبيرات اللغوية. ومما هو واضح لدينا أن الحذف والإضمار صورتان من صور التجريد، لأن المتكلم يفصح عن بعض ما يريد بما يقول، ويترك للمتلقي بعضا آخر يتصوره أو يقدّره، وهذا تجريد، لكنه أقرب درجات التجريد إلى المحسوسات.

في ضوء هذه القاعدة نستطيع أن نتصور أن التشبيه المرسل المفصل كان في المرحلة الأولى من تاريخ التشبيه في العربية، لأن أركان التشبيه الأربعة تجتمع فيه، وهي: المشبه، والمشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه. وعلى ذلك يكون التعبير عن سعة الكرم مثلا في مثل قولهم: فلانٌ كالبحر في كرمه، وكل ما كان على هذه الصورة من التشبيه، أقدم من التشبيهات التي نشأت عنه بعد ذلك. وقد سَمّى البلاغيون هذا التشبيه بالمرسل المفصل، لأن أداة التشبيه مرسلة في العبارة، أي موجودة فيها

وجودا نطقيا وليس تقديريا. ووصفوه بأنه مفصل، لأن العرب فصّلت التشبيه بما هو كائن في المشبه والمشبه به. ومما نجده في هذا التشبيه اتساع التعبير وتضييق المعنى، بالقياس إلى الأنواع الأخرى من أنواع التشبيه. وبيان ذلك أنه كلما زاد المجال اللفظي بالتفصيل ضاق المعنى[١]، فقولنا مثلا: فلان كالجبل في ثباته، أوسع في المجال اللفظي من: فلان كالجبل، لكنّه أضيق في المعنى من قولنا: فلان كالجبل، لأن حذف وجه الشبه يفتح المجال لتقديرات دلالية أخرى، فقد يكون فلان هذا مثل الجبل في ثباته، أو شموخه، أو ما شئت من مثل هذه التقديرات. ومثل ذلك يقال في عبارة: فلان كالكوكب الدّرّي في تلألئه، فإن سعة المجال اللفظي حصرت التشبيه في التلألؤ فقط، في حين أننا لو قلنا: فلان كالكوكب الدّرّيّ فقد ضيّقنا المجال اللفظي، ولكننا وسّعنا المعنى، فقد يكون التقدير الدلالي الذي يدل عليه التشبيه: فلان كالكوكب الدرّيّ في الجمال، أو في العطاء، أو في الحيوية، أو في الحضور، أو ما شئت من مثل هذه التقديرات. هذا يوضح لنا – في التحليل الأخير – أن التشبيه الذي يسميه البلاغيون: التشبيه المرسل المجمل – أي الذي تكون فيه أداة التشبيه موجودة، وكذلك المشبه والمشبه به، مع عدم وجود الركن الرابع وهو وجه الشبه – أقدم من التشبيه المرسل المفصل، (أي الذي يحذف منه وجه الشبه فقط) بل هو أقدم التشبيهات جميعا.

أما حذف أداة التشبيه، فيمثل مرحلتين من التطور. وقبل الولوج في الحديث عن تَـيْـنِـك المرحلتين أودّ أن أشير هنا إلى أن الفرق هائل في الدلالة بين قولنا: فلانٌ كالجمل، وفلان جمل. ذلك أن الكاف للتقريب، أي لتقريب المشبه من المشبه به. فلما حُذفت الكاف من قولنا: فلانٌ جَمَل، دل ذلك على أن التقريب بين المشبه والمشبه أوضح وأمثل من أن يُحتاج معه إلى أداة لهذا التقريب. هذا هو الوعي اللغوي الدلالي الذي كان يتمثل في أذهان العرب وهم يطورون لغتهم، ويطورون فنونها التعبيرية، ومنها التشبيه دون شك. أما المرحلتان اللتان مرّ بهما حذف أداة التشبيه، فقد أظهرتا لنا صورتين من صور التشبيه هما: التشبيه المؤكد المفصل، في مثل: زيدٌ بحرٌ في كرمه، والتشبيه المؤكد المجمل، وهذا الأخير هو الذي يسميه البلاغيون التشبيه البليغ. وعلى ذلك نستطيع أن نتصور تصورا افتراضيا لترتيب تطور التشبيه المفرد الذي يشمل هذه التشبيهات الأربعة على النحو الآتي:

---

(١) انظر:

p 114. Cambridge University press, in Linguistics. j. Allwood & et al. (1981). Logic

أولاً: التشبيه المرسل المفصل في مثل: لغة فلان كالسيل في تدفقها. وقد وضحنا سبب تصورنا لأقدمية هذا النوع من التشبيه.

ثانياً: التشبيه المرسل المجمل في مثل: لغة فلان كالسيل. أما تصور مجيء هذا التشبيه بعد التشبيه السابق مباشرة في التطور، فإن حذف وجه الشبه أقل تجريدا من حذف أداة التشبيه، لأن حذف أداة التشبيه يفتح الحد التقديري للمطابقة بين المشبه والمشبه به.

ثالثاً: التشبيه المؤكد المفصل مثل: لغة فلان سيلٌ في تدفقها.

رابعاً: التشبيه المؤكد المجمل في مثل: لغة فلان سيل. وأما كون هذا التشبيه هو غاية تطور أقسام التشبيه المفرد، فلأن فيه تجريدين هما: حذف وجه الشبه، وأداة التشبيه. قال سعد الدين التفتازاني: "وأوكدها (التشبيهات) ما حُذف فيه الوجه والأداة" (١). ومن بدائع التطور في هذه التشبيهات ما هو آت:

١. مع أن الثابت في الدرس اللغوي المعاصر أن اللغات تستغني عن كثير مما كان في مراحل نموها القُدمى وتطويه من الاستعمال، فإن التشبيهات المفردة التي ذكرناها، بقيت كلها ماثلة في العربية الفصيحة، لا باعتبار كونها من الرسوبيات اللغوية، ولكن باعتبار أنها تؤدي وظائف جمالية لا يُستغنى عنها، قال ابن يعقوب المغربي " فيُخاطب بكلّ من هذه الأوجه في هذه الأبواب بما يُناسب المقام من الخفاء والوضوح، ويُعرف ذلك بهذا الفنّ، ويأتي ما فيه " (٢).
٢. لقد كانت العربية تطور نفسها بما هو جديد، وكانت تطور نفسها كذلك بالإبقاء على ما هو وظيفي يصلح للحاضر والمستقبل مما هو قديم. وإنكار القِدم يعني إنكار أنفسنا في النهاية، لأننا نمثل ماضينا في حاضرنا، وما نحن إلا نتاج الماضي والحاضر، وكذلك اللغات الإنسانية. والعربية خير ما يمثل هذه المقولة.

(١) التفتازاني، سعد الدين. شرح التلخيص، ضمن مجموعة شروح التلخيص، الجزء الثالث، ص ٢٦١.
(٢) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٢٦١.

٣. لا نستطيع أن نفصل التشبيهات بصفة عامة عن المبالغة [١]، بل إن التشبيه من المبالغة قريب من قريب، فإنك وأنت تصف شخصا بأنه أسد أو كالأسد، أو بحر أو كالبحر، فإنك في ذلك تشق الطريق إلى مبالغة واضحة. ومما هو معروف أن البلاغيين العرب جعلوا المبالغة فنا مستقلا بذاته، مما يعني أنهم لم يفطنوا إلى علاقة التشبيه بالمبالغة.

٤. ذهب بعض اللسانيين المعاصرين إلى أن تطور اللغة يكون على نحو من العشوائية التي يظهر فيها عدم الانتظام [٢]. وإذا طبقنا كلامهم هذا على ما استقرّ عليه استمرار استعمال الأنواع الأربعة من التشبيه المفرد، انتهينا إلى نزع وظيفة جمالية مرتبطة بالمواقف المختلفة. هذه المواقف هي التي كانت تستدعي استعمال هذا النوع أو ذاك من التشبيهات المفردة. فلا يكون في ذلك شيء من العشوائية التي ادعوْها.

٥. إن تطوير التشبيهات المفردة على النحو الذي وضحنا تصورنا له، كانت قضية التجريد أساسية فيه. وهي مسألة مرتبطة بتطور الوعي والذوق الجماليين عند العرب، فإن تطور الوعي الذهني للجمال هو المصدر الذي يُحدث بلاغة القول، فكما أن الوعي الذهني في تطور، فإن القول البليغ متطور تبعًا لذلك.

٦. كانت قضية التشاكل والتباين ماثلة في الوعي الذهني عند العرب، وهم يتأملون ما ينبثق من جمال التعبير على ألسنتهم، فإن اللغة لا تكتمل إلا بوجود التشاكل والتباين في حاضرها الذي يمثل حضور الوعي الذهني، والتذوق الجمالي. والتشبيه مرتبط بهذه القضية، بل هو مظهر لها، لأنه صورة معبرة عن قضية التشاكل والتباين. وقد تنبّه بعضُ الغربيين إلى قضية التشاكل والتباين هذه، ومنهم ياكوبسون Jacobson الذي أولى اهتماما بالغا لهذه الثنائية، وأظهر أثرها في تحليله لبعض النصوص الشعرية.

٧. إن في مراحل التطور التي ذكرناها آنفا ما يدل على أن المعنى كان سيد الموقف في تطور العربية وتعبيراتها وتشبيهاتها.

---

(١) انظر: Donald Freeman (197), . Linguistics and Literary Style, Holt,Rinehart and Winston, p231.

(٢) انظر: Theodora Bynon (1988). Historical Linguistics. Cambridge University Press, p 21

٨. إذا نظرنا إلى أدوات التشبيه باعتبارها روابط فقط فإن ذلك النظر قد يفسد الوظيفة الجمالية التي تؤديها أدوات التشبيه في بناء الصورة التشبيهية. لا ننكر أن تلك الأدوات تؤدي تلك الوظيفة. ولكنها في نظرنا وظيفة جمالية بلاغية، وليست للربط المجرد عن الجمال. وللأدوات وجود مستكنّ في بناء التشبيه حتى عندما تسقط أداة التشبيه. فإن عبارة فلانٌ أسد تحمل بين طياتها أداة تشبيهية مفترضة يدركها السامع حتى وهي غير موجودة، فيفهم من التشبيهين الآتيين: زيد أسد، وزيد أسد في الشجاعة، أنه يشبه الأسد. فنحن لا نستغني عن تصور هذه الآداة حتى ونحن نسقطها من التشبيه.

وقبل أن نبرح الحديث عن هذا الموضوع لا بدّ لنا من وقفة متأنية عند تطور استعمال أداة التشبيه، فنحن نعلم أن أداة التشبيه يمكن أن تكون الكاف، والأداة المركبة (كـــأنّ)، ويمكن أن تكون بالاسم (مِـــثْـــل)، وبغيرها من الكلمات التي تدل على التقريب الذي غايته التشبيه، وهي معروفة في الدرس البلاغي، وليس لنا حاجة في ذكرها هنا. والأصل في هذه الأداة أن تكون مفردة غير مندمجة مع غيرها، فتقول: فلانٌ كالأرنب، أو فلان مثل الأرنب. هذا هو الأصل، ولكن هاتين الأداتين اندمجتا في مرحلة لاحقة في كلمة واحدة هي (كَـــمِـــثْـــل). ولا يمكن أن تكون هذه الكلمة الأخيرة هي الأصل، لأنه عند وجود المُـــكَـــوّنين (الكاف + مثل) – وكلٌّ منهما يؤدي الغرض التشبيهي بمفرده – لا بدّ أن يكون كل واحد منهما أقدم منهما مجتمعيْن. هذا يعني أن الكاف وحدها، أقدم من (كمثل). وكذلك الشأن في (مِثْل)، فإنها أقدم منهما مُجْتمِعَيْن في كلمة واحدة.

لكن أيهما أقدم: الكاف أم كلمة (مثل)؟ إننا نتصور تصورًا افتراضيا – لا ينفيه شيء إلا إثبات عكسه إثباتا أرجح منه – أن كلمة مِثل أقدم من الكاف، لأن دلالة كلمة (مِثل) على التشبيه دلالة أصلية فيها، في حين أن دلالة الكاف ذهنية، فالحرف في ذاته يدل على المعاني التي تُعطى له من السياق، فهي ليست منه في الأصل، ولكنها تُعطى له من غيره، وهو السياق. وهذا يعني أن دلالة الكاف على التشبيه مرحلة لاحقة لمرحلة الكلمة الدالة على التشبيه بنفسها، وهي (مِثْل). لكنّ وظيفتها الدلالية مختلفة عن دلالة (كمثل) دون شك.

ينبغي أن نتنبه – في هذا السياق – إلى أن شأن الكلمة المركبة (كمِثْل) في ذلك كشأن الكلمة المركبة (كأنّ)، فهي مركبة من الكاف وأنّ مع اختلاف كبير في الدلالة. ففي قولهم: كأنّ فلانا قمرٌ، تقليل من شأن التوكيد الذي تدل عليه أداة التوكيد (أنّ)، فعبارة إنّ زيدًا قمرٌ أقوى من: كأنّ زيدًا قمر. والسبب في ذلك هو أنّ الكاف قللت من دلالة أنّ على التوكيد.

ثمرة هذه المعرفة الجزئية التفصيلية تفيد في فهم النصوص فهما أوضح، وهذا ماثل في صحة فهم قوله تعالى: (لَيسَ كَمِثْلِهِۦ شَيء) (الشورى ١١). فقد ذهب العلماء مذاهب شتى في إعراب الآية، وكان الهدف من كل أعراب تخليص الآية مما عَلق في أذهانهم من شبهة. ولا يبرأ واحد من هذه التصورات من نقص في التصور. فقد ذهب الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) إلى أن ذلك من باب الكناية، فقد كانت العرب تقول: "مثلك لا يبخل"، فكفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته، فكأنهم إذا نفوْا الوصف عن مثل الشخص، كان نفيًا عن الشخص"[١].

قلت: هذا التقدير لا يستقيم، لأن العرب كانت إذا أرادت نفي الشيء عن مثل الشخص، لم تكن تقصد أن تنفي وجود مثيلٍ لذلك الشخص، بل كانت تثبته، لكنها كانت تنفي أنه يفعل ذلك. وبهذا لا يستقيم تقدير الزمخشري. ثم انظر إلى ما ذهب إليه أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) الذي أعاد ما ذهب إليه الزمخشري بألفاظه دون تغيير كبير، ثم استشهد بما نسبه إلى أوس بن حجر (ت ٢ ق. هـ)، وليس موجودًا في ديوانه فقال: "ومثل الآية قول أوس بن حجر":

ليسَ كمِثْلِ الفتى زهيرٍ خلقٌ يُوازيهِ في الفضائلِ "[٢]

وما ذهب إليه السمين الحلبيّ (ت ٧٥٦هـ) لا يختلف كثيرًا عما ذهب إليه الزمخشري ونقله عنه أبو حيان، إلا أن السمين أضاف إليه "أن الكاف زائدة في خبر ليس، وشيءٌ اسمها ... قالوا: ولولا ادعاء زيادتها للزم أن يكون له مثل" [٣].

(١) الزمخشري، محمود بن عمر. الكشاف ٤٦٢/٣.

(٢) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف. الدر المصون، تحقيق أحمد الخراط، دمشق: دار القلم١٩٩٣، ٥٤٣/٩.

(٣) (أبو حيان) الأندلسي، محمد بن يوسف. البحر المحيط ٤٨٤/٧.

قلت: ولو أنهم نظروا إلى المركب التشبيهي (كمثل) كما ينظرون إلى (كأنّ) على أساس أنها وحدة تشبيهية كاملة، بغض النظر عن مُكوّنَيْها، لما ذهبوا إلى هذه التقديرات التي لا تنفي عن الله تبارك وتعالى ما أرادت الآية أن تنفيه عنه. فالكلمة المركبة (كمِثله) تؤدي التشبيه بنفسها وهي مركبة، ولم تعد تؤديه بمكونيها منفصلين. والكلمات المركبة التي تؤدي وظيفة واحدة بغض النظر عن مكونيها الأصليين كثيرة في العربية منها: لولا، ولوما، وما عدا، وما خلا، وإذْما، وإلا (أصلها إن + لا)، وألا (باللام المخففة لإفادة التنبيه)، وايمن المستعملة في القسم. وهكذا (كمِثْل) فإنها تؤدي التشبيه بنفسها مركبة، ولم يعد للتشبيه بمكونيه: الكاف ومِثل، وجودٌ مستقل. وهي على كل حال مرحلة لاحقة لهذين المكونين، ولكن دون أن يمحو اللاحقُ وجود المكونين السابقين وهما مستقلان.

وفي هذا المجال لا بد أن نفرق بين الكلمتين المركبتين: كَمَثَل، وكَمِثل، وهذه الأخيرة هي التي تحدثنا عنها، وهي أداة تشبيه مركبة، تؤدي وظيفتها باعتبارها أداة واحدة مركبة، بغض النظر عن الجزءين اللذين تتركب منهما. والكلمة الثانية هي كَمَثَل، بفتح الميم والثاء. فهذا التركيب مكوّن من الكاف، ومَثل. والتشبيه مقتصر على الكاف. أما (مَثل) فتعني: شأن، كما في قوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (آل عمران ٥٩)، فكأنه قال: إن شأن عيسى عند الله كشأن آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فكان.

ثانياً: التشبيه التمثيلي

هو التشبيه الذي يكون فيه كل من المشبه والمشبه به حالة مركبة، وقد تكون أداة التشبيه موجودة في التركيب، كما في قوله تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ) (البقرة ١٧). ومثل ذلك ما قاله النابغة الذبياني (ت ؟؟؟ ١٨ ق. هـ) [١]:

فإنكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكبُ

وتفسيره: إنّ مَثَلك بين الملوك كمثل الشمس التي إذا طلعت اختفت مع طلوعها النجوم، وكذلك أنت في الملوك إذا ظهرتَ اختفوْا. وقال المتنبي (ت ٣٥٤هـ) يصف أعرابية وقع في غرامها، مع ما فيها من تَمَنُّع وإباء:

(١) النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، ديوانه، ص ٨٨، والبيت من البحر الطويل.

كأنهـــا الشمسُ يُـــعْـــيي كـــفَّ قـــابضِـــهِ شـــعاعُها، ويَـــراهُ الطـــرْفُ مقتربـــا [١]

ويظهر في هذا التشبيه مقابلة مركبة بين حالتين، فإن الشاعر يقابل بين أُنْس حبيبته، على ما فيها من تناءٍ عن الوقوع في يد حبيبها، بشعاع الشمس الذي لا يستطيع المرء أن يقبض عليه بكفه، على ما يظهر من قرب منه إليه.

وقد تكون العلاقة بين المشبه والمشبه به في التشبيه التمثيلي بعيدة، دون أن يُضعف ذلك قدرة بعض الشعراء على الإبداع في التصوير. وقد جاء توضيح هذه المسألة عند يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥هـ) بعد أن استشهد بقول المتنبي:

تُشـــــرقُ أعراضُهـــــمْ وأوجُهُـــهُـــــم كأنهـــــا فـــي نفوســـهمْ شِـــيَـــــمُ [٢]

قال العلوي واصفا العلاقة بين المشبه والمشبه به في مثل هذا البيت، بأنه لا جامع بينهما ولا رابطة تشملهما [٣].

ويستنتج من كون التشبيه التمثيلي مركبا عدة أمور:

أولها: أننا – باعتبار التطور اللغوي والحس والوعي الجماليّين – نتصور أن نشوء التشبيه التمثيلي كان متأخرًا عن نشأة التشبيه المفرد.

وثانيها: أن التشبيه التمثيلي نفسه هو صورة من صور تطور الوعي الجمالي اللغوي الذي يصل الأشياء بعضها ببعض على الرغم من تباعد المشبه والمشبه به.

وثالثها: أن التشبيه التمثيلي الذي يبدو فيه المشبه والمشبه به متباعدين (لا جامع بينهما، ولا رابطة تشملهما بتعبير العلوي) هو مرحلة متأخرة من مراحل تطور هذا النوع من التشبيه، بمعنى أن إيراد التشابه بين ركني التشبيه مع ما بينهما من تباعد ظاهري، دليل على تطور العربية والذهنية العربية في الوصول إلى هذه المرحلة، دون أن تمحو المراحل التي قبلها في تطور أنواع التشبيه المفرد.

(١) المتنبي، ديوانه، بتحقيق عبد الرحمن البرقوقي، ج١، ص ١٩٠، والبيت من البسيط.

(٢) المتنبي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٧، والبيت من المنسرح

(٣) العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز، تحقيق الشربيني شريدة، ج١، ص ٢٣٢.

ورابعها: أن التشبيهات ربما كان مجالها في الشعر أوسع من مجال النثر، وإن كان وجودها فيه غير منكور، فقد تأكد ذلك بوجود هذا التشبيه في القرآن الكريم، وفي بعض كلام العرب.

وخامسها: أن نشأة هذا النوع المركب من التشبيه مرتبط بتطور الخيال، وقدرته على خلق الروابط بين الأشياء بصورة تُحدث صدمة في الوعي التخييلي عند المتلقي، فتجعله يعيش قدرًا من التجربة الشعرية بأبعادها الذهنية والخيالية والعاطفية عند الشاعر.

وسادسها: أن التشبيه التمثيلي أقل نسبيا من التشبيه المفرد، لكونه أكثر تركيبًا من التشبيه المفرد، ولأن فيه درجة من التجريد الذهني – وهو التجريد الذي يجعل خيال الشاعر أو الأديب – يربط بين أمرين ليس بينهما رابط، ولكن الشاعر هو الذي يوجد هذا الرابط.

عرفنا إذن مرتبة التشبيه التمثيلي في النشأة، فتصور نشوئه بعد التشبيه المفرد يؤيده المنطق العلمي. ولكنه لا يوجد أثر مكتوب يحدد لنا نشأة هذين التشبيهين. والتوصل إلى الأصل وما تفرع عنه مسألة يمكن إدراكها بالمنطق العلمي، وما تؤتيه البينات الموضوعية من دلائل داخلية.

وقد جاء كثير منه في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء) (الأنعام ١٢٥).

وقد تطور هذا النوع من التشبيه بعد ذلك تطورًا كبيرًا في العصر العباسي الثاني، وخاصة في شعر المتنبي الذي يقول:

كأنّما قَدُّها إذا انفَتَلَتْ سكرانُ من خمرِ طرفها ثَمِلُ (١)

يشبه الشاعر حبيبته وهي تتحرك منفتلة بأن قدَّها يتمايل كما يتمايل الرجل الذي تسكره نظرة من عينيها. وإن التشبيه التمثيلي في شعر المتنبي كثير كثرة تستدعي أن تخصص له دراسة مستقلة.

(١) ديوان المتنبي بتحقيق عبد الرحمن البرقوقي، الجزء الثاني، ص ٢٣٢، والبيت من البسيط.

ثالثاً: التشبيه الضمني

هذا التشبيه فيه قدر واضح من التجريد، فأداة التشبيه تكون محذوفة، ولكنها مقدّرة، لأن تقديرها هو الذي يعيد تركيب التشبيه، بمعنى أنه لولا تقديرها لما كان هناك تشبيه. وفي التشبيه الضمني في الشعر يكون الشطر الثاني من البيت دليلا أو برهانا على صحة المقولة الموجودة في الشطر الأول، كما هو واضح في قول أبي العتاهية (٢١٣ هـ):

تَرْجُو النجاةَ، ولم تسلكْ مسالكها إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ [١]

وقول المتنبي:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهوانُ عليهِ ما لِجُرحٍ بمَيّتٍ إيلامُ [٢]

يريد أن الإنسان الذي يكون هيّنا في نفسه، فإنه يستسهل هوانه على الناس، مثلما أن الميت لا يحس بالجرح. وتبدو المقولة التي في الشطر الثاني حكمة، وقد أصبحت مثلا يتداوله الناس.

ومن خصائص التشبيه الضمني أنه أصعب أنواع التشبيه من حيث إن التوفيق بين المشبه والمشبه به قائم على تجريد، فلا علاقة أصلا بين المشبه والمشبه به، ولكن الشاعر أقام هذه العلاقة فكان في تصوره لها بُعدٌ في النظر والتأمل. ولما كان التشبيه الضمني قائما على هذا القدر من النظر والتأمل والتجريد، كان أقل التشبيهات دورانا على الألسنة. وقد تأتي على ديوان كامل ليس فيه تشبيه ضمني واحد، كما هو الحال في ديوان العباس بن الأحنف (ت ١٩٢ هـ)، وديوان ابن هانئ الأندلسي (ت ٣٦٢ هـ) ليس فيه تشبيه ضمني واحد، على كثرة ما فيه من الصور البلاغية من مجازات واستعارات وتشبيهات، وديوان ابن منير الطرابلسي (ت ٥٤٨ هـ) ليس فيه تشبيه ضمني واحد. وقد تأتي على ديوان كامل من دواوين الشعراء المعاصرين فلا تجد تشبيها ضمنيا واحدًا فيه. من ذلك مثلا ديوان معروف الرصافي (ت ١٩٤٥م) الذي لا تجد فيه من أوله إلى آخره تشبيها ضمنيا واحدًا. وكذلك ديوان إبراهيم ناجي (ت ١٩٥٨م)، ودواوين عباس محمود العقاد (ت ١٩٦٤م) العشرة المجموعة في مجلدين كبيرين بعنوان: ديوان العقاد، ليس فيه تشبيه ضمني واحد. وكذلك ديوان عبد المنعم الرفاعي (ت ١٩٨٥) على الرغم من كونه من شعراء الشعر المحافظ. وليس في هذا انتقاص من قدر شعر هؤلاء الشعراء، ولكنّ التشبيه الضمني هذه سبيله.

(١) ديوان أبي العتاهية، ص ٦٣، والبيت من البسيط.

(٢) ديوان المتنبي، الجزء الثاني، ص ٤٢٨، والبيت من البحر الخفيف.

النتـــائـــج والتوصيـــات

أولا: النتـــائـــج

توصل هذا البحث إلى عدد كبير من النتائج الجزئية والكلية. أما النتائج الجزئية فمبثوثة في ثنايا البحث. ومن أهم النتائج الكلية ما يأتي:

١. إن التشبيه بأنواعه كلها صورة من صور المبالغة، فقولك: زيد كالأسد هو في حقيقته مبالغة، لكن البلاغيين لم يشيروا إلى ذلك.
٢. وضع البحث تصورًا ترتيبيا لنشأة كل واحد من التشبيهات، بتطبيق المنطق التداولي في ترتيب الأحداث، وهو منطق يستنبط الأحكام من داخل الموضوع حين لا يكون هناك دليل آخر قطعي على الترتيب.
٣. إن أحدث تشبيهين في اللسان العربي هما: التشبيه التمثيلي، والتشبيه الضمني.
٤. أقل التشبيهات دورانا في العربية هي: التشبيه التمثيلي والتشبيه الضمني. والتشبيه الضمني أحدثهما. وقد بحثت عن التشبيه الضمني في عدد من الدواوين فلم أجد تشبيها ضمنيا واحدًا، مثل ديوان الخنساء، وديوان العباس بن الأحنف.
٥. توصل البحث إلى تحديد المعنى المراد من قوله تعالى: " ليس كمثله شيء "، وهو المعنى الذي ذهب النحاة والمفسرون كل مذهب في تقديره. وكان سبب اختلافهم في الفهم عدم الانتباه الدقيق لأداة التشبيه المركبة "كمثله".

ثانيـــا: التوصيـــات

ثمة أمور لا بدّ من متابعة دراستها، وفي مقدمتها ما يلي:

١. دراسة دوران التشبيهين التمثيلي والضمني في عدد آخر من دواوين الشعر.
٢. البحث عن جماليات التعبير البلاغي في التشبيهين التمثيلي والضمني.
٣. البحث عن ارتباط الزمان والمكان بتطور التشبيهات.

المراجـــع

أولا: المراجع العربية

ابن الأحنف، العباس (١٩٢هـ/ ٨٠٩م). ديوان العباس بن الأحنف، بيروت: دار صادر ٢٠٠٨.

الأندلسي، محمد بن هانئ (٣٦٢هـ/ ١٠٠٣م). ديوان محمد بن هانئ الأندلسي، تح العيلاوي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٨.

ابن بحر، عمرو "الجاحظ " (٢٥٥هـ/ ٧٧١م). البيان والتبيين، بيروت: دار الفكر للجميع، د. ت.

التفتازاني، مسعود (٧٩٢هـ/١٣٩٠م). شرح التفتازاني – ضمن مجموعة شروح التلخيص، القاهرة: مكتبة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٧.

الجرجاني، عبد القاهر (٤٧١هـ/١٠٧٨م). دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي ٢٠٠٤.

ابن الحسين، أحمد " المتنبي " (٣٥٤هـ/ ٩٩٥م). ديوان المتنبي بشرح عبد الرحمن البرقوقي، بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم ١٩٩٥.

الذبياني، زياد بن معاوية " النابغة " (١٨ق.هـ/ ٦٠٥م). ديوان النابغة الذبياني، تح محمد الطاهر ابن عاشور، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع ٢٠٠٩.

الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨هـ/١١٤٣م). الكشاف، طهران: انتشارات آفتاب، د. ت.

شرف، حفني. الصور البيانية بين النظرية والتطبيق، القاهرة: نهضة مصر ١٩٦٥.

الطرابلسي، أحمد بن منير (٥٤٨هـ/ ١١٥١م). ديوان ابن منير الطرابلسي، تح عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٦.

عباس، فضل حسن. البلاغة – فنونها وأفنانها، ط ١١، عمان: دار الفرقان ٢٠٠٧.

العقاد، عباس محمود. ديوان العقاد، بيروت: المكتبة العصرية، د.ت.

العكبري، عبدالله (٦١٦هـ/ ١٢١٩م). إملاء ما مَنّ به الرحمن، تح إبراهيم عطوه، القاهرة: مكتبة البابي الحلبي ١٩٦٩.

ابنة عمرو، تماضر "الخنساء" (٢٤هـ/ ٦٤٥م). شرح ديوان الخنساء، بيروت: مكتبة الحياة، د.ت.

ضيف، شوقي. البلاغة تطور وتاريخ، ط ١٢، القاهرة: دار المعارف١٩٦٥.

العلوي، يحيى بن حمزة (٧٤٧هـ/١٣٤٨م). الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح الشربيني الشريدة، القاهرة: دار الحديث ٢٠١٠.

ابن المثنى، معمر (٢٠٩هـ / ٨٢٤ م). مجاز القرآن، تح محمد سزكين، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٤.

ابن يوسف، أحمد "السمين الحلبي" (٧٥٦هـ/١٣٥٥م). الدرّ المصون، تح أحمد الخراط، دمشق: دار القلم ١٩٨٦.

ابن يوسف، محمد "أبو حيان الأندلسي" (٧٤٥هـ / ١٣٤٤م). البحر المحيط، بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠٠١م.

ثانيا: المراجع الأجنبية

Allwood, Jens; Lars-Gunnar; Osten Dahl. Logic in Linguistics (1981). Cambridge University Press.

Bynon, Theodora (1988). Historical Linguistics. Cambridge University Press.

Freeman, Donald (1970). Linguistics and Literary Style. Holt, Rinehart and Winston, Inc.

Grebanier, Bernard (1975). The Enjoyment of Literature. Crown Publishers, Inc., New York.

مُؤَشِّرَاتُ الانْكِسَار وَمُحَفِّزَاتُ الانْتِصَارِ فِي الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْفِلَسْطِينِيِّ
مُدَارَسَةٌ أَيْدِيُولُوجِيَّةٌ فِي "نَجْمَة فَوْق بَيْت لَحْم" لخَلِيل تُومَا

د. طـــه غالب عبد الرَّحيم طـــه*

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٢٠/٤/٢٠م. تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٠/٧/١٢م.

ملخص

يقف هذا البَحْث على "مُؤَشِّرَاتِ الانْكِسَارِ وَمُحَفِّزَاتِ الانْتِصَارِ فِي الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْفِلَسْطِينِيِّ"، من خلال "مُدَارَسَةٍ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ فِي "نَجْمَة فَوْق بَيْت لَحْم" لخَلِيل تُومَا"؛ لِمَا في المجموعة الشِّعريَّة؛ مـــن المُفَارَقات الحَدَثِيَّة وَالزَّمكانيَّة؛ في المستويات: الذَّاتيَّة، وَالجَمْعيَّة، وَالقَوْميَّة.

ويُجلِّي الباحث في التَّأطيرِ التَّمهيديِّ؛ أُطُر: (المَفَاهِيم، وَالعَنْوَنَة، وَالمَجْمُوعَة الشِّعْرِيَّة)، مستظهرًا في الدَّرْس التَّحليليِّ مُؤَشِّرَات الانْكِسَار: (الذَّاتِيِّ، وَالجَمْعِيِّ، وَالقَوْمِيِّ)، ومستبطنًا مُحَفِّزَات الانْتِصَـــار: (الوُجُودِيِّ، وَالإِنْسَانِيِّ، وَالاسْتِشْرَافِيِّ)، الكائنة في المضامين النَّصيَّة، والأساليب البنائيَّة، المُتَّكِئة على تِقَانَات: (التَّنَاصِّ، وَالانْزِيَاح، وَالرَّمْز، وَالأَسْطَرَة)؛ لغاية تِبْيان المُفَارَقة الكائنة بين: المِثَال، والـــدُّون، بوحيٍ من الحَيِّز المَكَانيِّ.

وتتبني المقاربة التَّحليليَّة على "المنهج الوصفيِّ"؛ في مِهَاد الحُدُود والأُطُـــر العامَّـــة، و"المـــنهج الاستدلاليِّ"؛ في مُحَايَثة الشَّواهد الشِّعْريَّة المختلفة، و"المنهج الاستقرائيِّ"؛ للخُلُوص إلى الشِّيَات الفَارِقَة في ظِلَال المُفَارَقة؛ مع إضاءةٍ نافذةٍ لأنظار النَّقْد "البنيويِّ" و "السِّيميائيِّ".

الكَلِمَات الدَّالَّة: مُؤَشِّرَات الانْكِسَار، مُحَفِّزَات الانْتِصَار، "نَجْمَة فَوْق بَيْت لَحْم"، خَلِيل تُومَا.

* قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها، كلِّيَّة العلوم والدِّراسات الإسلاميَّة، قلقيلية، فلسطين.
حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

Indicators of Refraction and Incentives for Triumph in the Palestinian Poetic Discourse
An Ideological Study of "A Star Over Bethlehem" by Khalil Tuma

Dr. Taha Ghaleb Taha

Abstract

This research discusses the indicators of refraction and incentives for triumph in the Palestinian poetic discourse through an ideological study of "A Star Over Bethlehem", " by Khalil Tuma; for what the modern and space-time paradoxes this poetry collection offers; at the individual, Collective, and national levels.

The researcher explains in the preamble the notions of concept, addressing and poetry collection, illuminating the indicators of refraction (subjective, collective and national), and explaining the incentives of triumph (existential, humanitarian and forward-looking), which are found in concepts and structures that are based on the techniques of intertextuality, displacement, symbolism, and mythology, to explore the distinction between the ideal and the decadent, based on space.

The research is based on the descriptive approach in the introduction, the inferential approach in defining poetic explications, and the inductive approach to conclude the unique features of paradox, to achieve the semiotic and structural criticisms.

Keywords: Indicators of Refraction, Incentives of Triumph, “A Star Over Bethlehem”, Khalil Tuma.

تَأْطِيرٌ تَمْهِيدِيٌّ: مِهَادٌ فِي الْمَفَاهِيمِ وَالْعُنْوَنَةِ وَالْمَجْمُوعَةِ الشِّعْرِيَّةِ

الإِطَارُ الأَوَّلُ: مِهَادٌ فِي الْمَفَاهِيمِ:

يُعمِّق مفهوم الانكسار دواعي السُّكُون؛ ذلك أنَّ الأصل (كسر) "يدلُّ على هَشْم الشَّيء وهَضْمه"(١)، ثمَّ إنَّ له من بعدُ إيحاءات: الفُتُور، وَاللِّين، وَالضَّعف، وَالقِلَّة، وَالسُّقُوط، وَالدُّون(٢)، وللصَّوت في منحيي: المَدْرج، وَالمَخْرج مُؤَشِّر الانحدار نحو الدُّون المُتَكرِّر؛ ممَّا يحيل إلى استنطاق الماثل الانكساريِّ بمُسبِّبه ومُسَبَّبه؛ على جهة القُوَّة في الأوَّل، والضَّعف البادي في الثَّاني؛ ذلك الَّذي ينتفي إصلاحه، إلَّا أن تكون الإرادة النَّزَّاعة إلى الصُّعُود قَوَامَه نحو الاستنهاض، تحت وطأة الأثر العميق الرَّاسخ للانكسار.

بينما يُؤصِّل الجذر (نصر) لسمة الخيريَّة؛ بدلالته "على إتيان خَيرٍ وإيتائه"(٣)، مُؤَكِّدًا، في ظلال المُشتَقَّات الحسيَّة والعقليَّة، دلالات: الظَّفَر، وَالعَوْن، وَالعَطَاء، فضلًا عن: الخَيْر، وَالمَاء، وَالنَّمَاء(٤)؛ ولهذه الدَّلالات أن تُؤكِّد السُّمُوَّ في غير جانبٍ؛ بما تحمله من القيم الإيجابيَّة، والمظاهر النَّمائيَّة، في المستويات الكونيَّة.

أمَّا مصطلح (الأيديولوجيا)، فيمكن اختزال مفهومه؛ على أنَّه النِّظام الفكريُّ والقيميُّ، المُتَّسِق ضمن تصوُّراتٍ فَرْديَّةٍ أو جَمْعيَّةٍ، مع تضمُّنه المقصديَّة السُّلوكيَّة؛ الَّتي تُحدِّد الرُّؤية التَّصوُّريَّة،

---

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريَّا، (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، **معجم مقاييس اللُّغة**، تح: عبد السَّلام هارون، (د. ط)، دار الفكر، بيروت، (١٩٧٩م)، مادَّة (كسر).

(٢) يُنظَر: الجوهريُّ، أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد، (ت٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م)، **الصِّحاح؛ تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة**، تح: محمَّد زكريَّا يوسف، (ط٤)، دار العلم للملايين، بيروت، (١٩٩٠م)، مادَّة (كسر)؛ ويُنظَر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين محمَّد بن مكرم، (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، **لسان العرب**، (ط١)، دار صادر، بيروت، (د. ت)، مادَّة (كسر)؛ ويُنظَر: الفيروزآباديُّ، مجد الدِّين محمَّد بن يعقوب، (ت٨١٧هـ/ ١٤١٥م)، **القاموس المحيط**، (د. ط)، دار الحديث، القاهرة، (د، ت)، مادَّة (كسر)؛ ويُنظَر: الزَّبيديُّ، محمَّد مرتضى، (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تح: عبد العليم الطَّحاويّ، (د. ط)، وزارة الإعلام الكويتيَّة، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، (١٩٧٤م)، مادَّة (كسر).

(٣) ابن فارس، **معجم مقاييس اللُّغة**، مادَّة (نصر).

(٤) يُنظَر: الجوهريُّ، **الصِّحاح؛ تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة**، مادَّة (نصر)؛ ويُنظَر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادَّة (نصر)؛ ويُنظَر: الفيروزآباديُّ، **القاموس المحيط**، مادَّة (نصر)؛ ويُنظَر: الزَّبيديُّ، **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادَّة (نصر).

للقضايا الجوهريَّة، وتعكس الطُّموحات المجتمعيَّة، والحاجات الإنسانيَّة؛ وذلك وفق المدارسة المفهوميَّة، للمعجمات اللُّغويَّة(١)، والأدبيَّة(٢)، والاجتماعيَّة(٣)، والسِّياسيَّة(٤)، والفلسفيَّة(٥)، فضلًا عن الدِّراسات النَّقديَّة(٦)، والمقاربات الفكريَّة(٧)، والموسوعات المعرفيَّة(٨).

ويرتبط مفهوم "الأيديولوجيا"، في هذا الدَّرْس، بمبدأ "الالتزام"، الَّذي أبان بدوي طبانة تعريفه، بقوله: "يعني أصحاب الدَّعوة إلى "الالتزام": أن يتقيَّد الأدباء وأرباب الفنون، في أعمالهم الفنِّيَّة، بمبادئَ خاصَّةٍ، وأفكارٍ مُعَيَّنةٍ؛ يلتزمون بالتَّعبير عنها، والدَّعوة إليها، ويُقرِّبونها إلى عقول جماهير النَّاس،

(١) يُنظَر: عمر، أحمد مختار، (ت١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، **معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة**، (ط١)، عالم الكتب، القاهرة، (٢٠٠٨م)، ١: ١٤٣، ١٤٤، (- الهمزة/ ٣٨١ - أيديولوجيا).

(٢) يُنظَر: عبد النُّور، جَبُّور، **المعجم الأدبيّ**، (ط٢)، دار العلم للملايين، بيروت، ("كانون الثَّاني، يناير"/ ١٩٨٤م)، ص٤٤، (- إيديولوجيا)؛ ويُنظَر: وهبة، مجدي وَالمهندس، كامل، **معجم المصطلحات العربيَّة في اللُّغة والأدب**، (ط٢)، مكتبة لبنان، بيروت، (١٩٨٤م)، ص٧٠، (- باب الهمزة/ - إيديولوجيا، [Ideology])؛ ويُنظَر: علُّوش، د. سعيد، **معجم المصطلحات الأدبيَّة المعاصرة؛ (عرض وتقديم وترجمة)**، (ط١)، دار الكتاب اللُّبنانيّ، بيروت، وَسوشبريس، الدَّار البيضاء، (١٩٨٥م)، ص٤١، ٤٢، (٤٦ - الأيديولوجيا)؛ ويُنظَر: التُّونجيُّ، د. محمَّد، **المعجم المُفصَّل في الأدب**، (ط٢)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، (١٩٩٩م)، ١: ١٤٧، (- حرف الهمزة/ - الإيديولوجيا)؛ ويُنظَر: عنانيّ، د. محمَّد، **المصطلحات الأدبيَّة الحديثة؛ دراسة ومعجم إنجليزيّ عربيّ**، (ط٣)، الشَّركة المصريَّة العالميَّة للنَّشر - لونجمان، القاهرة، (٢٠٠٣م)، ص٤٢، ٤٣، (-المعجم: [١ - ١٢٤]/ - الأيديولوجيا، العقائديَّة، [Ideology]).

(٣) يُنظَر: الصَّالح، د. مصلح، **الشَّامل؛ قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعيَّة؛ إنجليزيّ - عربيّ؛ مع تعريف وشرح المصطلحات**، (ط١)، دار عالم الكتب للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، (١٩٩٩م)، ص٢٦٥، ٢٦٦، (- الأيديولوجيَّة، [Ideology])؛ ويُنظَر: وليامز، ريموند، (ت١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، **الكلمات المفاتيح؛ معجم ثقافيّ ومجتمعيّ**، تر: نُعيْمان عثمان، تقديم: طلال أسد، (ط١)، المركز الثَّقافيّ العربيّ، الدَّار البيضاء، (٢٠٠٧م)، ص١٥٧ - ١٦٠ (- أيديولوجيا، [Ideology]).

(٤) يُنظَر: البيطار، د. فراس، **الموسوعة السِّياسيَّة والعسكريَّة**، (ط١)، دار أسامة للنَّشر والتَّوزيع، عمَّان، (٢٠١٣م)، ١: ٢٨، ٢٩، (- المفاهيم والمصطلحات السِّياسيَّة والعسكريَّة/ - أيديولوجيَّة).

(٥) يُنظَر: مجمع اللُّغة العربيَّة، **المعجم الفلسفيّ**، (د. ط)، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميريَّة، القاهرة، (١٩٨٣م)، ص٢٩، (- حرف الألف/ ١٧٢ - إيديولوجيا، [Ideology])؛ ويُنظَر: لالاند، أندريه، (ت١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م)، **موسوعة لالاند الفلسفيَّة**، تعريب: د. خليل أحمد خليل، إشراف: أحمد عويدات، (ط٢)، منشورات عويدات، بيروت، وَباريس، (٢٠٠١م)، ١: ٦١١، ٦١٢، (- فِكْرويَّة، إيديولوجيا، أُدْلُوجَة)؛ ويُنظَر: حسيبة، د. مصطفى، **المعجم الفلسفيّ**، (ط١)، دار أسامة للنَّشر والتَّوزيع، عمَّان، (٢٠٠٩م)، ص١٠٦، ١٠٧، (- حرف الألف/ - الأيديولوجيَّة، [Ideology]).

(٦) يُنظَر: إيجلتون، تيري، **النَّقد والأيديولوجيَّة**، تر: فخري صالح، (د. ط)، المُؤَسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، (١٩٩٢م)، ص٧١ - ٨٠، (٢ - مقولاتٌ من أجل نقدٍ مادِّيٍّ).

(٧) يُنظَر: ريكور، بول، **محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا**، تحرير وتقديم: جورج هـ. تيلور، تر: فلاح رحيم، (ط١)، دار الكتاب الجديد المتَّحدة، بيروت، (كانون الثَّاني، يناير ٢٠٠٢م)، ص٤٧ - ٦٨، (١ - محاضرة افتتاحيَّة)؛ ويُنظَر: العرويُّ، عبد الله، **مفهوم الإيديولوجيا**، (ط٨)، المركز الثَّقافيّ العربيّ، الدَّار البيضاء، وَبيروت، (٢٠١٢م)، ص٩ - ١٢، (- الفصل الأوَّل: تمهيد)؛ ص١٦٠، (- خاتمة).

(٨) يُنظَر: مجموعة مُؤلِّفين، **الموسوعة العربيَّة العالميَّة**، (ط٢)، مُؤَسَّسة أعمال الموسوعة للنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، (١٩٩٩م)، ٣: ٤٥٩، (- أ/ - الأيديولوجيَّة).

ويُحبِّبونها إلى قلوبهم"[١]؛ والأديب، وفق هذا التَّصوُّر، "صاحب رسالةٍ في التَّنبيه، والشَّرح والتَّوجيه، لا يسمح لشاعريَّته أن تحيد عنها، ولا لقلمه أن يتجاوزها. أو هو، في الأقلِّ، مشاركٌ لأصحاب تلك المبادئ والدَّعوات الإصلاحيَّة، في نشر دعواتهم والتَّمكين لها في القلوب والعقول"[٢]؛ وتكون مشاركته مشاركته بأحد نهجَيْن: التَّوصيف المُجَرَّد، أو الدَّعوة الصَّريحة[٣].

وعالج محمَّد غنيميّ هلال مفهوم "الالتزام"، قائلًا: "يُراد بالتزام الشَّاعر: وجوب مشاركته بالفكر والشُّعور والفنِّ، في قضايا الوطنيَّة والإنسانيَّة، وفيما يعانون من آلامٍ، وما يبنون من آمالٍ؛ فليس له، مثلًا، أن يستغرق في التَّأمُّل في الجمال الخالد والخير المحض، على حين يعاني وطنه ذلَّ الاحتلال، أو عناء الطُّغيان، وليس له أن يسترسل في خيالاته ومشاعره الفرديَّة، على حين وطنه من حوله أو طبقته الاجتماعيَّة في وطنه، تجاهد في سبيل آمالٍ مشتركةٍ. ويتناول قضيَّة التزام الشَّاعر مذهبان معاصران من مذاهب الأدب؛ هما: الواقعيَّة الاشتراكيَّة، والوجوديَّة"[٤].

الإِطَارُ الثَّانِي: مِهَادٌ فِي فَضَاءِ الْعَنْوَنَةِ.

توحي عَنْوَنَة المجموعة الشِّعريَّة؛ بالمُؤَشِّرات المعنويَّة العامَّة، وسياقات الثِّيمَات المفصليَّة الخاصَّة؛ فإذا ما ولجنا إلى ثاوي العنوان في امتداده الأفقيِّ؛ ألفينا السَّمْتَ الاسميَّ بارزًا بدالِّ "النَّجْمة"، المُعَزَّز بالإخبارِ الظَّرفيِّ، المُقْترِن بصدارة المكان، وانكسار الإنسان، وتداعي صور الحرمان؛ بفعل سطوة السَّجَّان؛ ولهذه الدَّلائل الاسميَّة العامَّة أن تتمخَّض عن: الثَّبَات، وَالرُّكُود، وَالانتظار، فضلًا عن التَّعلُّق بالمكان، عقب الانهزام الوطنيِّ، والانكسار القَوْميِّ، في نَكْسة النُّهُوض من محرقة النَّكْبة.

وقد نُسِجت خيوط الحكاية المأساويَّة، ضمن عُنْوَانَات المجموعة، في ضوء المُوَاءَمة الموضوعيَّة مع معطيات الماضي والحاضر والمستقبل، إلَّا من ومضات "النَّجْمة"، المُرَسِّخة في دواخل الإنسان أمل

(١) طبانة، بدويّ، **قضايا النَّقد الأدبيِّ**، (ط٣)، دار المرِّيخ للنَّشر، الرِّياض، (١٩٨٤م)، ص١٥، (- الفصل الأوَّل: قضيَّة الالتزام في النَّقد الأدبيِّ).

(٢) **نفسه**، ص١٥؛ **ولمقاربة تطوُّر مفهوم "الالتزام"**؛ يُنظَر: **نفسه**، ص١٣ – ٨٢، (- الفصل الأوَّل: قضيَّة الالتزام في النَّقد الأدبيِّ).

(٣) يُنظَر: مندور، محمَّد، **في الأدب والنَّقد**، (د. ط)، نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، (١٩٨٨م)، ص٣٧، (- نقد نقد الأدب وتاريخه/ - الأدب والحياة الاجتماعيَّة).

(٤) هلال، محمَّد غنيميّ، **النَّقد الأدبيّ الحديث**، (د. ط)، نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، (أكتوبر/ ١٩٩٧م)، ص٤٥٦؛ **ولاستظهار قضيَّة "التزام الشَّاعر"**؛ يُنظَر: **نفسه**، ص٤٤٩ – ٤٦٢، (- الفصل الثَّاني: الشِّعر/ ٦ – التزام الشَّاعر).

الصُّعُود نحو شُمُوس التَّحرُّر، في قابل فعل الثَّورة ومضاء النِّضال، وقد ارتبطت في المعتقَدِ الدِّينيِّ بميلاد المسيح عليه السلام[1]؛ لتُؤسِّس، بحضورها الكُلِّيِّ، دواعي ميلاد السَّلام من عمق الآلام؛ ولتكون، تاليًا، مُهتَدى المنكسرين في الانتفاض التَّحرُّريِّ القادم؛ بوصفها بوصلة تَحرُّر الوطن بعامَّةٍ، وأشواق الشَّاعر الحَرَّى بخاصَّةٍ[2].

وأن تكون النَّجْمة حاضرةً في أعلى الصُّورة البصريَّة؛ بوصفها دالًّا مفتاحيًّا، على حالةٍ بؤريَّةٍ مكانيَّةٍ، رازحةٍ تحت نير الاحتلال؛ فلغاية نَمْذَجة المدينة للتَّغريبة الجَمْعيَّة، واستلال وليجة الخلاص من الصُّورة القاتمة، بالوميض النَّجْميِّ، على أن تستحيل بفعل التَّراكُم النَّهْضويِّ، والاجتراح الاستشرافيِّ؛ إلى نورانيَّةٍ متصاعدة النَّفَاذ والإشراق؛ انسجامًا مع مبذول الدَّم على مذبح الحُرِّيَّة.

ثمَّ يكون لنا، في فضاء المقاربة العنوانيَّة، أن ننظر في ثاويات الدَّالِّ النَّجْميِّ، على نحوٍ خاصٍّ؛ من خلال الإيحاء الرُّباعيِّ؛ المُبين عن المستويات: الذَّاتيَّة، والأيديولوجيَّة، والموضوعيَّة، والفنِّيَّة؛ وفي الذَّاتيَّة مزيد السُّكُون والقلق والتَّردُّد، فضلًا عن ذاتويَّة التَّوحُّد، مع تَجلِّي فِتْنة الحُبِّ الأزليِّ، للمكان البُؤْريِّ؛ أمَّا الأَدْلَجَة فنزَّاعةٌ إلى الكشف الواقعيِّ، والخلاص الجَمْعيِّ، بالاستشراف النِّضاليِّ؛ بينما تأتي

---

(١) **حول تَتبُّع كُهَّان المَجُوس للنَّجمة من المشرق؛ ليهتدوا بها إلى مكان ولادة المسيح عليه السلام**؛ يُنظَر: **الكتاب المُقَدَّس؛ العهد الجديد**، (ط٣)، دار المشرق والمطبعة الكاثوليكيَّة، بيروت، (تشرين الثَّاني، نوفمبر/ ١٩٩٤م)، ص٣٨، ٣٩، (– الإصحاح الثَّاني؛ قُدُوم المَجُوس وسُجُودهم ليَسُوع)؛ (– الإنجيل كما رواه متَّى)؛ **وفي الحيثيَّات الزَّمانيَّة والمكانيَّة لولادته عليه السلام، فضلًا عن ظهور النَّجْمة**؛ يُنظَر: العقَّاد، عبَّاس محمود، (ت١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م)، **حياة المسيح في التَّاريخ وكشوف العصر الحديث**، (د. ط)، نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، (أبريل/ ٢٠٠٥م)، ص٦٩ – ٧١، (– الباب الثَّالث: تاريخ الميلاد/ – متى وُلِد المسيح؟)؛ **وللاطِّلاع على قضيَّة سرقة النَّجْمة الفضِّيَّة من مغارة "المَهْد"، الَّتي كُتب عليها باللَّاتينيَّة:** "هنا وُلِد المسيح من العذراء مريم"؛ ممَّا أدَّى إلى نشوب حرب "القرم" (١٨٥٤ – ١٨٥٦م)، بين روسيا من جهةٍ، والدَّولة العثمانيَّة وبريطانيا وفرنسا من جهةٍ أخرى؛ وانتهاء الحرب بانتصار العثمانيِّين وحلفائهم؛ يُنظَر: مجموعة مُؤَلِّفين، **الموسوعة الفلسطينيَّة؛ القسم العامّ**، (ط١)، هيئة الموسوعة الفلسطينيَّة، دمشق، (١٩٨٤م)، ١: ٤٥٩، (– ب/ – بيت لحم [مدينة])؛ ويُنظَر: مجموعة مُؤلِّفين، **بيت لحم (مدينة)**، الموسوعة الفلسطينيَّة، (www.palestinapedia.net)، بتاريخ: (٢٣/ "٩، أيلول، سبتمبر"/ ٢٠١٣م)، (– حرف الباء).

(٢) يُشار إلى أنَّ الشَّاعر خليل توما، تُوفِّي "مساء يوم الثُّلاثاء، (١٣/ "٢، شباط، فبراير"/ ٢٠١٩م)، عن عمر ناهز (٧٢) عامًا، في مدينة بيت لحم، جنوب الضَّفَّة الغربيَّة المحتلَّة، بعد خضوعه لعمليَّةٍ جراحيَّةٍ مُعَقَّدةٍ؛ أدَّت لتوقُّف قلبه"؛ **نقلًا عن: الموت يُغيِّب الشَّاعر الفلسطينيَّ الكبير خليل توما**، بوَّابة "الهدف" الإخباريَّة، (http://hadfnews.ps)، بتاريخ: (الأربعاء/ ١٣/ "٢، شباط، فبراير"/ ٢٠١٩م/ ٨:٥٩ ص).

المُسَاوَقة الموضوعيَّة بيانًا لجدليَّة: الانْكِسَار، والانْتِصَار؛ بتمظهر كلَيْهما في سياق الحال، واستنهاض الضِّياء من المُحَال؛ ليتجلَّى المستوى الفنِّيُّ في الأَسْلَبة الرَّمزيَّة للمُؤَشِّر الغائيِّ التَّحـرُّريِّ، بالمفتـاح الأيديولوجيِّ الثَّوريِّ.

الإِطَارُ الثَّالِثُ: مِهَادٌ فِي فَضَاءِ الْمَجْمُوعَةِ الشِّعْرِيَّةِ.

تُعَدُّ المجموعة الشِّعريَّة(١)، في ضوء المُؤَشِّرات السَّابقة، أُمْثُولَةً على حضور فضاء "بيت لحـم" المكانيِّ، في السِّياق الموقعيِّ، المُوحِي بمُكْنة الانتماء، وبالغ الحُبِّ والوفـاء؛ حـين يُجلَّـل المُسَـمَّى القصيديُّ، في الموطنَيْن: الاستهلاليِّ، والختاميِّ، بِـ"بيت لحم (١٩٦٩م)"(٢)، وَ"بيت لحم في القلب"(٣)؛ توصيفًا لحالة الانكسار في القصيدة الأولى، وترسيخًا لدواعي الانتصار في الثَّانية.

وقد تبدَّت "النَّجْمة"، في سياقات المجموعة؛ من خلال ارتباطها بقصائد: "بيت لحم (١٩٦٩م)"(٤)؛ بمفارقة الذَّبْح والسَّلام، وَ"عوليس في الرِّحلة الأخيرة"(٥)؛ بإيحاء الانتفـاض، وَ"الخطبـة الأخيـرة"(٦)؛ بمُؤَشِّر الاستشراف، و"بكائيَّة ليست من البكاء"(٧)؛ بقيمة التَّمرُّد، على ما في التَّبايُن الموقعيِّ؛ من بيان صدارة الاعتلاق النَّجْميِّ ببؤرة المكان؛ ذلك البادي من القصيدة الأولى؛ أمَّا الثُّلاثيَّة التَّاليـة فمُتَـأخِّرة الحضور حتَّى الفصل الختاميِّ للمجموعة "الشَّمْس والحِصَار/ أصوات في المدينة"؛ ممَّا يوحي بتصاعد البناء الأيديولوجيِّ لفكرة الانتصار؛ من ظُلُمات الانكسار.

ورسَّخت المجموعة الشِّعريَّة بمضامينها العامَّة؛ أُطُر: التَّوصيف، وَالتَّوثيق، وَالاستشراف؛ أمَّـا التَّوصيف فبادٍ في ثلاثيَّة: المَعِيش الجَمْعيِّ، والماثل الانكساريِّ، والموروث الوطنيِّ؛ وأمَّـا التَّوثيـق فمجاله الأسر الذَّاتيُّ، وشهداء الوطن في السُّجُون، وصُعُود نجم العدالة الاجتماعيَّة في "تشيلي"؛ بينمـا صاغ الشَّاعر استشرافه بدوالِّ: الفَجْر، وَالحُلُم، وَالأُفُق، وَالغَد، وَالنَّار، وَالشَّمس... إلخ، مـن خـلال

(١) يُنظَر: توما، خليل، (ت١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م)، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، (ط١)، شركة نور للطِّباعة والتَّصميم، بيت جالا، (٢٠١٥م)، ص١٢١ – ٢٥٦.

(٢) **نفسه**، ص١٥٩.

(٣) **نفسه**، ص٢٣٢.

(٤) **نفسه**، ص١٦٠.

(٥) **نفسه**، ص٢٢٢.

(٦) **نفسه**، ص٢٤٦.

(٧) **نفسه**، ص٢٥٢.

التَّصريح تارةً، والتَّلميح تارةً أخرى، بالاتِّكاء على تِقَانَات: التَّرميز، والأَسْطَرة، والانزياح، والتَّناصِّ، ذلكم جميعه مع ارتباط الشِّعر بتقديم النَّثر الانكساريِّ، وختام المنثور الانتصاريِّ، والنَّقلة النَّوعيَّة للخطاب من التَّقصيد الإفراديِّ إلى البناءِ الدِّرَاميِّ، المُشِير في بوح العنوان، ومركزيَّة المكان؛ إلى التئام المستويات: المضمونيَّة، والأسلوبيَّة، والتِّقْنيَّة، على رواية الحكاية، في فصلي: الموت، والحياة، على ما في تقديم "الشَّمْس" على "الحِصَار" في المبنى الأخير؛ من انتصارٍ فنِّيٍّ واعٍ لأُدْلُوجَة الحُرِّيَّة والنَّصْر.

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ: مُؤَشِّرَاتُ الانْكِسَارِ

تمظهر الانْكِسَار في الخطاب الشِّعريِّ، بغير مضمونٍ فكريٍّ، وعلى غير سبيلٍ تعبيريٍّ، مُتَّخِذًا من الأُطُر: الذَّاتيَّة، والجَمْعيَّة، والقَوْميَّة، مُتَّكَأَ التَّفاعُل الأيديولوجيِّ، مع المكان البؤريِّ؛ بما تمخَّض عنه من مفارقاتٍ اجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ.

الْمَطْلَبُ الأَوَّلُ: الانْكِسَارُ الذَّاتِيُّ

تشكَّل التَّنْميطُ المضمونيُّ للقيمة الانكساريَّة، في ثِيمَة الذَّات المُنْدغِمة مع القِيَم: الجَمْعيَّة، والوطنيَّة، والإنسانيَّة؛ بوصفها تُرْجُمَان المُؤَثِّرات الحَدَثِيَّة، والسِّياقات الزَّمكانيَّة، الَّتي ألقت بظلالها على مضامين الخطاب؛ لتُجسِّد قيمةً نوعيَّةً في قراءة تلافيف المرحلة؛ بسقوطها وانكفائها، ثمَّ صعودها مِهَادًا لانتفاضها.

ويطالعنا خليل توما بالمكاشفة الصَّارخة لعمق المأساة؛ المُؤَرِّخة حدث النَّكْسة الجَلَل، وقد غدت الذَّات مُسْتَلَبة الأمل، تلتمس خيوطه في الميدان المُحْتَشِد بصور الموت والدَّمار؛ بما كان للعَنْوَنَة من إيحاء التَّجريد، المُفْرَغ من التَّقييد؛ لغاية التَّأسيس لجلالة الوقفة الذَّاتيَّة، في لُبِّ المساءلة المكانيَّة، المُشْتَمِلة بالسُّكُون؛ أمَّا الزَّمن فيجري على سبيل البَيَان السَّابِر قِيَم: الموت، والرَّحيل، والانكسار.

ويمضي الشَّاعر في فضاء المكان البُؤْريِّ، من خلال قصيدة "بيت لحم (١٩٦٩م)"؛ ليُؤرِّخ لآثار النَّكْسة في العصر الحديديِّ، بالخطاب الإخباريِّ، المُعَبِّر عن الانكسار الذَّاتيِّ، قائلًا[1]:

في عامك الثَّاني من العصر الحديديّ
أقبلت ألقى وجهك المفقود في أيَّام عيدي

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٥٩.

ما حُمِّلتْ كفَّاي غير سلاسل لصقت بجيدي

وسألتُ عنك فما أُجِبتُ

بغير صمتٍ أو جحودِ.

ويوحي الاستهلالُ الشِّعريُّ، بالانكسارِ الذَّاتيِّ، في ثنايا الاستيفاقِ الوجدانيِّ، على رحيل المكان البُؤْريِّ؛ عن قِيَم: الحُرِّيَّة، والحُبُور، والحَيَاة؛ بمقابلاتها الضِّدِّيَّة؛ الماثلة في: سطوة السَّجَّان، وأسى الإنسان، ومَوَات المكان، وقد مضى التَّأريخ صعودًا إلى العام الثَّاني من واقعة النَّكْسة المُدَوِّية؛ الَّتي عكست انكسار الذَّات بانكسار المدينة وساكنيها، وانتفاء مظاهر الحياة.

وعندما تقع الذَّات في شَرَك المكان الرَّاحل عن الحياة؛ تضحي "بيت لحم" مَكْمَن التَّسْآل المتلاحق عن درب الوصول، في الخطاب السَّاعي إلى تحقيق المأمول؛ بالتماس بصيص الأمل، في نسائم حياةٍ، خلَّفها الغُزَاة بَعد تمام الفاجعة، فيقول الشَّاعر(١):

من أين دربك بيت لحم

أمن هنا بين المقابر؟

أم من هناك؟

وفُوَّهات بنادق وصدى مجازرْ

والشَّوك والأحجار والمسمار في كُلِّ المعابر

في الطِّين غاصت أرجلي

في الوحل في لزج الظَّلام

وأنا أُفتِّش عنك أبحث

في الوجوه الضَّائعة

يا لهفتي

نقَّبت عن كُلِّ المراكب في بقايا أشرعة

قالوا انطوت

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٥٩، ١٦٠.

في لجَّة الإعصار ما تركت لنا

غير القلوب الموجَعة.

وتُؤسِّس اللَّوحة الشِّعريَّة السَّابقة للتَّسآل الَّذي نثره الشَّاعر على درب الوصول، في واقع المـــوت الجماعيِّ الآفل، والحصد البشريِّ القابل، وقد غدت سائر المعابر رهينة الاستغلاق المنيـــع؛ لترحـــل المدينة نحو الضَّائع المجهول؛ ويتبدَّى، في إثر ذلك، التئام الذَّات مع وجع الجماعة، حين انطوت بقايا أشرعة الأمل، في لجَّة الإعصار الاحتلاليِّ العاصف.

والمُتَفحِّص لتضاعيف الخطابِ الشِّعريِّ؛ يدرك تأرجح البناء بين: التَّصديرِ الإنشائيِّ، والتَّغليـــبِ الإخباريِّ، المُسْتنِدِ إلى الرُّسُوخ الاسميِّ، مع إدراك المعنى المحوريِّ بأشباه الجُمَل؛ المُوحِية بضـــعف الذَّات، الَّتي تبدَّدت أحلامها "في الطِّين"، وَ"في الوَحْل"، وَ"في لجَّة الإعْصار"، وقد التمست في دراميَّـــة الحوار مُحْتَضن الجماعة؛ خلاصًا منتفيًا بـــ"القُلُوب المُوجَعة".

وأن يكون للشَّاعر تَنْميط الانْكِسَار، في ظلِّ الوطن، مع حضور القَيْد، وبارتقاء الحنـــين؛ فـــذاك الَّذي تُحسِن العَنْوَنَة اجتلابه إلى المِخْيَال في المواجهة النَّصِّيَّة الأولى؛ من وجهي: الفَـــرَادَة المُقْترِنـــة بكاشف القصيدة الأوَّل "بيت لحم في القلب"، والإضاءة المُرْتبِطة بتَمَوْضُع القصيدة في الفصل الأخيـــر من المجموعة "الشَّمْس وَالحِصَار"، على ما في البُؤْريَّة المكانيَّة للمدينة، والحضور المركزيِّ للقصيدة؛ من إيحاء تَملُّك المكان لُبَّ الإنسان، في ظِلِّ قمع السَّجَّان.

ولتوما أن يُصدِّر المبنى بكاشفه التَّنويريِّ، قائلًا: "دقائق قبل النَّوم، تنغلق الأجفان، وتتألَّق الأحداث والصُّور والذِّكريات، ويمارس السَّجين اجتيازه المعتاد للبوَّابات المغلقة، ويسرع راكضًا إلـــى صـــدر الوطن يُقبِّله شبرًا شبرًا"(١).

ويوحي المقطع الأوَّل من القصيدة؛ بانكسار الذَّات أمام العتمة والقُفْل؛ لتتملَّكها لـــواعج الشَّـــوق والحنين، لسِحْر الأميرة "بيت لحم"، وقد أُغلِقت دروبها أمام ناظري الشَّاعر، بالحـــارس، والقضـــبان، والجيف؛ ليتصاعد الشُّعورُ الذَّاتيُّ بالعجز عن الوصول، والعصفور في قفص السَّجَّان، للحُرِّيَّة في أعلى مراتب النِّشْدَان؛ بديمومة الحركة السَّاعية إلى صناعة الضِّياء من العتمة، والتماس الحُرِّيَّة في عمـــق

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٣٢.

الأزمة، ولا أقلّ، إذ ذاك، من ابتناء مساحةٍ للأحلام، في عينَيْه المُحَدِّجتَيْن إلى الشُّطْآن، وَالمَوْج، وَالقِمَم؛ بما فيها من اصطناع سُبُل الحياة، وفي ذلك يقول(١):

في عتمةٍ ممزوجةٍ بالوجد كنتِ حديثنا
والقفل يكبر فوق صدر البابْ
وحنينك المدفون في برد القيود أحسُّه
صوتًا يناديني، ولكن يا عزيزتي الأميرةْ
كُلُّ الدُّروب كما ترينْ
والحارس المجنون والقضبان والجيف الحقيرة
ما يصنع العصفور في قفصٍ وفي
أعماقه جوع المسافات الأسيرة؟
يرتاح في صمت المقاوِم لحظةً
ويرفُّ والقضبان تردعهُ
وتلقي ريشه نتفًا على الأرض الصَّغيرةْ
ويشبُّ ثانية فتدمى رأسهُ
وتُفجِّر الأحلام في عينَيْه شطآنًا
وتفتح صدرها للموج، أو قممًا نضيرةْ.

ويحمل اللَّيل بعتمته إلى الشَّاعر الهمَّ والألم والاغتراب؛ فيلتمس بالتَّطواف الرُّوحيِّ دواعي الاقتراب، من (المُشَخَّص المكانيِّ الكُلِّيِّ/ المدينة)، وَ(الشَّواخص الجزئيَّة/ الحدائق والبيوت)؛ لتعتريه رعشة اللِّقاء الدَّافئ، في دِثَار (الأُمِّ/ الرَّبيع والحياة)، وهو الباحث عن ذاته إثر انكسارها، في حنين البدايات إلى الأُمُومة والخِصْب والحَيَاة، فيقول(٢):

اللَّيل موعدنا فأسرع حاملًا
ألمي إليك وغربتي
وأطوف كالرّوح الشَّريد مهمومًا

(١) **نفسه**، ص٢٣٢، ٢٣٣.
(٢) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٣٣.

فوق الحدائق والبيوتِ، ورعشتي
مثل ارتعاش الطِّفل في حُمَّى الفراش وشوقِهِ
لدثار أمٍّ، آه يا أُمِّي الَّتي
اعتاد خدِّي صدرها
واعتاد أن ينمو الرَّبيع بلمسةٍ
من كفِّها في جبهتي.

ووصلت الذَّات المُتْعَبة بنعاسها إلى الأُمِّ الحانية، في حلم العودة إلى المكان، وقد أدركت سُكُون السِّجن وقيد السَّجَّان؛ فارعوت إلى طقس الاستحضار، والحاضرون، في المِخْيَال، (وجه الأميرة/ المدينة)، وقاطنوها، وإخوته الرَّاحلون في تيه الأمصار، بيد أنَّ التَّصوير المُسْتنِد إلى الوليجة الحسِّيَّة، يبتني بالصَّوت والإبصار مُؤَسِّسات الحركة، المُعْتلِقة بانبجاس الماء؛ على ما فيها من تَدَفُّقٍ إخصابيٍّ يُولِّد الحياة من لُبِّ السُّكون، والحركة على أنقاض المَوَات؛ لانتزاع سُبُل المُكْنَة والانْتِصَار، من ماثل المِحْنَة والانْكِسَار، فيقول الشَّاعر(١):

تعِبٌ، ويحملني النُّعاس إليك لكن لا أنامْ
عيناي مغمضتان فوق حصيرةٍ
تتخثَّر الخفقات فيَّ ولا أنامْ
أستحضر الأرواحَ: وجهَك والزِّحامْ
ووجوه إخوتي الَّذين تشتَّتوا
في كُلِّ ناحيةٍ، ومن عمق الظَّلامْ
يتدفَّق الصَّوتُ الصَّدى
ويسيل كالينبوع منبجسًا فأشرب، آه من
عطشي إليهم
ونغوص في بحر الحديث بلا كلام.

(١) **نفسه**، ص٢٣٣.

ويتبدَّى الانكسارُ الذَّاتيُّ، في المنحى الإنسانيِّ، من خلال قصيدة "في المدرسة"؛ الَّتي رسَّخت، بومضاتها الإنسانيَّة؛ ملامح: الفَقْر، والجُوع، والحِرْمان، والظِّلال الثَّاوية، في ثنايا القصيد، تدين المُسَبِّب بذكر أَسَى المُسَبَّب؛ ذلك الَّذي أرسى في المدينة جبروته؛ بانكسار الفَرَح والعُنْفُوان.

ويتضمَّن المقطع الأوَّل مَزِيَّة التَّصدير الصَّوتيِّ لـ "الجَرَس"؛ المُوحِي بجلالة المَحْكِيِّ، في الإطار المعيشيِّ اليوميِّ، على الصَّعيدَيْن: الذَّاتيِّ، والجَمْعيِّ، البائن بالكاشف البُؤْريِّ: "ما يفعل الفَقْر اللَّعين"؛ على مَقْصِدِي: التَّنبيه، والاحتجاج، ليقول الشَّاعر(١):

قُرِع الجَرَس
وأصابعي اهترأت لستر تَمزُّقٍ في شنطتي
سنةٌ على سنةٍ على سنةٍ
وأقول أُبدِّلها، ولكن خيبتي
تمتدُّ من حلمي لمحفظتي
– ما يفعل الفقر اللَّعين –
الحَرُّ والأطفال والكتب العتيقة والذُّبابُ
وغرفة لأبي وأُمِّي والصِّغار الجائعين
وصراخ جارتنا تصيح بزوجها السِّكِّيرْ
يا ليتني قد متُّ قبل زواجنا
فيجيبها آمين.

ويتحوَّل قرع "الجَرَس" إلى الحالة الذَّاتيَّة، المُغَلَّفة بالأَسْلَبَة الانزياحيَّة؛ من مثال تَموضُع الخدِّ فوق الكفِّ، واستلقاء النَّوم على الجسد، مع حركةٍ فعليَّةٍ مَوَّارَةٍ بتسارعٍ إيقاعيٍّ؛ ليتبدَّى الفَقْد المُشْبَع بمزيد الحرمان؛ ولذلك أن يستدعي التفات الطُّفولة إلى مصدر المَشْمُوم؛ حيث المَطْعُوم الْمُعَدُّ في مكانه عند الطَّريق؛ وللنَّوافذ، حينها؛ أن تشي باختلاط الإنسانيِّ مع الوطنيِّ؛ في ملمحٍ انكساريٍّ صارخٍ، يُجلِّل الوَصْل بالقَتْل، على ما في تَكاثُر الثُّقُوب من انشغالٍ بالآنيِّ، عن الحصار المكانيِّ، الَّذي يستجلب الكفَّ الثُّلاثيَّ المُدَوِّي، وقد بلغ انتهاك أماني الطفولة مداه المُعَلَّى، فيقول(٢):

قُرِع الجَرَس

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٤٢.
(٢) **نفسه**، ص١٤٢، ١٤٣.

خدِّي على كفِّي،
والنَّوم يستلقي على جسدي
ويسيل من أنفي،
وأشمُّ رائحة الفلافل والبصلْ
من مطعمٍ عند الطَّريق
فأدور نحو نوافذ الصَّفِّ
لأرى حبيبتي الَّتي
بيني وبين وصالها حتفي
فأضيع في ثقبٍ على كُمِّ القميص
وأصيح يا.....
يكفي
يكفي... يكفي.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الانْكِسَارُ الْجَمْعِيُّ

تولَّدت الثِّيمَة الانكساريَّة الجَمْعيَّة، في شعر خليل توما؛ بفعل الاستنطاق الكاشف لمفصليَّة المرحلة في الحياة الجماعيَّة؛ على سبيلي: التَّوصيفِ الشِّعريِّ، لآثار النَّكْسة في المجتمع المدنيِّ، والتَّحدِّي الأيديولوجيِّ النِّضاليِّ، للواقعِ الاحتلاليِّ؛ الَّذي تمظهر بالقَرْع المُنبِّه، وتجسَّد باللَّهَب المُوَلِّه، وقد فاضت أشواقه، واستفاض حنين الجماعة، إلى المدينة الكائنة خلف أسوار الحصار؛ تلك الَّتي تبدَّت، حينًا، بألقها الاسميِّ البائن، وكانت، أحايين، رهينة حضور القرائن الرَّمزيَّة السِّياقيَّة والمكانيَّة.

ويحضر التَّوصيف الكاشف في بؤرة قصيدة "بيت لحم (١٩٦٩م)"؛ لإبانة اللَّحظة الفارقة بين: الحُبُور، والثُّبُور، مع مُثُول التَّأطير الزَّمكانيِّ اللَّيليِّ في المدينة، الَّتي شهدت زوبعة الحزن، وحصار السِّجن، وقد أضحى الكلُّ رهينهما؛ لتتبدَّى الفوضى، ويتعالى الرَّحيل، ويتصاعد التَّشتُّت، وتتعالى آهات الوَحْدَة، وقد ذُبحت (النَّجْمة/ المدينة)، بأسياف الضَّغينة؛ تلك الَّتي بدت، في بُؤْرة المقطع، حالةً من التَّأنيبِ الجَمْعيِّ؛ لرحيل الثَّورة عن الفعلِ النِّضاليِّ، فيقول خليل توما[1]:

وبليلةٍ شرب الجميع كؤوسهم بيد السُّرور

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٦٠، ١٦١.

لاحت على الآفاق زوبعةٌ
وألقت ظلَّها فوق المدينة
يا كُلَّ أغصاني الحزينة
يا كُلَّ أطياري السَّجينة
يا نجمة ذُبِحت بأسياف الضَّغينة
كُلُّ الأكفِّ الضَّارعات تقطَّعت،
كُلُّ الحناجر
وأنا أُصلِّي
لم يعرني مَسمَعُ الرُّبَّان آذانًا
كأنِّي لا أنادي غير ظِلِّي.

ويتبدَّى الانكسارُ الجَمْعيُّ في أظهر تجلِّياته؛ حين يُؤرِّخ الشِّعر لِمَا بَعد الصَّلْب؛ وقد سيطر الشَّيطان على تفاصيل المدينة، وامتصَّ ذكرياتها، وتاريخها، وأمانيها، وثرواتها، وأرسلها لمظاهر: العبثيَّة، والكدح، والجوع، والعطش، الَّتي شملت سائر المُكَوِّنات الاجتماعيَّة، حيث يقول الشَّاعر في قصيدة "ليلة صيف"[(١)]:

ويغيب وجه العالم المصلوب فيها لحظة
ويقهقه الشَّيطان فوق دخانها
وسعاله يمتصُّ من شريانها
ذكرى من الأمس الَّذي ولَّى وتاريخ العذابْ
ويدٌ تشدُّ الشَّيب ترحل بالأماني
من سرابٍ لسراب
وبألف خطَّافٍ تعلَّق وجهه
كفريسةٍ ما بين أظفار وناب
يا عيشة هي والكلابْ

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٩٨، ١٩٩؛ وقد أشار الشَّاعر، في مستهلِّ النَّصِّ، إلى أنَّ القصيدة "قد كُتِبت أثناء فترة الحكم التَّقدُّميِّ، في تشيلي"؛ **نقلًا عن: نفسه**، ص١٩٧، (– قصيدة "**ليلة صيف**").

والقفَّة العمياء والصُّبح المُعَفَّر بالتُّرابْ
وشواهق تُبنى على أشلائنا
والجوع في الأسواق يهزأ بالوريقات الهزيلةْ،
تَعَبُ النَّهار من الصَّباح إلى المساء
لا يشتري للبنت فستانًا
ولا للابن بعض دفاتر،
والماء فوق الرَّأس تحمله
والصَّيف أيَّامٌ طويلة
والزَّوجة الخرساء لا تشكو
فما في اليد حيلة.

وأن يكون الشَّاعر مِعْوَان الحالة الانكساريَّة الدُّونيَّة على سبيل الاستنهاض؛ فذاك المقصود بعينه وفق الإحالات الرَّمزيَّة، والقرائن السِّياقيَّة، المُرْتبِطة بالمدينة البُؤْريَّة؛ أمَّا الاستنهاض فماثلٌ في منحًى تصاعديٍّ يتنامى بالتَّنْبيه، ويتعالى بالتَّحدِّي، ويتسامى بتوليد نار المواجهة، وحين نُحايث التَّنبيه؛ فلنا في فحواه قمين الخطاب الماثل في قصيدة "إلى شلومو وإخوانه"؛ الَّتي استلهمت، مـن التَّـاريخ، جنـون العظمة للملك العابث (نيرون)، الَّذي ألَّه نفسه، وتصرَّف في أحوال العباد والبلاد على نحوٍ فجـائعيٍّ، كما حدث في حريق (روما)[1]، وفيها يقول[2]:

آه على أيَّامك السَّوداء يا روما
على آذانك الصَّمَّاء،
لو تنظرين إلى الجهود الضَّائعة،

(١) **لاستقصاء جُنُون العَظَمة عند (نيرون)، المُقْترن بملمحي: التَّأْليه، والطُّغْيان**؛ يُنظَر: إمام، إمام عبد الفتَّاح، (١٨٣) **الطَّاغية؛ دراسة فلسفيَّة لصورٍ من الاستبداد السِّياسيِّ**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الـوطنيّ للثَّقافـة والفنـون والآداب، الكويت، (مارس/ ١٩٩٤م)، ص٣٣، (– الباب الأوَّل: في فلسفة السُّلطة/ ٢ – تأليه الحاكم في الشَّـرق)؛ ويُنظَر: حافظ، أحمد غانم، **الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة من النَّشأة إلى الانهيار**، (د. ط)، دار المعرفة الجامعيَّة للطَّبـع والنَّشر والتَّوزيع، الإسكندريَّة، (٢٠٠٧م)، ص٥٩، ٦٠، (– الفصل الأوَّل: [العصر الإمبراطوريّ المُبَكِّر]/ – ثانيًا: العصر الإمبراطوريّ المُبَكِّر/ – نيرون، [Nero]).

(٢) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٩٦.

لا تنبت الدِّفْلى ببرميلٍ من البارودْ

فلم العناد، لم العناد

والتُّربة الخضراء حولك شاسعة.

ويضحي التَّأوُّه، المُشْتمِل بسوداويَّة الأيَّام؛ مفتاح الإدانة لواقعي: الصَّمَم، والضَّيَاع، وقد قضى البارود على أحلام الخُصُوبة والنَّماء؛ بعناد المُسْتبِدِّ المارق من تاريخ الإنسانيَّة؛ المُسْتدعِي تعليق "الأجراس" احتجاجًا، وتنبيه المسيح اصطبارًا، وإعانة الفقراء والصِّغار انتصارًا، للقيمة الإنسانيَّة المُنْحدِرة صوب الدُّون، وقد لفظ "الغُول" الشَّاعرَ والجَمْع إلى "الجُبِّ" أو "الضَّريح"، فيقول الشَّاعر(١):

سأُعلِّق الأجراس في عنقي أسير إليك مُحتَجًّا

أصيحُ، أصيحُ، أعبر في شوارعك الكئيبة صابرًا مثل المسيح:

إليَّ إليَّ يا فقراء يا مُتَسوِّلي روما

فمن حرم الصِّغارَ الخبزَ يلقيني

إلى جُبِّ الأسود ليستريحْ

وإليَّ يا روما الأزقَّة والمقابر والصَّفيح

ما أنت إلَّا توأمي

أحشاء هذا الغول تلفظنا إلى

أعماق جبٍّ أو ضريح.

ويتنامى الخطابُ الأيديولوجيُّ صعودًا إلى التَّحدِّي، في قصيدة "آفاق لا تنتهي آخرها"، الَّتي سجَّلت، مع التَّأريخِ الواقعيِّ لـ"عصر الحديد" و"الدَّم"، ثِيمَة استيلاد البطولة من رحم الفاجعة، والغناء للشُّموس الصَّاعدة، في فضاء الانتفاض المُقَاوِم بالآمال، بقيد العزم المُجَابِه للمُحَال، مع تضمين المبنى مُحَفِّزات الصُّعود بالسُّؤال المركز؛ لمَقْصِد قهر ("الطُّوفَان"/ الاحتلال)، وانحسار ("الجَلِيد"/ السُّكُون)، حيث يقول الشَّاعر(٢):

عصر الحديد

عصر الدَّم المسفوك في بدني متى

(١) **نفسه**، ص١٩٦.

(٢) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٩١.

يتقهقر الطُّوفان عن وطني وينحسر الجليدْ؟؟
تتعذَّب النَّفس الأبيَّة أيُّها الزَّمن البليد
والسَّبْي طال
جيلٌ من الأبطال يُولَد كُلَّ يومْ
والشَّرق ميدانٌ على كُلِّ التِّلال
وأنا أُغنِّي للشُّموس الصَّاعدة
والعزم ينتزع المحال.

وحين يكون "عوليس في الرِّحلة الأخيرة"، قافلًا ضمن رحلة العودة؛ حيث المـــوت والحصـــار، والجوع والانكسار[1]؛ تحضر "بيت لحم" في بُؤْرة النَّصِّ الكاشف عن الانتظـــارِ الجَمْعـــيِّ، للموكـــبِ النَّاريِّ، في الطَّقسِ القداسيِّ؛ بمُؤَشِّر الولاء، ومزيد الانتماء، إلى النَّجْمة المُعَبِّرة عن ثنائيَّة: الانْكِسَار، والانْتِصَار؛ بما تضمَّنته الجدليَّة من إيحاء الاستلاب في جانب، والنَّار المُتَّقِدة مقاومةً من جانبٍ ثـــانٍ، مع تَبدِّي مفارقة: الاقْتِرَاب، والاغْتِرَاب؛ من خلال البَيْن المُعَلَّى بالجدار، فيقول الشَّاعر[2]:

النَّشيد الأوَّل:

نحن الَّذين في انتظار
أن تعلن العقارب الصَّغيرة
ميلاد يومٍ قادمٍ في مركبٍ من نار
تشدُّنا كما المجوس نجمةٌ
وإنَّ بيت لحمْ
تبدو هناك واحةً

(١) تُمثِّل هذه القصيدة تناصًّا إشاريًّا لقصَّة "الأُوديسَّة"؛ يُنظَر: هوميروس، **الأُوديسَّة**، تر: دريني خشبة، (ط١)، التَّنْوير للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، والقاهرة، وتونس، (٢٠١٣م)، ص٧، ٨، (- مُقَدِّمة)؛ ويمكن الاطِّـــلاع علـــى حيثيَّات المَلْحَمة في **المرجع نفسه**.

(٢) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٢٢.

أدنى من الجرح العميق في جباهنا

أدنى من الدُّموع في أحداقنا،

لكن بيننا وبينها جدار.

ويُؤطِّر الشَّاعر بالانزياح قَفْلة النَّشيد؛ من جهة لعق الرَّاحتَيْن الصَّبَّار واستفاقتهما؛ في إيحاءٍ بالغٍ بقيمة الفعل المُصْطبِر في ميدان المواجهة، على عمق الجرح الغائر في الطَّريق؛ طريق العودة إلى المدينة؛ وطريق الوعد بالحُرِّيَّة، مع انفتاح الأطروحة الشِّعريَّة، على الغنائيَّة المُوحِية بالتَّحدِّي والانتصار، حيث يقول(١):

هل تلعق الصَّبَّار راحتاك
راحتاك إذ تفيق؟
الجرح كان غائرًا، وكان عمقه الطَّريق
شوقي إليك رايةٌ تقاوم الحريق
وها أنا أُغنِّي.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الانْكِسَارُ الْقَوْمِيُّ

ظهرت الانكسارات القوميَّة في الخطابِ الشِّعريِّ؛ على سبيل التَّوثيق الحَدَثيِّ؛ المُسْتنِد إلى كشف المفارقات التَّاريخيَّة للمرحلة؛ في جوانب: مثول العجز، وانحسار قُوَّة الفعل، وانتفاء ناجز المواجهة؛ ممَّا أسهم في تَردِّي قُوَّة الرَّدع القَوْميَّة إلى الدُّون؛ بصفريَّة التَّحدِّي لمعطيات المرحلة ومُتَطلَّباتها الدَّقيقة، الَّتي مسَّت الوجودَ الوطنيَّ، في محتضن الحضور القوميِّ؛ القائم على "وَحْدَة اللُّغة، والتَّقاليد الاجتماعيَّة، وأصول الثَّقافة، وأسباب المصالح المشتركة. ويرادفه لفظ الأُمَّة (Nation)؛ وهي مجموع الأفراد الَّذين يُؤلِّفون وَحْدَةً سياسيَّة؛ تقوم على وَحْدَة الوطن، والتَّاريخ، والآلام، والآمال"(٢).

ويستعيد الشَّاعر ذكرى الرَّحيل عن حُرِّيَّة الوطن، في فاجعة الانْتِكَاس الجَمْعيِّ، والانْكِسَار القَوْميِّ، بقصيدة "أَجْرَاس"؛ الَّتي أوحت بالقيمة التَّنبيهيَّة العالية؛ من خلال الصُّورة المُتَّكِئة على أسلوب

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٢٢.

(٢) صليبا، جميل، **المعجم الفلسفيّ بالألفاظ العربيَّة والفرنسيَّة والإنكليزيَّة واللَّاتينيَّة**، (د. ط)، دار الكتاب اللُّبنانيّ، بيروت، (١٩٨٢م)، ٢: ٢٠٥، (القَوْميَّة، [Nationality]).

الإخبار، والمسموع ما زال يحفر في ذاكرة الفلسطينيِّ إيقاعه الحزين الصَّاخب، الَّذي ينبني على قيمةٍ نقديَّةٍ لاذعةٍ؛ تدين السَّامعين بالقيمة الصَّوتيَّة؛ السَّاعية إلى تحقيق يقظة الضَّميرِ القوميِّ؛ بالانعتاق من العجز السَّقِيم، والمَوَات المُقِيم، على صعيد الفعل، الَّذي بدا منتفي الحضور مع نهوض الطَّريق عاريةً، وفي ذلك يقول(١):

منتصف اللَّيلْ
أسمعها جيِّدًا
أسمعها تدقُّ في مداخل المدينةْ
وتوقظ الحُرَّاس والحدائق الحزينة
أسمعها، ويمسح الصَّدى الغبارَ عن أعنَّة الخيولْ
وتنهض الطَّريق عارية.

وتتصاعد نبرة الإدانة للانحسار الفعليِّ الصَّادم؛ والقوم في سباتٍ عميقٍ، وهدوءٍ بات منزاحًا صوب الإزعاج، ولم يكن من صوتٍ في المدى، غير جَرْس الصَّدى، وطقطقات المسبحة، الَّتي ماثلت القبر في امتصاص هول المذبحة؛ تلك المُعَبِّرة عن قمَّة الوَحْدة والانكسار والسُّكُون، ومزيد الضَّعف والتَّردِّي والدُّون، ويقول الشَّاعر في اللَّوحة التَّالية(٢):

أسمعها،
كان الحريق ساعة افترقنا
لكنَّه لم يزعج النِّيام،
كان الشَّخير عاليًا
كان الهدوء مزعجًا
وطقطقات مسبحة،
مصَّت كصمت القبر هولَ المذبحة
ويغرق النِّيام.

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٨٣.
(٢) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٨٣.

وتُوثِّق قصيدة "ليلة صيف"، للحالة المُتَردِّية عقب الاحتلال، مع الإحالة الصَّوتيَّة، إلى حضور السَّاعة في عُنُق الكنيسة؛ الَّتي أحالت الفلسطينيَّ إلى صراعٍ مع النَّوم المُقْترِن بالقرار، الَّذي تستجلبه أشرعة الحُرِّيَّة؛ أمَّا الدَّقَّة العشرون ففيها من الوجهة الأوَّليَّة للفهم الشُّعوريِّ الحسِّيِّ ماثل المسموع؛ مع ما توحيه الرَّقميَّة، في المستوى الثَّاني، من القيمة التَّنبيهيَّة العالية، لزمن النَّكْبة، الموافق للعشرين من السَّنوات العِجَاف أو تزيد، من إرادة الفعل القَوْميِّ، ويتعالى في الأثر الحضور الحسِّيُّ الصَّوتيُّ لـ"الجاز" و"الزَّامور" على أطراف المدينة؛ المُوحِي بتنامي الماثلِ الاحتلاليِّ على الأرض؛ إيذانًا بانتهاك القداسة الدِّينيَّة، والمنظومة القَوْميَّة، وقد اتَّكأ الشَّاعر، في مجمل الخطاب، على الإنشاءِ الاستفهاميِّ المُنْكِر؛ للإيحاء التَّقْريعيِّ المُسْتَنكِر، قائلًا[1]:

من أين يأتي النَّوم كيف يجيءْ

يا حارس الأجفان فارقب مَطلعهْ

فلربَّما حملته مركبةٌ وريحْ

وبحيرة السَّهَد الطَّويلِ

تموج تسخط لا تريح وتستريح

حتَّى تلوح الأشرعة

السَّاعة الحمقاء في عنق الكنيسة

السَّاعة الحمقاء دقَّت

للمرَّة العشرين آه أيُّها الزَّمن اللَّعين

وصراخهم والقهقهات

والجاز والزَّامور في طرف المدينة

لمَّا تزل في الرأس تفتح شارعًا
لتمرَّ منه السَّاقطات
والسَّاقطون وينبشوا حفر الضَّغينة
...

(١) **نفسه**، ص١٩٧، ١٩٨.

ويبدو الشَّاعر في قصيدة "عوليس في الرِّحلة الأخيرة"، رهين انتظار الحُرِّيَّة المنشودة، لـــ"بيت لحم" بخاصَّةٍ، والوطن بعامَّةٍ؛ وقد خيَّم اللَّيل الاحتلاليُّ، والصَّمت القَوْميُّ، على الواقع الوطنيِّ، مُطْلِقًا أمنياته المتلاحقة؛ المُعَبِّرة عن العَجْز والوَحْدَة؛ ناشدًا طُهْرِيَّة العَبَرات في عيني المدينة من رجس الاحتلال، وفعليَّة الإسناد القَوْميِّ؛ بالنَّار، والبَارُود، والآلَة، والصَّهِيل، والوَحْدَة، والجَسَارَة، والقُوَّة، والحَسْم، حيث يقول(١):

النَّشيد الثَّالث:

لو أنَّ في ليلٍ يطلُّ شتاؤهُ

نهرًا من العبرات في عينَيْك لو

جسد من النِّيران يطرق بابنا

بيدٍ من البارود،

ويضيء في وجه النَّوافذ شعلةً

لو أنَّ جنزيرًا يمرُّ من شوارعنا

ويصهل قادمًا عبر الحدود،

لو أنَّ زيتون الجبال يسير صفًّا واحدًا،

لو أنَّ عنترة يقود،

لو مرَّةً تلد الرُّعود صواعقًا وتجود!!

ويبتني الشَّاعر بالإخبار توصيفه الدَّقيق لملامح الانكسارة القَوْميَّة الفادحة، في "الخطبة الأخيرة"، مُسْتَهِلًّا اللَّوحة الأولى بنبرة التَّحدِّي؛ المُسْتَمدَّة من عنفوان اللِّقاء الاتِّحاديِّ مع الأرض؛ المُوَلِّد بالجَرَس المُقَرَّع، بركان الرَّفض المُقَرِّع، ضمائر الرَّاحلين عن العروبة، في القمَّة الشَّاهدة على واقعة الصَّلب، وفي عرس الذَّبح المتناثر جثثًا في الحارات العربيَّة، مع الاتِّكاء على الحدس البالغ حدَّ اليقين؛ المُوحِي

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٢٣.

بمزيد الذَّبح والسُّكون؛ ليكون الصُّراخ، في خاتمة حفل الدَّم، مقروناً بدقِّ الجَـرَس؛ إيـذاناً بـالتَّطهير الذَّاتيِّ، والانتفاض الوطنيِّ، بمعزلٍ عن السِّياق القَوْميِّ، قائلًا[١]:

نورق في هذا اللَّيل الآثم، ضُمِّيني،

أوصلتُ يدَيْك إلى جسدي

فانفجرت كُلُّ براكيني.

في خاتمة الحفل سأقرع كالجرس المشنوق على قمَّة جُلْجُثَة

أعلن أنَّ الأيَّام تطاردني،

وأكون الشَّاهد في عرس الذَّبح، أنا المذبوح، وأصرخ

في جثث الحارات العربيَّة، أنَّ يقيني،

ينبئني بمذابح أخرى،

أصرخ في خاتمة الحفل، أدقُّ، أدقُّ، وأعلن أنَّ

النَّهر القادم كي يغسل وجه الصَّحراء، سينبع

من أوردتي المسبيَّة،

إنَّ يقيني ينبئني بمذابح أخرى.

ولم يزل الشَّاعر برنيمه الشِّعريِّ المُخْبِر، عن الالتفاف القَوْميِّ الصارخ، على الرَّاحل اللَّاجئ، من حريق الوطن إلى حرائق الأوطان؛ يُرسِّخ إيحائيَّة "القَمَر الأَحْمَر"، و"كَفِّ المُجْرِم"، و"الأَفْعَى المُتَلوِّية"؛ لتَطاوُل الدَّرْب، وعظيم المِحْنة، ونَكْسة الغُرْبة؛ ليضحي الرَّاحل رهين مرارة الاستلاب؛ أمَّا المُسْـتَلب فالوطن المُقَسَّم على خرائط السِّيادة، واللُّجوء، والموت؛ الَّتي أضحت مفتـاح التَّقاسُـم والاغتصـاب، للإنسان والأرض والمُقَدَّس، في "مخدع راحيل"، وفي سائر أقبية التَّآمُر العالميَّة، بيد أنَّ الشَّاعر يُصِرُّ على التَّحدِّي بمزيد النِّداء؛ المُحَفِّز جسارة التَّاريخ على النُّهوض من دماء المـذابح خيولًـا تصـهل، مُسْتذكِرًا دمويَّة "هولاكو" الموغلة في قتل "بغداد"، ليقول[٢]:

(١) **نفسه**، ص٢٤٥.

(٢) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٤٥، ٢٤٦.

ما زال القمر الأحمر في أفقي، ما زالت كفُّ المجرم

تنذر بالسُّوء وعاصفتي تقتلع الأشجار المهترئة،

والدَّرب طويلٌ، كم أفعى تتلوَّى في هذا اللَّيل

العاهر، تلتفُّ على قدميَّ تسمِّرني بالشَّوك وبالغربة.

كم لص ينتظر السَّاعة مقترعًا كي يغنم ثوبي،

وتجوع أسودٌ في جبِّ القصر إلى بدني

وحراب الصَّيَّادين تطلُّ بأعينها المشحوذة

في حقدٍ أزليٍّ وشباكهمو تتربَّص خطوي

وخرائط من كُلِّ الأشكال انسلَّت من قبو الموتِ

إلى غرف الوزراء وحفلات الكوكتيل وفي مخدع

راحيل سيقتسموني،

في كُلِّ جهات الأرض، سيغتصبوني.

ناديت أنادي أيقظت حروف التَّاريخِ

أطلَّت من أسطرها تقطر دمعًا وخيولًا تصهلُ

كالشَّرر المُتَحفِّز – هولاكو – بانت بغداد على دجلة عاريةً

تنزف في ضوء القمر الشَّاحب تستر عورتها بيد مقطوعة.

ويستمرُّ الشَّاعر في إطلاق نداءاته المُشْتَمِلة بالأسى، بالغًا حدَّ الصُّراخ في "جيف الحارات العربيَّة"، الَّتي صمَّت آذانها عن سماع الاستغاثة المُكَبَّلة بقيد الزَّمن، وليس من ناجز فعلها إلَّا التَّوثُّب الزَّائف، والأُخُوَّة الدَّعِيَّة، والتَّعاطُف المكذوب، والصَّمت المرعب، فضلًا عن الجوع، والعذاب، والقتل، فيقول(١):

ناديت أنادي، أصرخ في جيف الحارات العربيَّةِ

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٤٧، ٢٤٨.

لا تسمعني، بندول السَّاعة كالحبل المتأرجح مشنقة

تتوثَّب في نزقٍ، يفغر فاه هناك أخٌ، وأخٌ

يخفي تحت المنديل الدَّامع بسمتهُ

...

* * *

يقترب الجوع الذِّئب، الصَّلبُ

السَّيفُ، النَّطعُ، ورأسُ الشَّعب،

يقترب الفصل الثَّاني والمشهد في سوق التُّجَّار،

في كُلِّ صباحٍ يحملني المذياع إلى مدن الصَّمتِ

المشبوهة تطلق في رأسي النَّار.

وتأتي الصَّرخة المُدَوِّية، في عمق الضَّمير القَوْميِّ، مُجَلَّلَةً بالوعيد النَّاريِّ؛ بمثابة الكشف السَّافر عن العُقْم العربيِّ، في حمل الرَّاية النِّضاليَّة إلى التَّحرُّر، الَّذي أضحى رهين الوَحْدَة المُتَأرجِحة بين: ظاهر الوِئَام، وثاوي الخِصَام؛ ليكون التَّعثُّر في الانتفاض من الانتكاس إلى الفجر؛ ماثلًا في التَّعاطي القَوْميِّ، مع المشروع الوطنيِّ النِّضاليِّ، على جهة الخِذْلان، واستلاب الأمان، فيقول في اللَّوحات التَّالية[١]:

ها إنِّي أصرخ كالبوق النَّابض في خاتمة الحفل، كنايٍ يلهث

قبل سقوط ستارٍ وأقول صلاتي:

انتظري يا أنظمة العار انتظري

غضبي وانتظري لعناتي

هذا زمن الكشف السَّافر عن

عقم الرَّجل الحامل راياتي.

* * *

(١) **نفسه**، ص٢٤٨، ٢٤٩.

كُنَّا قد أوشكنا لمَّا عبرت في عزِّ الظُّهر قوافلنا

أن ننسف هذا القبرْ

أعددنا خارطةً أخرى للعصر،

ورسمنا طرقًا تصعد من بئر حزيران إلى

قممٍ يستيقظ فيها الفجر

ورأينا وطنًا ينهض كالمارد عاري الصَّدر

قدم في الأوراس وأخرى في غزَّة أو عدنٍ.

* * *

ومماللك تهوي

وملوكًا كالجرذان على قارعة النَّهر

فاض النَّهرْ

أنتظرُ التَّيَّار يذوب الثَّلج عن المدن المنسيَّة

جاء التَّيَّار وكُنَّا قد أوشكنا أن

كُنَّا قد أوشكنا أن...

يا تلَّ الزَّعتر تنشطر الشَّمس على قمم الأرز

يسيل لعاب الحوت الوالغ في دمنا

فلتمطر كُلُّ سماء الدُّنيا كبريتًا نارًا حتَّى يوم الحشر

حتَّى تتمزَّق أرتال كتائبهم ويكون النَّصر

ويكون النَّصر.

وممَّا يُعمِّق الصُّورة الكُلِّيَّة للانْكِسَارِ القَوْميِّ، استهلاله الشِّعريُّ لقصيدة "من الأعماق"، الَّذي جسَّد عشقه المتعالي للأرض، بعيدًا عن غَفْلَة النَّوْم، وخَطَابَة الحَمَاسَة؛ ليكون على موعدٍ مع ناجز العطـــاء، وإخصاب السَّماء، وفيه يقول(١):

العشق في جوانحي
وفوق هامتي يصفق الغضبْ
وأعيني مواقد اللَّهب
أطعمتها.. أطعمتها كرامة العرب
وأذرعي تدقُّ أسطح النِّيام
والكلام لا أحبّ
للرِّيح ما تقوّل اللِّسان لم تعدْ
ترنُّ في مسامعي حماسة الخطبْ
أخلفت كُلَّ موعدٍ
مع الصِّياح والضَّجيج والصَّخب
لموعدٍ من العطاء والسُّحب.

ويلحُّ الشَّاعر على صناعة الأمل من ألم الفاجعة، رغم قسوة المحنة، وأسى المجزرة؛ بالصَّلابة، والثَّورة، والتَّحدِّي، والبطولة، مع تصاعد الثَّورة، في ملامح البطولة المُشْرِقة على الـــوطن بالحُرِّيَّـــة والانتصار، ليقول في قصيدة "العالم الآتي"(٢):

مذ أُهرِقت في المحنة الكبرى مدامعنا
كخمرة المعصرة
كانت هناك بقيَّة
لم تنتهكها المجزرة
كانت وراء اليأس تشتاق اللَّظى
والموتَ، قد ملَّت حياة خائرة
واصلبَّ في ليل الشَّدائد عودُها
فتلمَّست درب الحياة الثَّائرة

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٦٤.
(٢) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٠٧، ٢٠٨.

مهلًا فإنَّا لم نمت
خاب الدُّعاة وحظُّهم
حدِّق عيونك ما ترى؟!
فوق الصَّليب أهلَّةٌ
وسواعد مستبشرة،
وملامح الأبطال تُولَد كُلَّ يومْ
ومع النّبالم يزيدهم شرف البسالة مقدرة،
إنِّي أرى الأجيال قد نفضت تراب المجزرة
والقادمين مع الصَّباحْ
رقصوا على قرن الرِّياح الخائرة.

ويضحي خطاب الشَّاعر مُشْتمِلًا بالواقعيَّة الانكساريَّة، والاستشرافيَّة التَّحرُّريَّة، في قصيدته "أغنية للسُّودان"؛ حين يصف عُرْيه ووَحْدَته؛ لتَخلِّي العروبة عنه، مُنْكِرًا عجزها، ومُسْتنكِرًا خِذْلانها، ومُلْتمِسًا من صفحات تاريخها المُشْرِق روح الثَّورة وتباشير الانتصار، حيث يقول(١):

عاريًا أخرج من ليل الصَّحاري الجاهليَّة
عاريًا أخرج من تحت العباءات الغبيَّة
يا بلادي العربيَّة
يا بلاد الشَّمس والثُّوَّار
أحرقت وجهي سنون الانتظار
فلماذا بعد أن صرتِ الضَّحيَّة
لم يزل يثقل عينَيْك الغبار
* * *
وجهك المُشْرِق يعطيني الأملْ
وجهك المُشْرِق رغم العار
عندما أعرف عن شعب ظفار
وعن الثُّوَّار في أرض عدنْ

(١) **نفسه**، ص١٧٨، ١٧٩.

يا بلاد الشَّمس والثُّوَّارْ
يا بلادي العربيَّة
عندما نسقط من أجل القضيَّة
إنما نعلن بدء الانتصار.

وقد استطاع الشَّاعر فيما سبق؛ أن يُعمِّق حضور "بيت لحم" في الخطابِ الشِّعريِّ؛ على سبيلي: المُبَاشَرة، والرَّمْز، بيد أنَّنا نستطيع استكمال القراءة الواقعيَّة للانْكِسَارِ، في عدَّة مواطن من مجموعته الشِّعريَّة(١)؛ نُظِمت جميعها في وحي بُؤْريَّة المكان الأُمِّ "بيت لحم"؛ وفي ظِلِّ نَجْمَتها المُوحية بثنائيَّة: الانْكِسَار، والانْتِصَار.

– الْمَبْحَثُ الثَّانِي: مُحَفِّزَاتُ الانْتِصَارِ.

انتصر خليل توما لمُؤَسِّسات الانتصار في الخطابِ الشِّعريِّ؛ من خلال المُحَفِّزات: الوُجُوديَّة، والإنسانيَّة، والاستشرافيَّة؛ الَّتي أوحت بروح التَّحدِّي في مواجهة ماثل التَّردِّي، وثِيمَة الأمل في مجابهة ظاهر الألم، على ما في المباني الشِّعريَّة من نغمةٍ تعبويَّةٍ جامحةٍ؛ تُؤسِّس لأيديولوجيا المقاومة، في واقع المساومة، على حقوق الإنسان، وملكية المكان؛ ممَّا يُجسِّد حالةً شعريَّةً واعيةً بمعطيات المرحلة، وتأسيسًا لنهجٍ نضاليٍّ جديدٍ؛ ينتبذ مظاهر: الدُّون، والانكسار، والخسران؛ مُبْتنيًا منها ركائز: الحُرِّيَّة، والعَدَالَة، والأَمَان.

الْمَطْلَبُ الأَوَّلُ: الانْتِصَارُ الْوُجُودِيُّ.

يمكننا معاينة الانْتِصَارِ الوُجُودِيِّ، المقابل للانْكِسَار العَدَمِيِّ(٢)، في غير نَصٍّ شعريٍّ؛ بيد أنَّ المعالجة المضمونيَّة المُفْرَغة من التَّرميزات المكانيَّة، والإحالات السِّياقيَّة، لـ"بيت لحم" القَدَاسَة، والتَّاريخ، والأَثْل، والإِنْسَان؛ تفرض تبئير النَّظر الفاحص في المباشر الصَّريح، أو المُغَلَّف بالتَّلميح، مع حُسْبان انتماء المَقُول الشِّعريِّ، إلى المجموعة الَّتي احتفت بالنَّجْمة الكائنة في سماء المدينة؛ حكايةً عن الكشفِ الواقعيِّ، والتماسًا للخلاص الاستشرافيِّ.

---

(١) **للوقوف على "ملامح الانكسار"، في مواطن أخرى، من المجموعة الشِّعريَّة**؛ يُنظَر: توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٢٦، (– استهلالٌ نثريٌّ في الانكسارِ الجَمْعيِّ، "**ينابيع**")؛ ص١٢٦، (– استهلالٌ نثريٌّ في الانكسارِ القَوْميِّ، "**ينابيع**")؛ ص١٢٧، (– استهلالٌ نثريٌّ في الانكسارِ الذَّاتيِّ، "**ينابيع**")؛ ص٢٥١، ٢٥٢، (– الانكسارُ القَوْميُّ، قصيدة "**بُكَائِيَّة ليست من البُكَاء**").

(٢) **لمقاربة المفاهيم الاصطلاحيَّة، المُتَعلِّقة بـ"الوُجُود"**؛ يُنظَر: صليبا، **المعجم الفلسفيّ بالألفاظ العربيَّة والفرنسيَّة والإنكليزيَّة واللَّاتينيَّة**، ٢: ٥٥٨ – ٥٦٠، (– باب الواو/ – الوُجُـود، [Existence])؛ ٢: ٥٦٤، (– الوُجُـوديّ، [Existential])؛ ٢: ٥٦٥، ٥٦٦، (– الوُجُوديَّة، [Existentialism])؛ فضلًا عن المعاجم الفلسفيَّة المُشار إليها سابقًا.

ولنا في قصيدة "أوراق حمراء"، أُمْثُولَة ترسيخ الوجود في مقابل العدم؛ ذلك الَّذي جسَّد قسوة المحتلِّ، على الصُّعُد: الرُّوحيَّة، والجسديَّة، والفكريَّة؛ فانبرى الشَّاعر لبذل تَقْدِمَاتِه النِّضاليَّة بين يدي الأرض، قائلًا في إثر ذلك(١):

أكملت دورتها الأيَّام ضمِّيني إليكِ

آه يا أرض الجروح

من بحور التِّيه آتيك على لوح

وروحي في يميني

آه ما أقوى حنيني

ها هي الدَّائرة الحمراء تلتفُّ من البحر

إلى البحر على شكل عقالْ

ورموش الشَّمس ترتاح على كوفيَّتي

وجذوع البرتقالْ

أخذت تستيقظ.. تستيقظ تخضرّ

تناديني، فتمتدُّ يميني

رغم أعوام الرِّمالْ

آه يا أرض الجروحْ

عاد لي شكلي وعنواني وصوتي

عاد لي من قمَّة الموتِ

وجه جَدِّي ذو الأخاديد العميقةْ

مُشْرِقًا تصطفق الأمطار والرِّيح على جبهتهِ

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٣٠، ١٣١.

فاتحًا في غابة الألغام للحقل طريقهْ

آه يا أرض الجروحْ

أكملت دورتها الأيَّام في وجه المقامرْ

أكملت دورتها الأحلام في شريانهِ

أبدًا كانت تسافرْ

وعلى المسرح فاض النُّور كالطُّوفان في كُلِّ الزَّوايا

فامنحينا لذَّة المعرفة البكر وصبرًا كالمسيحْ

دون أن نغفر في الصُّبح الخطايا.

أمَّا أن تكتمل الدَّورة؛ فللأيَّام المُنْقضِية في المقامرة اليوميَّة، بين: "بحور التِّيه"، و"الدَّائرة الحمراء"، و"أعوام الرِّمال"، نصيبٌ بارزٌ منها، مع ما تقتضيه دورة الأحلام في الشَّرايين، من إحساسٍ أليمٍ بأبديَّة السَّفر؛ ولأنَّ تَأوُّهات الشَّاعر الثُّلاثيَّة بين يدي أرض الجروح، كانت مِعْوَانه على إعلان الوجود؛ فلتبدأ الرِّحلة من بحور التِّيه على اللَّوح بقمَّة الحنين، ولتستأنس رموش الشَّمس بكوفيَّة الرَّاحل الحزين؛ مؤذنةً باستيقاظ جذوع البرتقال المُلْتئِمة مع الشَّاعر؛ حينها، فقط، يستعيد شكله، وعنوانه، وصوته، وبالأحرى وجوده؛ ثمَّ له أن يستعيد وجوده الذَّاتيَّ في عمق ذكرى الطُّفولة؛ بالجَدِّ ذي الأخاديد العميقة، وينتهي المشهد الوُجُوديُّ على فيض الطُّوفانِ النُّورانيِّ في سائر الأرجاء؛ ليطلق الشَّاعر استرحامه الأخير للأرض، بمنحه والرَّاحلين معرفة الدَّرب، وثبات المسيح، وحسم خلاصٍ، في صبحٍ هو الآتي بلا مناصٍ.

ويمضي الشَّاعر إلى تحقيق الوجود في ختام القصيدة، وقد انتظر تَشكُّل ملامحه المُتَولِّدة يومًا في إثر يومٍ، مع مجافاة النَّوم مقلتَيْه؛ لتَعاظُم الجراحات على صدره وعاتقَيْه، وهو الَّذي لا يريد من السَّهَد فِكَاكًا غير أن يرى انبثاق الصُّبح بناظرَيْه، مُعَمِّقًا نهج الثَّبات والصُّمود، ومُؤَكِّدًا صلابة الحقِّ المنشود، في وجه التَّهجير إلى الذَّهب الزَّائف، بالجُوع والجُرْح الرَّاعِف، مُتَسائلًا، في المُنْتَهى، عن تفضيله أسباب المَمَات، مع حلول العواصف المُلِمَّات، ومُرَسِّخًا، في العُمْق، جلال الثَّبات، ليقول[١]:

ما زلت أنتظر الملامح وهي تُولَد كُلَّ يومْ

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٤٠، ١٤١.

والنَّوم يسحبني على سكينةٍ

وأريد أن أرتاحْ

كثرت على صدري الجراح

لكنَّني لن أغمض الأجفان حتَّى

ينبثق نور الصَّباح.

* * *

آه يا بيتي القديم

ها هنا قد عشت سِرَّ الكلمات

كان باب الهجر مفتوحًا

وغرًّا كنت لكن لم يُطمِّعني الذَّهبْ

وعلى أرضي كان الجوع نعتًا للعرب

ما الَّذي حبَّب في عيني أسبابَ المماتْ

حين أقفلت شبابيك الهربْ.

ويتَّخذ الانْتِصَارُ الوُجُوديُّ ملمح الائتلافِ الفَرْديِّ، مع الإطارِ الجَمْعيِّ؛ عندما تَرْبِضُ الغيوم بين: (النَّجْمة/ بيت لحم)، وَ(الصَّاري/ مركب الحُرِّيَّة)؛ ليلتمس الشَّاعر في وجوده اليدويِّ اليابس النَّازف مفتاح الخلاص؛ حين يمسح عن الأفق الزَّبد؛ ويستحضر مُؤَسِّسات الطَّقْسِ الإخصابيِّ، للعَصْف الثَّوْريِّ؛ القابل بالانْتِصَارِ الوُجُوديِّ، المُتَّحِد مع الخِصْبِ الأرضيِّ، قائلًا في القصيدة الأخيرة من المجموعة "بُكَائيَّة ليست من البُكَاء"(١):

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٥٢، ٢٥٣.

صوت:

ما بين النَّجْمة والصَّارِي

غيمٌ ربضا

نثته قريحةُ خوَّارِ

وفتحت حقيبة أسراري

أخرجت يدًا

يبست أبدًا

نزفت أبدًا

ومسحت عن الأفق الزَّبدا.

* * *

عطش يتنبَّأ، أقرأُ قانونَ الأمطار، دفاترُ

طلَّابك تنطق بالحكمة، ما كان السُّور الفاصلُ

بين القبر وبين الشَّارع أعلى من رجليك،

وقفزت، قفزت وكان نداء الرَّحم الرَّخو قويًّا.

يتنصَّل منِّي العمر وساعات الرَّعشة والإخصابْ

يتنصَّل منِّي وجهي يهرب خلف المرآة يقهقه، أدركني

من سأمي من تعبي من خبط جنوني،

أدركني حين تمرُّ قوافلكم في كُلِّ مساءٍ عبرَ

سماء القرية أصرخ، أصرخ آهٍ لو تنتظروني

ها إنِّي أتجرَّد من كُلِّ ثيابي وأُوشِّح هذا الجسد الحقلَ

بعاصفةٍ أطلق فيه المحراث أسير إليكم

لحظات فانتظروني.

ويُعزِّز الشَّاعر القِيَم الوُجُوديَّة؛ من خلال الاستناد إلى الكواشف النَّثْريَّة، بِـ"كِتَابَة فِي فَصْل الشَّمْس والحِصَار"؛ حين يُصوِّر الحُرِّيَّة الصَّاعدة خضرةً شمسيَّةً خارج أسوار المدينة وداخلها؛ لتكون الحفاوة الأخيرة بعدميَّة الشَّيطان، وكينونة الجَمْع المُؤْتلِف على ترتيب المكان، بنيران النِّضَال وحِكْمَة الثَّائر الإنسان، فيقول(١):

"– الحدائق المسوَّرة، تعيش الفصول كاملةً حتَّى الأعماق، وعندما تخضرُّ الشَّمس في قامات الأغصان خارج الأسوار؛ فإنَّها تخضرُّ داخلها أيضًا، والأجراس الَّتي تُقْرَع في أطراف المدينة؛ يسمعها الَّذين تمتصُّ أجسادهم رطوبة الأرض خلف الأبواب المقفلة، لكنَّه الصَّمت يُصيِّر العالم بئرًا، لا قرار لها، تبتلع العطاش.

– في الرَّقصة الأخيرة، أين يكون الشَّيطان؟؟

– جثَّة عارية والمسرح مكتظٌّ، ونكون هناك، لنُرتِّب للنِّيران مائدةً من كُلِّ الأصناف الممنوعة".

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الانْتِصَارُ الإِنْسَانِيُّ.

رسَّخ الشَّاعر الانْتِصَارَ الإِنْسَانِيَّ؛ بوصفه ضِدًّا للحالة الانكساريَّة المُتَشظِّية؛ في النِّطاقات: الذَّاتيَّة، والجَمْعيَّة، والقَوْميَّة؛ انطلاقًا من أَنْسَنَة الظِّلال المكانيَّة، المُشْبَعة بالمظاهر السُّلُوكيَّة البشريَّة؛ المُعَزِّزة قِيَم: الصُّمُود، والثَّبَات، والحَيَاة، على الأرض؛ على أنَّها أيديولوجيا الاجتماع الإنسيِّ، في مقابل استلاب السَّاسَة إنسانيَّة الإنسان، وصخب المكان، ونَعْمَاء الأمان.

ويعطي الشَّاعر للمكان البُؤْريِّ ألقه الجماليَّ والرُّوحيَّ؛ بترسيخ البُعْد الإنسانيِّ، الماثل في رسالة السَّلام، من خلال قصيدة "بيت لحم (١٩٦٩م)"، حيث يقول في اللَّوحة الثَّالثة منها(٢):

يا بيت لحم حَمام روضك لم يزل

يوحي طريقي

والنَّجم، نجم سلامك المنشودِ

في الدُّنيا رفيقي

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٢٥.

(٢) **نفسه**، ص١٦٠.

كُلُّ الشُّموس لها انعتاقٌ في يدَيْك

وللحصى لون العقيق

أنا ما غدرت الزَّهرَ

لم أبطش بطائرْ

كالطِّفل منذ خلقت

أبكي إن غضبت

وإن فرحت فإنَّني

أهتزُّ في عمق المشاعر.

ويصوغ الشَّاعر، من وحي الانْكِسَارِ الجَمْعيِّ والقَوْميِّ، أُمْثُولَة الانْتِصَارِ الإِنْسَانِيِّ؛ من خلال التَّكرارِ الفِعْليِّ، الماضويِّ والاستمراريِّ؛ السَّاعي إلى إيقاف المذابح المتلاحقة بحقِّي: المواطن، واللَّاجئ، بيد أنَّ استيقاظ الدِّماء السَّاخنة؛ يستدعى إلى الاستطرادِ الشِّعْريِّ، نَمْذَجَة الفكرِ الاشتراكيِّ، في الائتلافِ الإنسانيِّ؛ المُتَمظهِر جمرةً نامية تحت أقدام الفاشيِّين؛ ليكون الاستئناف، تاليًا، بـ(النَّجْمة/ بيت لحم/ الفاتنة)؛ مُوحِيًا بجامع التَّوهُّجِ الثَّوريِّ، مع المثالِ "التِّشيليِّ"؛ في الانتصار لأحلام الفقراء؛ بمنشود الأمل القادم من عمق الجراح؛ في يقين الفعلِ الاستقباليِّ؛ المُوحِي بخِصْب العمل الثَّوريِّ: "ستخضرُّ الأرجاء"، فيقول الشَّاعر في "الخطبة الأخيرة"[١]:

ناديت أنادي يكفي، يكفي، لكنِّي أيقظت دمَ
الأمس السَّاخن ما زال على صدر الصُّحف اليوميَّة.
وتألَّقت التِّشيلي كالجمرة ما زالت تنمو
تحت نعال الزُّمر الفاشيَّة
كالنَّجمة آه فاتنتي
في خاصرتي تتكوَّم أحلام الفقراءْ
تزقو في دمدمة الرَّشَّاش، وترقب من
شقّ الجرح – ستخضرُّ الأرجاءْ
...

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٢٤٦.

ويكون الاستهلال بالإنشاءِ النِّدائيِّ؛ الَّذي يوحي بالمناجاة الرُّوحيَّة العميقة بين: الشَّاعر، ومدينته الأثيرة؛ تلك الَّتي ما زالت تهبه حِكْمة الوصول إلى الدَّرب، وتشيع في الأرجاء سلامها المنشود بالقُرْب؛ حين تنعتق الشُّمُوس، في حضرتها، من عبوديَّتها إلى الحُرِّيَّة، ويضحي للمكان بريقه الخاصُّ؛ ليتحوَّل الشَّاعر، تاليًا، إلى حديث "الأنا"؛ المُؤَكِّد إنسانيَّة المَسْلك بانتفاء الغدر والبطش المَكِين، وسُمُوَّ الطُّفولة المُشْتمِلة بمشاعر النَّقَاء والحَنِين.

ويتجلَّى البُعْدُ الإِنْسَانِيُّ المزدوج في قصيدة "بيت لحم في القلب"؛ من جهتي: تعميق المشاعر الإنسانيَّة النَّبيلة في الأسر، وأَنْسَنَة المكان الواقع تحت رهن الانتظار، حيث يقول الشَّاعر في اللَّوحة الرَّابعة[1]:

وأطلُّ كُلُّ نوافذ الأحباب مشرعةٌ،

وما زالت قناديل تساهرُ في

دروب الصَّمت أحلام المدينة

وتظلُّ ترقب ربَّما عادوا ومن سفرٍ

تحطُّ بهم على الأبواب مركبةٌ وتمضي

وتموء في كسلٍ على درج المحطَّة قطَّةٌ

وتكوَّرت قرب الجدارْ

وكأنَّما يذكي لظاها الانتظارْ.

ويطلُّ الشَّاعر بذكرياته على "بيت لحم"؛ فيُشَرِّع للأحباب نوافذ الشَّوق والحنين، ويشرق بمشاعر الحُبِّ الدَّفين، ويمضي إلى ثنايا المكان ليُسَاهِد عتمة ليله، وتُسَاهِد القناديل أحلام مدينته، الَّتي لفَّ الصَّمت دروبها، وهي ترقب العائدين من الرَّحيل الكبير، إلى اللَّاوطن، والشَّتات، والاستلاب، والوجع، حتَّى القطَّة الكَسْلَى سأمت الانتظار على درج المحطَّة، وقد أذكاها، كما المدينة، حنين الانتظار.

(١) **نفسه**، ص٢٣٣، ٢٣٤.

ويُجلِّي الخطابُ الشِّعريُّ الملامح الإنسانيَّة في الإطارِ الاجتماعيِّ؛ بإضاءته للوقائع المعيشة، في السِّياق الإنسانيِّ الشَّعبيِّ؛ على سبيلي: الكشف الإلماحيِّ للمُؤانَسة البشريَّة، والبيانِ المنهجيِّ للطَّرائق التَّفاعُليَّة الحَدَثِيَّة، فيقول الشَّاعر في اللَّوحة الأولى من قصيدته "في بلدتي"(١):

في اللَّيالي الباردة

يكثر النَّاس الحديثْ

وتلوك الألسنة

قصص السِّحر وأحلام الخرافات السَّقيمةْ

ويُصلُّون كثيرًا

وكثيرًا يركعون

إنَّهم من عهد أجدادي بصبرٍ يركعون

وكثيرًا يطلبون الصَّبرَ

والصَّبرَ إلى حَدِّ الجنونْ

غير بعضٍ

فتحوا للموت شُبَّاك اللَّيالي

ومضوا للفجر للدِّفء بأحمال ثقالِ

كُلُّ ما يرجونه من غدهم

أن يزول الذُّلُّ عن أرض الرِّجال.

وهكذا يبدو الاستجلاءُ الشِّعريُّ، للاستئناسِ البشريِّ؛ بشعبويَّة التَّعبئة الأيديولوجيَّة، للمساحة الشُّعُوريَّة، في مِخْيَال المُتَلقِّي، وهو المُبْتَنِي من لُبِّ الصُّورة التَّكامُليَّة، لوحةً فَرَادِيَّةً تأثيليَّةً؛ تُعمِّق الاستمساك بالجُذُور، وترسل في الجوى حنين السَّكينة والحُبُور؛ بمبتدأ اللَّيالي الباردة، الَّتي تُعزِّز الحوارات الجَمْعيَّة؛ في مناحي: العمل، والحياة، والسِّحر، والخرافة؛ بينما يكون التَّأسيسُ المنهجيُّ

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٦٢.

منضويًا ضمن ثلاثة مساربَ متعاضدةٍ، على حُبِّ المُقَدَّس والوطن؛ ممثَّلةً في: الصَّلاة والصَّبر، وعناق الدِّفء في الفَجْر؛ لغاية انتباذ الذُّلِّ وتمادي الشَّرِّ.

ونرى الشَّاعر يرتحل إلى عمق الطَّبيعة؛ حيث المكان الأوَّل لنشأته، مُخَاطِبًا الأمومة بمستويَيْها: الإنسانيِّ، والأرضيِّ؛ في قصيدةٍ أُرِيدَ لها أن تُوصِّل إنسانيَّة "الذِّكْرَى"؛ حيث يكون الاستهلالُ الرُّومانسيُّ المُتَّحِد مع الطَّبيعة، بروعة "دروب التَّلِّ" و"أسراب الحَسَاسِين"؛ مُؤَشِّرا للأحلام القابلة البسيطة، المُشْتَمِلة بكدح العمل، ومزيد الأمل، بضياء الشَّمس، ونَوْر الزَّيتون، والشَّاعر مُؤْمِنٌ بالمِحْراث، وعناق الشَّمس للسَّنابل، وتخبئة الفرح للأجيال القادمة، فيقول في اللَّوحة الاستهلاليَّة[1]:

رائعة كانت دروب التَّلِّ يا أُمِّي
وأسراب الحَسَاسِين ووقع الخطوات المقبلة
لا – لم نُمَنِّ النَّفس يومًا
بقصور وحياة خاملة
والنَّاس كُلّ النَّاس كانوا
من خيوط الشَّمس ثوبًا ينسجون
يشرب ملح الأرض من أقدامهم
ومن رؤى آمالهم
ينوِّر الزَّيتون
آمنت بالمحراث يا أُمِّي بآلاف المعاول
آمنت بالشَّمس الَّتي تنضج في حقلي السَّنابل
خبَّأت أصناف الخمور في غدٍ
يكبر أطفالي هنا فيفرحون.

بيد أنَّ الخطابَ الشِّعريَّ ينصرف إلى الوجهة الأخرى؛ في رصد الملامح الإنسانيَّة بشقِّها الانكساريِّ؛ حيث "الدُّموع المُخَبَّئة"، و"اللَّيالي القاتمة"، و"الصُّقور القادمة"، الَّتي باتت موطن لعنات الأمومة، وقد نسجت "الوحشة"، و"الذَّلَّ"، و"القيد"؛ أمَّا الشَّاعر فَيُلِحُّ على استحضار الانْتِصَار من وجع

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٦٧.

الانْكِسَار؛ إذ الضَّائع في "حمأة البارود" حلمًا ومُقَدَّسًا، واقعٌ في اليوميِّ الَّذي لا ينفي، بحالٍ، مُكْنة الأمل من نور الغد القادم، وفي ذلك يقول(١):

دامعة عيناك خبَّأتِ بها
خوف اللَّيالي القاتمة
وقلت لي ملعونة
كلّ الصُّقور القادمة

...

* * *

في حمأة البارود ضاعت من يدي
ثُلَّة أحلامٍ وبقيا معبدِ
ضيَّعت يومي غير أنِّي لم يضع مِنِّي غدي.

ويُرسِّخ الشَّاعر الأَنْسَنَة الغائيَّة؛ بحِكْمة النَّمْذَجَة المُوحِية بالصَّبر والتَّضحية، على ما في القالب الاستعاريِّ الرَّمزيِّ؛ من تعميق المماثلة المنطقيَّة بين: الكائن، والمكنون، وللقناع المنزاح صوب التَّكشُّف الواعي؛ مُكْنَة ترسيخ أُمْثُولَة المنطوق في واقع المواجهة؛ المُسْتنِدة إلى أيديولوجيا الحِكْمة والفِدَاء، في وجه وحشيَّة الغَصْب والدِّمَاء؛ ومَقْصِد المُقَصِّد بادٍ في إرسال السَّلام لغد البائسين والصِّغار، حيث يقول في قصيدة "أوراق حمراء"(٢):

حمامة حطَّت على رأس المسيحْ
كان الصَّليب لم يزل نبعًا ينزّ، والمسامير تصيحْ
"فلتغرسي منقارك الجميل في جراحي
تعمَّدي، تعمَّدي
ففي غدٍ، يصير ريشك النَّدِيّ
حدائقًا للبائسين والصِّغارْ

(١) **نفسه**، ص١٦٧، ١٦٨.
(٢) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٣٧.

هناك صوتي موعدي.

ويكتسب النِّضال الكادح قيمة الإضاءة الإنسانيَّة الحكيمة، بمُوَازَة الحُلُم الثَّوْريِّ الفريد، المُلْتئِم مع مطالب العُمَّال؛ لغاية تجسيد الآمال؛ في مُكْنَة "العِزِّ"، وخِصْب "السَّنَابِل"، فيختم توما قصيدة "صورة إنسان" على إيقاع الانْتِصَار، عقب رصده مظاهر الانْكِسَار، ليقول[1]:

آه يا أطيب كادحْ

آه يا أطيب عامل

لم تزل في الذُّلِّ رجلاك

ما زلت تناضل

لرغيف الخبز ما زلت تناضل

وأنا أحلم بالفجر الَّذي

يحمل للعُمَّال عِزًّا وسنابل.

ولتعميم الانْتِصَارِ الإِنْسَانِيِّ، في الإطارِ القَوْميِّ؛ مُبَرِّر النَّهجِ الرُّؤيويِّ للفجر الجديد، عقب انكسارات الشُّعوب بفعل الطُّغَاة والاحتكاريِّين؛ لتصبح الوَحْدَة، المُؤَسَّسة في وحي الصَّحوة، أُهْزُوجَة الحالمين بالحُرِّيَّة، لوجه الشَّمس المُجَلَّل بالانْتِصَار، فيقول الشَّاعر في قصيدة "العالم الآتي"[2]:

خيطٌ من الرُّؤيا
من الفجر الجديد يشدُّني
فأرى الشُّعوبْ
كفًّا بكفٍّ حطَّمت أصنامها
وتعانقت فيها القلوب،
والاحتكاريِّين بين مزابل التَّاريخِ
قد لفظتهم الأيَّام كالشَّيء الغريبْ
والمشعلين حرائقًا في الأرض كي يتمتَّعوا

(١) **نفسه**، ص٢٠٢.

(٢) **نفسه**، ص٢٠٨.

داستهم الأقدام في اللَّيل الرَّهيب

* * *

خيطٌ من الرُّؤيا

وفجرٌ باسمٌ في عمق ذاتي

صحت الجماهير الَّتي

جُلِدت بأسواط الطُّغَاةِ

والموثقون بقيدهم

غنّوا لوجه الشَّمس ألحان الرُّعاة.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الانْتِصَارُ الاسْتِشْرَافِيُّ

واكب الخطابُ الشِّعريُّ فورة الأمل، في فوضى القيد، والحصار، والبارود، والدَّم، وأرسى نهج الاستشراف على نحوٍ واعدٍ بالغد المُشْتمِل بالضِّياء، كما استلَّ من عمق السُّكُون صخب الحياة والنَّماء، ومن وسط العتمة الغد السَّاكن في سُمُوِّ السَّماء؛ على ما في التَّبدِّيات المضمونيَّة من مجابهةٍ بائنةٍ لشواخص الانْكِسَار؛ بمُؤَسِّسات الانْتِصَار؛ حين يكون التَّأصيلُ الفنِّيُّ بالقالبِ الشِّعريِّ أُدْلُوجَة الواعي بحيثيَّات المرحلة، والسَّاعي لاستملاك نضارة الرُّوح، وقُوَّة الفعل، ورفعة الغاية.

أمَّا قصيدة "أوراق حمراء"؛ فأراد الشَّاعر لاستهلالها أن يُبيِّن مدى الدَّفقة المُفْعَمة بالأمل الاستشرافيِّ الفريد، والتَّحدِّي النِّضاليِّ المُنْبثِق من سائر العذابات، حيث يقول[١]:

بيني وبين السِّجن خطوةْ

بيني وبين الموت خطوة

بيني وبين النَّصر خطوة

لن يلحقوا بي فحصاني اخترق اليوم مجال الجاذبيَّةْ

أيَّتها الأقمار خلف الشَّجر الطَّالع في الأرض السَّخيَّةْ

نحوك ما زلت أشقُّ الرِّيح كالسَّيفِ

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٢٩.

وأطوي قمَّةً في إثر قمَّة

ما الزَّنازين لتثنيني ولا الكرباجُ

أو مليون لكمة

لأنَّني أقوى من "الأس أس" حبُّ الأرض أقوى،

حبُّها "كالصَّبر" فوق الصَّخر أو في الرَّملِ ينمو

وأنا بُرْعمة الرَّعد وبذر الزَّلزلة

سينتهي احتلالكم سينتهي لن أمهله

وخطوة بيني وبين النَّصر قد رأيت أوَّله.

وأن يُؤسِّس الشَّاعر لملمح البينونة بينه وبين السِّجن والموت؛ فلأنَّه يريد لبينونة النَّصر أن تزدان نشوةً بتَرقُّب خُطَاه المتسارعة؛ وهو الَّذي أرسى في المضمون حضور حصانه الغرائبيِّ المُخْتَرِق مجال الجاذبيَّة؛ المنساح في سائر الاتِّجاهات حركةً، ومُخَاتَلَةً، وانقضاضًا، وقد طُوِيت له القمم قمَّةً في إثر قمَّةٍ؛ حينما شقَّ الرِّيح كالسَّيف؛ وبُغْيته أقمار الحُرِّيَّة، البادية خلف أشجار الأرض السَّخيَّة، وعندما تضحي الوجهة بائنةً؛ يستبين التَّحدِّي برفض الذُّلِّ والانكسار، تحت سياط الجلَّاد وعذاباته، وحينها يغدو الحبُّ المُشْتمِل بالصَّبر "بُرْعُمة الرَّعد" و"بذر الزَّلزلة"؛ ليصعَّد الوعيد، في عُلاه، يقينًا مُزَنَّرًا بالفعل: "سينتهي احتلالكم سينتهي لن أمهله"؛ فتكون تباشير النَّصر الأولى، على مسافة خطوةٍ من الشَّاعِر الثَّائِر.

ويرصد الشَّاعر، في القصيدة نفسها، الصَّمت المُؤَسْلَب بالتَّكريرِ الثُّلاثيِّ؛ من جهة توصيف السُّكُون المُشْتمِل بالنِّيران والجراحات الغائرة، والانتظار لسان حال المُسْتَلَبين، لمحاريث الإخصابِ الثَّوريِّ الجديد؛ ببذور الوَحْدَة، والمَضَاء، والنِّضَال؛ كيما تَمثُل أسطورة الخلق واقعًا؛ بولادة السَّماء كوكبًا؛ إيذانًا بالعَوْد الرَّبيعيِّ الزَّاهر بالبَهَاء، والزَّاخر بالحُرِّيَّة والعَطَاء، فيقول[1]:

صمتٌ، صمتٌ، صمتٌ

وخلف الصَّمت نيرانٌ وجرحٌ

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٣٢.

غائر في العمق ينتظر المحاريث الجديدةْ

إن لم نُهيِّئ أرضه للبذر كيف إذنْ

تلد السَّماء كوكبًا

وتدور دورتها الفصولْ.

وتكون للمقطعَيْن التَّاليَيْن مَزِيَّــة التَّأسيس للاتِّحاد بالوطن، وقد بلغ الشَّاعر ذروة الظَّمأ لصــدره، واحتشدت شرايينه بفَوْرة الثَّوْرة؛ غَضَبًا وفَاقًا لاستلاب ("المغول"/ الاحتلال) الفرح والأمل؛ بتَشــظِّي الوطن والإنسان، بين: "العساكر"، و"الخيول"، ثمَّ يكون للتَّصدِّي عنفوان التَّحدِّي؛ بنفي أثــر القضــبان والقيد على التئامه مع الأرض؛ مُبَشِّرًا بزوال شبح الغزاة في الغد القادم، وحينها يقول(١):

ظمآن يا وطني، جحيم في شرايِيني

وكأسك راح يشربها المغولْ

تعبان يا وطني وصدرك راحتي

لكنَّنا نصفان تشطرنا العساكر والخيولْ.

* * *

لن تمنع القضبان وجهك عن عيوني

في يميني لن يظلَّ القيد لنْ

وغدًا سيندحر الغزاة فظلُّهم شبحٌ يزول.

ويرسي الشَّاعر في قصيدة "دُوَار"، ملامح الاستشرافِ الإخصابيِّ، للحياة الأرضــيَّة والإنســانيَّة على حَدٍّ سواءٍ، وقد جسَّدت الذِّكرى مُتَّكَأَ المضمون المتــأرجح بــين: القَيْــد والانْكِسَــار، وَالرَّبِيــع والانْتِصَار؛ فإن كان الزَّمنُ السَّرديُّ يُوثِّق لقيد الشَّاعر؛ فللزَّمنِ الأسطوريِّ أن يكشف الرَّبيع السَّــافر، في ذكرى (الحبيبة/ الأرض/ "بيت لحم")، الماثلة بملء خصوبتها؛ صــورًا مــن: الحُــبِّ، والرَّبيــع، والخضرة، والزُّهور، والنَّدى، والأريج، مع حضور المظاهر الاحتفاليَّة بالمَوَّال، وبســمات الجيــران المُحْتشِدة بالآمال، وفي ذلك يقول(٢):

(١) **نفسه**، ص١٣٢.

(٢) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٤٩.

نيسان يا حبيبتي يشدُّني إليك

نيسان والرَّبيع،

يحملني إلى الدُّروب الخضر والجبال

يشدُّني إلى الزُّهور في تلالنا

إلى النَّهار ينضح النَّدى

ويطلق الشَّباب من عقالهِ

إلى الأريج في حنايا دربنا

وبسمة الجيران والموَّال

نيسان يا عزيزتي في السِّجن إلَّا أنَّني

أراك تمثلين، كأنَّما أمامي

ملء العيون صورة

وفي الهواء عطرك المدرار

أكاد أن أمدَّ راحتي إليك

غير أنَّني أصاب بالدُّوَار.

وما زال الشَّاعر يُحلِّق في فضاء المكانِ البُؤْريِّ، مُجَسِّدًا بقصيدة "في بلدتي" الملامح الإنسانيَّة الاجتماعيَّة، ومُؤَصِّلًا للفداءِ الفرديِّ؛ في سبيل النَّعيم الجَمْعيِّ؛ بالحُرِّيَّة، والأمان، والضِّياء؛ فإنْ خفتَ النُّور بفعل الدَّيْجُور؛ فإنَّ لشعاعٍ فرديٍّ أن يجلب النَّصر مع فيض الحُبُور؛ بمزيد الرُّسُوخ والثَّبَات، في وجه العَاتِيَات المُلِمَّات، كما الزَّيتون المُتَجذِّر في الأرض؛ دلالةً على الشُّمُوخ والانتماء، أمام مختلف الأعداء، فيقول[1]:

يا مصابيحي الحزينة

يكثر الدَّيْجُور حول النُّور

(١) **نفسه**، ص١٦٢، ١٦٣.

لكنَّ شعاعًا واحدًا يكفي لنبدأ

عندما يصبح موت الفرد مهرًا

وحياة الكُلِّ مبدأ

ويصير النَّاس كالزَّيتون في أرض بلادي

لا رياح الغرب تنفيهم إلى سوق المزادِ

لا ولا هم يهجرون.

ويصوغ الشَّاعر الأمل من الظِّلال السَّوداويَّة المُخَيِّمة على المدينة؛ بأجراسها المُشيرة إلى قُـوَّة الحريق، وتَعاظُم الصَّمت، وهول المذبحة؛ فينهض فَتَاهُ، وهو الَّذي استنهض في رؤاه، فَوْرة الثَّوْرة من تحت الرُّكَام، وتشمير الزُّنود رغم الآلام؛ لتغدو الرُّؤية يقينًا بعَوْد البِشْر والحُبُور، على أيـدي جنـود الفِدَاء المَمْهُور، للرِّجال والأطفال؛ بينما تزدان الشَّوارع بالشَّمس والورود؛ لتُقْـرَع الأجـراس، فـي المُنْتهَى؛ بشارة نصرٍ على شَرٍّ انقضى، فيقول في قصيدة "أَجْرَاس"(١):

رأيته، رأيت وجهه الغلامْ

ينهض من تحت الرُّكام

معفّر الجبين ثائرًا

مشمّر الزُّنودْ

أيقنت حينها بأنَّنا نعود

بأنَّ يومًا قادمًا سيحمل الجنودْ

ويحمل الرِّجال والأطفال

ويغرق الشَّوارع الحزينة

بالشَّمس والورود

وتقرع الأجراس ثانية.

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٨٤.

وينتصر توما للرَّبيع القادم، في نشيده الأخير من قصيدة "عوليس في الرِّحلة الأخيرة"، وقد كانت "بيت لحم" مركز جاذبيَّته في النَّشيد الأول؛ ليصوغ من العتمة حكاية البركان المُعَلَّى بالعَلَم، ويصنع من الدُّموع، والغربة، والألم، والدِّماء، والوطن المذبوح، وعرق الكادحين؛ الزَّهرة، والنُّور، والسُّيوف، مُتَّحِدًا بالأرض في ثباتها الماثل بالسَّرو والزَّيتون، ومُقْسِمًا، على سبيل التَّكريرِ الثُّلاثيِّ، بالرَّبيع القادم؛ الآتي بثورته، وحُبِّه، ومضائه، وكبريائه، حيث يقول(١):

النَّشيد الأخير:

ربَّما العتمة تمتصُّ دمي،
ربَّما أغفو ولا أصحو ولكن
فوق بركانٍ سيبقى عَلَمي
من دموع الأهل من غربتهم
من نشيدٍ يصعد الآن على كُلِّ فمِ
من دماء الوطن المذبوح من
عرقِ الكادح ينمو ألمي،
زهرةً تعشق نور الشَّمس في طَلَّتها
وسيوفًا فوق صدر المجرم،
ربَّما أغفو وتمتصُّ شراييني
عروق السَّرو والزَّيتون يا أرض احضنيني
فوق جرح الغور في ظهرك أقسمت يميني
في ربيع قادمٍ آتي فما القبر بباقِ
كيف يبقى عندما تنسفه نار يقيني
في ربيعٍ قادمٍ آتي إليكم
في ربيعٍ قادمٍ فانتظروني.

وممَّا يقترن بالاسْتِشْرَاف الرَّاسخ في المجموعة الشِّعريَّة، المصوغة في فضاء نَجْمة المكان البُؤْرة "بيت لحم"، ختام قصيدة الشَّاعر "أغنية للسُّودان"؛ الَّتي وثَّقت للانْكِسَارِ القَوْميِّ، ورأت، في

(١) **نفسه**، ص٢٢٣، ٢٢٤.

تضاعيفه، وَجْهًا مُشْرِقًا بالأمل، في بلاد الشَّمس والثُّوَّار؛ ليكون السُّقوط إعلان بدء الانْتِصَار، فيقول الشَّاعر(١):

وجهك المُشْرِق يعطيني الأملْ
وجهك المُشْرِق رغم العار
عندما أعرف عن شعب ظفار
وعن الثُّوَّار في أرض عدنْ
يا بلاد الشَّمس والثُّوَّارْ
يا بلادي العربيَّة
عندما نسقط من أجل القضيَّة
إنَّما نعلن بدء الانتصار.

وتتبدَّى إيحاءات الانْتِصَار؛ بالمُحَفِّزات: الوُجُوديَّة، والإنسانيَّة، والاستشرافيَّة، في غير موطنٍ من المباني النَّصيَّة الشِّعريَّة والنَّثْريَّة، في استهلال المجموعة وختامها؛ لغاية ترسيخ الأدبِ الثَّوْريِّ؛ وحِكْمة الأثرِ التَّنْويريِّ؛ بالتَّمرُّدِ الاستنهاضيِّ، على سائر تَمثُّلات الانْكِسَار(٢).

ونستوحي من التَّحليل السَّابق؛ أنَّ هذه المجموعة الشِّعريَّة، قد شكَّلت، في مجمل نتاج الشَّاعر، "إضافةً جديدةً للشِّعر في الأرض المحتلَّة؛ سواء من حيث المضمون الَّذي يملكه، أم من حيث البناء الفنِّيّ"(٣)، كما جسَّدت أنموذجًا مهمًّا لأدب السُّجون؛ حيث كتب الشَّاعر خلال المدَّة "الَّتي قضاها في السِّجن، ديوانه الشِّعريَّ الثَّاني "نَجْمَة فَوْق بَيْت لَحْم"، الَّذي نشره عام (١٩٧٦م)"(٤)؛ وقد "صدر وخليل في السِّجن، في سبعينيَّات القرن المنصرم، عن دار صلاح الدِّين في القدس؛ وربَّما احتلَّ الشَّاعر

(١) توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٧٩.

(٢) **لمطالعة مواطن أخرى، في "ملامح الانتصار"**؛ يُنظَر: توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص١٢٤، (- استهلالٌ نثريٌّ في الانتصارِ الاستشرافيِّ، "**ينابيع**")؛ ص١٢٧، (- استهلالٌ نثريٌّ في الانتصارِ الوجوديِّ، "**ينابيع**")؛ ص١٢٧، (- استهلالٌ نثريٌّ في الانتصارِ الإنسانيِّ، "**ينابيع**")؛ ص١٨٨، ١٨٩، (- الانتصارُ الاستشرافيُّ، قصيدة "**حُلْم**")؛ ص٢٥٦، (- ختامٌ نثريٌّ للمجموعة الشِّعريَّة، في الانتصارِ الاستشرافيِّ، "**توقَّفْ قليلًا**").

(٣) الأسطة، عادل، "(٢) نجمة فوق بيت لحم"، **مجلَّة البيادر المقدسيَّة**، (ع: ١١)، (كانون الثَّاني/ ١٩٧٧م)؛ **نقلًا عن:** توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٣٣٠، (- أضواء نقديَّة).

(٤) الجيُّوسيُّ، سلمى الخضراء، **موسوعة الأدب الفلسطينيِّ المعاصر**؛ (١) **الشِّعْر**، (ط١)، المُؤَسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، (١٩٩٧م)، ص١٥٨، (- الشِّعْر/ - خَليل تُومَا [من مواليد ١٩٤٥م])؛ وذكر محمَّد شراب أنَّ هذه المجموعة نُشرت في سنة (١٩٧٨م)؛ يُنظَر: شراب، محمَّد محمَّد حسن، **شعراء فلسطين في العصر الحديث**، (ط١)، الأهليَّة للنَّشر والتَّوزيع، عمَّان، وَبيروت، (٢٠٠٦م)، ص١٣٥، (٩٨ - خَليل تُومَا)؛ بينما كان تاريخ نشر طبعة "دار صلاح الدِّين"، في (تشرين أوَّل/ ١٩٧٧م)؛ يُنظَر: توما، خليل، **نجمة فوق بيت لحم**، (د. ط)، منشورات صلاح الدِّين، القدس، (تشرين أوَّل/ ١٩٧٧م).

لديوانه هذا مكانةً شعريَّةً مميَّزةً في حينه"[١]؛ فكان بذلك أحد الشُّعراء المعتقلين، الَّذين قـدَّموا صـورةً مُفَصَّلةً لقسوة السَّجَّان، وصمود المعتقل، ويوميَّات السَّجين[٢]، بيد أنَّ الدِّراسات الحديثـة، فـي "أدب السُّجون"، أغفلت نتاج الشَّاعر خليل توما بعامَّةٍ، ومجموعة "نَجْمَة فَوْق بَيْت لَحْم" بخاصَّةٍ[٣].

أمَّا الاختلاف بين قصائد المجموعة؛ فقد كان "واضحًا وبَيِّنًا؛ سواء من حيث الشَّكل الفنِّيّ، أو من حيث المضمون؛ حيث يتخلَّص الشَّاعر في قصائده الأخيرة من الغنائيَّة، إلى الشَّكل الدِّرَاميِّ للقصـيدة، كما نلاحظ تركيز الشَّاعر على قضيَّة التَّحرُّر الوطنيِّ في قصائد (الشَّمْس وَالحِصَار)"[٤].

وانمازت نظرة الشَّاعر، في هذه المجموعة، بالشُّمُوليَّة الرُّؤيويَّة؛ من حيث تأسيسه للبُعْد الاجتماعيِّ، المُعْتَدِّ بالدَّور الطَّليعيِّ للجيل الجديد والمرأة، والتَّآلُف الطَّبقيِّ الاشتراكيِّ، والحفاوة البائنة بحركات التَّحرُّر على الصَّعيدَيْن: القوميِّ، والعالميِّ، واستشراف الانتصار الثَّوريِّ المُعَزَّز بالفداء، ذلكم جميعه في ظـلال المكان البؤريِّ "بيت لحم"، الَّذي جسَّد النَّمْذَجة التَّصويريَّة الواعية للوطن السَّليب بكُلِّيَّته[٥].

وقد صاغ خليل توما "تجربته الشِّعريَّة، من واقع قضايا شعبه وهمومه وأحلامه، وكان نتاج فكرٍ يقوم بدور الرَّفض والتَّمرُّد على الاحتلال، وتوجيه الجماهير نحو المحافظة على وجودها الحضـاريِّ، وكان واعيًا لطبيعة كُلِّ مرحلةٍ ومُتَطلَّباتها، والأهداف الَّتي يسعى الفعل الثَّوريُّ لتحقيقها؛ كي يكتمـل الانسجام بين دور الكلمة والبندقيَّة، وشاعرنا هو مثالٌ للقول والفعل؛ فقد كتب وناضل وسُجِن مقابـل ذلك"[٦]؛ فكان، بذلك، "صوتًا شعريًّا يُعبِّر عن معاناة الشَّعب، ويمتاز عن غيره بصدق شعره؛ الَّذي هو انعكاسٌ لمعاناته وتجربته"[٧]، كما رسَّخ في المضامين الشِّعريَّة خطابه البروليتاريَّ والواقنسيَّ، علـى نحوٍ واضحٍ[٨].

---

(١) الأسطة، عادل، **نجمة فوق بيت لحم**، الموقع الإلكترونيّ لصحيفة "الأيَّام"، (www.al-ayyam.ps)، بتاريخ: (٤/ ١٢/ ٢٠٠٥م).

(٢) يُنظَر: تاجا، وحيد، **النَّاقد الأدبيّ إبراهيم خليل لـ"أشرعة": الشِّعر حين يغرق في السِّياسة المباشرة والأيديولوجيا يفقد شـعريَّته ويغـدو شعارات**، الموقع الإلكترونيّ لصحيفة "الوطن" العُمَانيَّة، (www.alwatan.com)، بتاريخ: (١١/ ١/ ٢٠١٥م).

(٣) الأسطة، **نجمة فوق بيت لحم... نجمة فـي رام الله**، الموقع الإلكترونيّ لصـحيفة "الأيَّـام"، (www.al-ayyam.ps)، بتـاريخ: (٢٢/ ٩/ ٢٠١٣م).

(٤) الأسطة، "(٢) نجمة فوق بيت لحم"؛ **نقلًا عن:** توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٣٣١، (- أضواء نقديَّة).

(٥) يُنظَر: الأسطة، "(٢) نجمة فوق بيت لحم"؛ **نقلًا عن:** توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٣٣٠ – ٣٣٤، (- أضواء نقديَّة).

(٦) القدُّوميُّ، نمر، "**خليل توما"... وإحياء الذَّاكرة**، الموقع الإلكترونيّ لصحيفة "دنيا الوطن"، (www.alwatanvoice.com)، بتـاريخ: (٢٤/ ٤/ ٢٠١٦م).

(٧) الأسطة، "(٢) نجمة فوق بيت لحم"؛ **نقلًا عن:** توما، **الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة**، ص٣٣٠، (- أضواء نقديَّة).

(٨) يُنظَر: مواسي، فاروق، "مونولوج نقديّ: "أغنيات" وَ"نجمة" خليل توما"، **مجلَّة الجديد**، حيفا، (ع: ٨)، (١٩٧٨م)؛ **نقلًا عن:** توما، **الأَعْمَـال الشِّعْرِيَّة**، ص٣٦٥، (- أضواء نقديَّة).

وكان الشَّاعر "صوتًا مُتَميِّزًا... إلى جانب أصواتٍ قليلةٍ؛ مثل: عبد اللَّطيف عقل، وفدوى طوقان، وعليّ الخليليّ، وبعض آخرين، كان ذا حضورٍ لافتٍ، ويكفي أنَّ ديوانَيْه الأوَّلَيْن "أُغْنِيَات.." و"نَجْمَة.." صدرا عن دار نشر صلاح الدِّين، الَّتي تُعَدُّ أبرز دار نشرٍ في حينه، وكانت منشوراتها تُحقِّق انتشارًا واسعًا، ويحظى من ينشر فيها بسمعةٍ أدبيَّةٍ جيِّدةٍ؛ ولأنَّ خليل توما كان شاعرًا ملتزمًا؛ فقد حقَّق حضورًا لافتًا؛ ولأنَّه، أيضًا، قرن التَّجربة بالفعل؛ حيث اعتُقِل لسنواتٍ؛ فقد انضاف اسمه إلى قائمة شعراء المقاومة"(١).

الخُلاصَــة:

تمخَّض الدَّرْسُ التَّحليليُّ السَّابق؛ عن الأُطُر المضمونيَّة لمُؤَشِّرات الانْكِسَار، ومُحَفِّزات الانْتِصَار؛ إذ بدت المُؤَشِّرَات في الانْكِسَار: (الذَّاتِيِّ، وَالجَمْعِيِّ، وَالقَوْمِيِّ)؛ بينما تمظهرت المُحَفِّزَات في الانْتِصَار: (الوُجُودِيِّ، وَالإِنْسَانِيِّ، وَالاسْتِشْرَافِيِّ).

وقد جسَّد الانْكِسَارُ الذَّاتِيُّ تأسيسًا لمعطيات المرحلة الوطنيَّة، وانعكاساتها الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة، على الذَّات المندغمة مع الدُّون الجَمْعيِّ، عقب المُؤَثِّرات الحَدَثِيَّة الجسيمة؛ ممثَّلةً في فاجعتي: النَّكْبة، والنَّكْسة؛ ولذا رأينا الدَّوالَّ الشِّعريَّة تنضوي ضمن الحقول المُتَّصِلة بمشاهد: الرَّحِيل، والدَّمَار، والضَّيَاع، والمَوْت، والأَسْر، والعَذَاب، والفَقْر، والجُوع، والحِرْمان؛ المُوحِية بانتفاء الأمل، وانقطاع الرَّجاء، وانغلاق الدَّرب، مع إلحاح الشَّاعر على الاحتفاظ بفسحة الأمل في الحُرِّيَّة.

وبدا الانْكِسَارُ الجَمْعِيُّ توصيفًا واقعيًّا لآثار النَّكْسة على السِّياق الاجتماعيِّ، واستنهاضًا أيديولوجيًّا للفعل النِّضاليِّ، في وجه الاستلاب الاحتلاليِّ، مع ترسيخ قِيَم: التَّحدِّي في ذروة التَّصدِّي، والمُوَاجَهة في صميم المُجَابَهة، واستيلاد البُطُولة من رَحِم الفَاجِعة؛ ليتأصَّل الخطاب ضمن ثلاثة أُطُرٍ مضمونيَّةٍ؛ ممثَّلةً في: إدانة عبثيَّة المحتلِّ واستلابه وقمعه، وإبانة مظاهر الحِصَار والانْكِسَار، فضلًا عن الإعانة الفكريَّة، للأدلوجة الوطنيَّة، في تأصيل الوُجُود والثَّبَات؛ بالتَّرميز النَّجْميِّ، والإيقاع الصَّوتيِّ.

وأسَّس الخطابُ الشِّعريُّ، في سياق الانْكِسَارِ القَوْمِيِّ؛ للتَّوثيق الحَدَثِيِّ، والكشف المفصليِّ، لحيثيَّات المرحلة، الَّتي ألقت بظلالها السَّوداويَّة على الإطار الجَمْعيِّ، في محتضن الامتداد القَوْميِّ؛ من خلال الوقوف على ملامح الانْكِسَار، وبيان آثارها، وكشف مُخْرَجاتها، وانتهاج مواجهتها؛ على

(١) الأسطة، عادل، **خليل توما.. الأعمال الشِّعريَّة**، الموقع الإلكترونيّ لصحيفة "الأيَّام"، (www.al-ayyam.ps)، بتاريخ: (١٤/ ٢/ ٢٠١٦م)؛ **ولرصد ملامح الحركة الشِّعريَّة الفلسطينيَّة؛ في مرحلتي: التَّأسيس، والنُّضج**؛ يُنظَر: مصطفى، خالد عليّ، **الشِّعر الفلسطينيّ الحديث (١٩٤٨ – ١٩٧٠م)**، (ط٢)، دار الشُّؤون الثَّقافيَّة العامَّة "آفاق عربيَّة"، بغداد، (١٩٨٦م)، ص١٧٩ – ٣٠١، (– الباب الثَّاني: الشِّعر داخل الأرض المحتلَّة/ – مُقَدِّمة: العرب الفلسطينيُّون في الأرض المحتلَّة/ – الفصل الأوَّل: مرحلة التَّأسيس/ – الفصل الثَّاني: مرحلة النُّضج).

الصَّعِيدَيْن: الأيديولوجيِّ، والفنِّيِّ؛ فتمثَّلت الملامح في: العَجْز، وانحسار الفِعْل، وانتفاء المواجهة؛ وانعكست الآثار على البِنْية الجَمْعيَّة في: ذُرْوة الرَّحِيل، وَالتَّشتُّت، وَالمَوْت؛ وتبدَّت المُخْرَجات في: تصاعد المحنة، والاغتراب، والاختلاف، بالإضافة إلى اغتصاب المكان، وانتهاب مقدَّرات الإنسان؛ وظهرت منهجيَّة المواجهة؛ في القيمة الصَّوتيَّة التَّنبيهيَّة التَّقريعيَّة، والمُعَزِّزات النِّضاليَّة العمليَّة، مع حضور "بيت لحم"؛ بنمطي: المُبَاشَرة المضمونيَّة، والتَّرميز الإيحائيِّ.

وللانْتِصَار بمُحَفِّزاته: الوُجُودِيَّة، وَالإِنْسَانِيَّة، وَالاسْتِشْرَافِيَّة؛ أن يُؤكِّد قِيَم: التَّحدِّي، والمُوَاجَهة، والأَمَل؛ لغايتي: التَّعبئة الرُّوحيَّة، وتدعيم الفعاليَّة الأيديولوجيَّة، في نهج المقاومة الوطنيَّة؛ وصولًا إلى الحُرِّيَّة، والعَدْل، والأَمَان؛ ليكون الانْتِصَارُ الوُجُودِيُّ ترسيخًا لاستعادة الذَّات شكلها وعنوانها وصوتها، مقابل العَدَم البادي بالتَّهجير، وحريق الدَّم؛ في تعزيزٍ بائنٍ لأيديولوجيا الثَّبات والمُوَاجَهَة والحَسْم؛ أمَّا المدينة فحاضرةٌ بالنَّسق الرَّمزيِّ المُتَّسِق مع المرتكز العنوانيِّ للمجموعة الشِّعريَّة.

وتجلَّت المُحَفِّزَات الإِنْسَانِيَّة في نمطي: الرَّصدِ الفنِّيِّ للمسلكيَّات البشريَّة، وأَنْسَنَة الأَفْضِيَة المكانيَّة؛ لتعزيز قِيَم: الصُّمُود، والثَّبَات، والمُوَاجَهة؛ بإضاءة الفعاليَّات الإنسانيَّة، ضمن البُؤْرة المكانيَّة؛ في نطاقي: المدينة، والبلدة، وفي سياقات: المشاعر التَّفاعليَّة، والمجاميع الشَّعبيَّة، والحياة الرِّيفيَّة؛ لغاية تأصيل الجذور الوطنيَّة، واستنهاض الأيديولوجيا النِّضاليَّة، وتحقيق العدالة الإنسانيَّة، في غد التَّحرُّر للإنسان والمكان.

ورسَّخت المُحَفِّزَات الاسْتِشْرَافِيَّة قيمة مجابهة شواخص الانْكِسَار؛ لتحفيز الأمل في مُؤَسِّسات الانْتِصَار؛ أمَّا الشَّواخص فماثلةٌ في: الذُّلِّ، والعَذَاب، والقَيْد، والحِصَار، والدَّم؛ وأمَّا المُؤَسِّسات فكائنةٌ في: الحُبِّ، والصَّبْر، والاتِّحَاد، والفِدَاء، ويغدو القيد الأيديولوجيُّ في حِكْمة الانتفاض على الاحتلال؛ مُشْتَمِلًا بالثَّبَات، ومُحْتَكِمًا إلى القُوَّة، ومُتَّكِئًا على حقائق التَّاريخ.

أمَّا مُسْتَوْصَى الدَّرْس في إثر المُدَارَسَة؛ فتوجيهٌ لمقاربة الأسس النَّصِّيَّة، في التِّقانات البنائيَّة، على نحوٍ منفردٍ؛ باستقراء الأنساق التَّركيبيَّة، واستقصاء الملامح الأسلوبيَّة؛ لمبتغى الوقوف على المُؤَسِّسات الإبداعيَّة، والمُكَوِّنات الفنِّيَّة، للمجموعة الشِّعريَّة.

المراجع

إمام، إمام عبد الفتَّاح، (١٨٣) الطَّاغية؛ دراسة فلسفيَّة لصورٍ من الاستبداد السِّياسيِّ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثَّقافة والفنون والآداب، الكويت، (مارس/ ١٩٩٤م).

إيجلتون، تيري، النَّقد والأيديولوجيَّة، تر: فخري صالح، (د. ط)، المُؤَسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، (١٩٩٢م).

البيطار، د. فراس، الموسوعة السِّياسيَّة والعسكريَّة، (ط١)، دار أسامة للنَّشر والتَّوزيع، عمَّان، (٢٠١٣م).

توما، خليل، (ت١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م)، الأَعْمَال الشِّعْرِيَّة، (ط١)، شركة نور للطِّباعة والتَّصميم، بيت جالا، (٢٠١٥م).

توما، نَجْمَة فَوْق بَيْت لَحْم، (د. ط)، منشورات صلاح الدِّين، القدس، (تشرين أوَّل/ ١٩٧٧م).

التُّونجيُّ، د. محمَّد، المعجم المُفصَّل في الأدب، (ط٢)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، (١٩٩٩م).

الجوهريُّ، أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد، (ت٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م)، الصِّحاح؛ تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة، تح: محمَّد زكريَّا يوسف، (ط٤)، دار العلم للملايين، بيروت، (١٩٩٠م).

الجيُّوسيُّ، سلمى الخضراء، موسوعة الأدب الفلسطينيِّ المعاصر؛ (١) الشِّعْر، (ط١)، المُؤَسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، (١٩٩٧م).

حافظ، أحمد غانم، الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة من النَّشأة إلى الانهيار، (د. ط)، دار المعرفة الجامعيَّة للطَّبع والنَّشر والتَّوزيع، الإسكندريَّة، (٢٠٠٧م).

حسيبة، مصطفى، المعجم الفلسفيّ، (ط١)، دار أسامة للنَّشر والتَّوزيع، عمَّان، (٢٠٠٩م).

ريكور، بول، محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، تحرير وتقديم: جورج هـ. تيلور، تر: فلاح رحيم، (ط١)، دار الكتاب الجديد المتَّحدة، بيروت، (كانون الثَّاني، يناير، ٢٠٠٢م).

الزُّبيديُّ، محمَّد مرتضى، (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد العليم الطَّحاويّ، (د. ط)، وزارة الإعلام الكويتيَّة، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، (١٩٧٤م).

شراب، محمَّد محمَّد حسن، شعراء فلسطين في العصر الحديث، (ط١)، الأهليَّة للنَّشر والتَّوزيع، عمَّان، وبَيروت، (٢٠٠٦م).

الصَّالح، د. مصلح، الشَّامل؛ قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعيَّة؛ إنجليزيّ – عربيّ؛ مع تعريف وشرح المصطلحات، (ط١)، دار عالم الكتب للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، (١٩٩٩م).

صليبا، جميل، المعجم الفلسفيّ بالألفاظ العربيَّة والفرنسيَّة والإنكليزيَّة واللَّاتينيَّة، (د. ط)، دار الكتاب اللُّبنانيّ، بيروت، (١٩٨٢م).

طبانة، بدويّ، قضايا النَّقد الأدبيِّ، (ط٣)، دار المرِّيخ للنَّشر، الرِّياض، (١٩٨٤م).

عبد النُّور، جَبُّور، المعجم الأدبيّ، (ط٢)، دار العلم للملايين، بيروت، ("كانون الثَّاني، يناير"/ ١٩٨٤م).

العرويُّ، عبد الله، مفهوم الإيديولوجيا، (ط٨)، المركز الثَّقافيّ العربيّ، الدَّار البيضاء، وَبيروت، (٢٠١٢م).
العَقَّاد، عبَّاس محمود، (ت١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م)، حياة المسيح في التَّاريخ وكشوف العصر الحديث، (د. ط)، نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، (أبريل/ ٢٠٠٥م).
علُّوش، د. سعيد، معجم المصطلحات الأدبيَّة المعاصرة؛ (عرض وتقديم وترجمة)، (ط١)، دار الكتاب اللُّبنانيّ، بيروت، وَسوشبريس، الدَّار البيضاء، (١٩٨٥م).
عمر، أحمد مختار، (ت١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، (ط١)، عالم الكتب، القاهرة، (٢٠٠٨م).
عنانيّ، د. محمَّد، المصطلحات الأدبيَّة الحديثة؛ دراسة ومعجم إنجليزيّ عربيّ، (ط٣)، الشَّركة المصريَّة العالميَّة للنَّشر – لونجمان، القاهرة، (٢٠٠٣م).
ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريَّا، (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللُّغة، تح: عبد السَّلام هارون، (د. ط)، دار الفكر، بيروت، (١٩٧٩م).
الفيروزآباديُّ، مجد الدِّين محمَّد بن يعقوب، (ت٨١٧هـ/ ١٤١٥م)، القاموس المحيط، (د. ط)، دار الحديث، القاهرة، (د. ت).
الكتاب المُقَدَّس؛ العهد الجديد، (ط٣)، دار المشرق والمطبعة الكاثوليكيَّة، بيروت، (تشرين الثَّاني، نوفمبر/ ١٩٩٤م).
لالاند، أندريه، (ت١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م)، موسوعة لالاند الفلسفيَّة، تعريب: د. خليل أحمد خليل، إشراف: أحمد عويدات، (ط٢)، منشورات عويدات، بيروت، وَباريس، (٢٠٠١م).
مجمع اللُّغة العربيَّة، المعجم الفلسفيّ، (د. ط)، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميريَّة، القاهرة، (١٩٨٣م).
مجموعة مُؤَلِّفِين، الموسوعة العربيَّة العالميَّة، (ط٢)، مُؤَسَّسة أعمال الموسوعة للنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، (١٩٩٩م).
مجموعة مُؤَلِّفِين، الموسوعة الفلسطينيَّة؛ القسم العامّ، (ط١)، هيئة الموسوعة الفلسطينيَّة، دمشق، (١٩٨٤م).
مصطفى، خالد عليّ، الشِّعر الفلسطينيّ الحديث (١٩٤٨ – ١٩٧٠م)، (ط٢)، دار الشُّؤون الثَّقافيَّة العامَّة "آفاق عربيَّة"، بغداد، (١٩٨٦م).
مندور، محمَّد، في الأدب والنَّقد، (د. ط)، نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، (١٩٨٨م).
ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين محمَّد بن مكرم، (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، (ط١)، دار صادر، بيروت، (د. ت).

هلال، محمَّد غنيميّ، النَّقد الأدبيّ الحديث، (د. ط)، نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، (أكتوبر/ ١٩٩٧م).

هوميروس، الأُوديسَّة، تر: دريني خشبة، (ط١)، التَّنْوير للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، وَالقاهرة، وَتونس، (٢٠١٣م).

وليامز، ريموند، (ت١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، الكلمات المفاتيح؛ معجم ثقافيّ ومجتمعيّ، تر: نُعَيْمان عثمان، تقديم: طلال أسد، (ط١)، المركز الثَّقافيّ العربيّ، الدَّار البيضاء، (٢٠٠٧م).

وهبة، مجدي وَالمهندس، كامل، معجم المصطلحات العربيَّة في اللُّغة والأدب، (ط٢)، مكتبة لبنان، بيروت، (١٩٨٤م).

ثانيًا: ثَبَتُ الْمَوَاقِعِ الإِلِكْتُرُونِيَّةِ:

الأسطة، عادل، خليل توما.. الأعمال الشِّعريَّة، الموقع الإلكترونيّ لصحيفة "الأيَّام"، (www.al-ayyam.ps)، بتاريخ: (١٤/ ٢/ ٢٠١٦م).

الأسطة، نَجْمَة فَوْق بَيْت لَحْم، الموقع الإلكترونيّ لصحيفة "الأيَّام"، (www.al-ayyam.ps)، بتاريخ: (٤/ ١٢/ ٢٠٠٥م).

الأسطة، نَجْمَة فَوْق بَيْت لَحْم... نجمة في رام الله، الموقع الإلكترونيّ لصحيفة "الأيَّام"، (www.al-ayyam.ps)، بتاريخ: (٢٢/ ٩/ ٢٠١٣م).

تاجا، وحيد، النَّاقد الأدبيّ إبراهيم خليل لـ"أشرعة": الشِّعر حين يغرق في السِّياسة المباشرة والأيديولوجيا يفقد شعريَّته ويغدو شعارات، الموقع الإلكترونيّ لصحيفة "الوطن" العُمَانيَّة، (www.alwatan.com)، بتاريخ: (١١/ ١/ ٢٠١٥م).

القدُّوميُّ، نمر، "خليل توما"... وإحياء الذَّاكرة، الموقع الإلكترونيّ لصحيفة "دنيا الوطن"، (www.alwatanvoice.com)، بتاريخ: (٢٤/ ٤/ ٢٠١٦م).

مجموعة مُؤلِّفين، بيت لحم (مدينة)، الموسوعة الفلسطينيَّة، (www.palestinapedia.net)، بتاريخ: (٢٣/ "٩، أيلول، سبتمبر"/ ٢٠١٣م).

الموت يُغيِّب الشَّاعر الفلسطينيَّ الكبير خليل توما، بوَّابة "الهدف" الإخباريَّة، (http://hadfnews.ps)، بتاريخ: (الأربعاء/ ١٣/ "٢، شباط، فبراير"/ ٢٠١٩م/ ٨:٥٩ ص).

Jordanian Journal of Arabic Language and Literature

An International Refereed Research Journal

Issued by the Higher Scientific Research Committee/Ministry of Higher Education and Scientific Research and the Deanship of Academic Research/Mu'tah University

Price Per Issue: **(JD 3)**

Subscription:

Subscriptions should be sent to:

Jordanian Journal of Arabic Language and Literature
Deanship of Scientific Research
Mu'tah Jordan
Karak- Jordan

Annual Subscription:

Individuals:

- Jordan : [JD 10] Per year
- Other Countries: [$30] Per year

Institutions:

- Jordan : [JD 20] Per year
- Other Countries: [$40] Per year

Students:

[JD 5] Per Year

Subscrber's Name & Address:

Name	
Address	
Job	

Form:

☐ Cheque: ☐ Bank Draft ☐ Postal Order

Signature: **Date: / /20**

Edited Books (Conference Proceedings, dedicated books)

1. author's name (2). title of the article placed in quotation marks (3). title of the book in bold print (4). Name(s) of the Editor 5. Edition, publisher, date and place of publication 6. page(s) number.

Example:

Al-Ḥiyāri, Muṣṭafā: "Tawaṭṭun Al-Qabā'il Al-'Arabiyya fi Bilād Jund Qinnsrin ḥattā Nihayāt Al-Qarn Al-Rābiʿ Al-Hijri", **Fi Miḥrāb Al-Maʿrifah: Dirasāt Muhda ilā Iḥsān 'Abbās**, Ed. Ibrāhim Assʿāfin, 1st edition, Dār Ṣāder and Dār Al-Gharb Al-Islamī, Beirut, 1997, p. 417.

- Names of foreign figures should be written in Arabic followed by the name in its original language placed in parentheses.
- Contributors should consistently use the transliteration system of the Encyclopedia of Islam, which is a widely acknowledged system.

Qurānic verses are placed in decorated parentheses, ﴿ ﴾ with reference to the name of the surat and number of the verse. The Prophet Tradition is placed in double parentheses like this: (( )) when quoted from the original sources of the Prophet Tradition .

Editorial Correspondence

Manuscripts for submission should be sent to: Editor-in-Chief,
Jordanian Journal of Arabic Language and Literature
Deanship of Academic Research
P.O. Box (19)
Mu'tah University, Mu'tah (61710),
Karak, Jordan.
Tel: (03–2372380)
Fax. ++962–3–2370706
E-mail: jjarabic@mutah.edu.jo

References:

In-text citations are made with raised Arabic numerals in the text placed in parentheses([1], [2]) referring to notes that provide complete publishing information at the bottom of the page. Each page has its own sequence of numerals starting with the numeral 1 and breaking at the end of the page. The first time the author cites a source, the note should include the full publishing information. Subsequent references to the same source that has already been cited should be given in a shortened form.

Basic Format

Books

The information should be arranged in five units: (1) the author's name (Last name first followed by the first and middle names) (2) date of the author's death in lunar and solar calendars. (3) the title and subtitle of the book in bold print (4) name of translator or editor/compiler (5) edition number, publisher, date and place of publication, a number (for a multivolume work), and page(s) number.

Example:

Al-Jāḥiẓ, Abu 'Uthmān 'Amr ibn Baḥr (d 255 AH./771 AD.). '**Al-Ḥayawān** . Editor Abdulsalām Moḥammad Ḥarūn. 2nd edition, Muṣṭafa al-Babi al-Ḥalabi, Cairo, 1965, vol. 3, p.40.

Subsequent references to the same source:

Al-Jaḥiẓ. **Al-Ḥayawān**, vol.3, p. 40.

Manuscripts:

(1) author's name (last name, first followed by first and middle names) and date of death (2) title of the manuscript in bold print (3) place, folio number and/or page number.

Example:

Al-Kinānī, Shafiʿ Ibn 'Ali. (d 730 AH./1330 AD.): **Al-Fadl al-Ma'thūr min Sīrat al-Sulṭān al-Malik al-Manṣūr**. Bodleian Library, Oxford, March collection number 424, folio 50.

Articles in Periodicals:

(1)author's name (2) title of the article in quotation marks (3) title of the journal in bold print (4) volume, number, year and page number.

Example:

Jarrār, Ṣalaḥ. " 'ynāyat al-Suyūṭi Biturāth al-Andalusi:Madkhal." **Mu'tah lilbuhūth wa al-Dirasāt**, vol.10, number 2, 1415AH./1995AD., pp. 179–216.

Conditions of Publications:

- All contributions should be in Arabic. Contributions in English or any other language may be accepted with the consent of the Editorial Board
- The journal welcomes high quality scholarly contributions devoted to the Arabic language and literature, like articles, edited and translated texts and book reviews.
- The author should warrant in a written statement that the work is original, hasn't been submitted for any journal and is not part of an MA or Ph.D. dissertation.
- The work should follow the rules of scientific research
- It is a condition of publication that authors vest their copyright in their articles in the journal. Authors, however, retain the right to use the substance of their work in future works provided that they acknowledge its prior publication in the journal.
- Authors may publish the article in a book two years after publication, with prior permission from the journal, provided that acknowledgement is given to the journal as the original source of publication.
- After submission two of more referees will be asked to comment on the extent to which the proposed article meets the aims of the journal and will be of interest to the reader.
- Four copies of each manuscript should be submitted, typed on one side of A4 paper, 2.5 margins and double spaced. Manuscripts can be sent by ordinary mail accompanied by 3 ½ inch diskette in MS Word 97 or higher. The length of the manuscript should not exceed 40 pages.
- The first page should have the title of the article, the name(s) and institutional affiliations .
- The Editorial Board reserves the right not to proceed with publication for whatever reason.
- Manuscripts that are not accepted for publication will not be returned to the author(s).
- The author(s) warrant that they should pay all evaluation fees in case they decide not to proceed with publication for whatever reason.
- The author(s) should make the amendments suggested by the referees within a month after the paper is passed to them.
- The journal reserves the right to make such editorial changes as may be necessary to make the article suitable for publication.
- Views expressed in the articles are those of the authors' and are not necessarily those of the Editorial Board or Mu'tah University, or in any way reflect the policy of the Higher Committee or the Ministry of Education in The Hashemite Kingdom of Jordan.

Notes for Contributors:

-An Arabic and English abstract of c.150 words should be included on two separate pages. Each of these two pages should include the title of the article, the names (First, middle and surname) of the author(s), the postal address and the e-mail, and their academic ranks. The keywords (c. 5 words) should appear at the bottom of the two pages.

Jordanian Journal of
Arabic Language and Literature
An International Refereed Research Journal

Vol. (16), No. (4), 2020

The journal is an international refereed journal, founded by the Higher Committee for Scientific Research at the Ministry of Higher Education, Jordan, and published periodically by the Deanship of Academic Research, Mu'tah University, Karak, Jordan.

Editor-in Chief: Professor: Anwar Abu Swailim
Secretary: Dr. Khaled A. Al-Sarairah

Editorial Board:

Professor Mohammad Mhmoud Al-Droubi
Professor Mohammed Ali F. Shawabkeh
Professor Ibrahim Al-Kofahi
Professor Abdalhaleem Hussein Alhroot
Professor Omar Abdallah Ahmad Fajjawi
Professor Hussein Abass M. Al-Rafaya
Professor Fayez Aref Soliman Al Quraan
Professor Saif Al-Dain Taha Al-Fugara

Editorial Advisory Board

Professor Abdulkarim Khalifah
Professor Abdulsalam Al-Masadi`
Professor Abdulaziz Al-Mani'
Professor Mohammad Bin Shareefah
Professor Salah Fadl
Professor Abdulmalak Murtad
Professor Ahmad Al-Dhbaib
Professor Abduljalil Abdulmuhdi
Professor Bakrey Mohamed Al-haj

Arabic Proofreader: Dr. Khalil Al-rfooh
English Proofreader Prof. Atef Saraireh

Director of Publications
Seham Al-Tarawneh

Editing
Dr. Mahmoud N. Qazaq

Typing & Layout Specialist
Orouba Sarairah

Follow Up
Salamah A. Al-Khresheh

©All Rights Reseved for Mu'tah University, Karak, Jordan

Publisher
Mu'tah University
Deanship of Academic Research (DAR)
Karak 61710 Jordan
Fax: 00962–3-2397170
E-mail: jjarabic@mutah.edu.io

© 2020 DAR Publishers
All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

Mu'tah University

The Hashemite Kingdom of Jordan
Ministry of Higher Education

Mutah University
Deanship of Academic Research

Jordanian Journal of
Arabic Language and Literature

Published with the Support of Scientific
Research Support Fund

Vol. (16) No. (4), 2020

صندوق دعم البحث العلمي
Scientific Research Support Fund

Ministry of Higher Education
and Scientific Research

Mu'tah University

Jordanian Journal of

ARABIC

LANGUAGE & LITERATURE

An International Refereed Research Journal
Published with the Support of Scientific
Research Support Fund

Vol. (16), No. (4), (2020)

S. No
59

ISSN 2520 – 7180